



---

أَسْلُوبُ الْمَحَاوِرَةِ  
فِي  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ  
دكتور عبد الحليم حنفى

الطبعة الثالثة



الهيئة المصرية العامة للكتاب  
١٩٩٥



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم

ليس من الشرّ في شيء أن يختلف الناس ، ولكن الشر كل الشر أن يضلوا الطريق الصحيح إلى معالجة الخلاف ، أما أن يختلفهم ليس من الشر ، فذلك لأن كل ما في داخل نفوس الناس ، وكل ما يحيط بهم من ظروف الحياة يدعو إلى اختلافهم ، فاختلافهم إذن ليس غريبا ، ولكنه يتبع من طبيعة تكوينهم ومن أحوال معيشتهم معا . وأما أن الشر في ضلالهم الطريق الصحيح إلى تسوية الخلاف ، فلأن الطريق الصحيح هو الاحتكام إلى الحق ، وهو دائما واضح نير إذا صدقت النفوس في الاتجاه إليه ، وأقرب طريق يوصل إليه هو الحوار العقلي المجرد عن اتباع الهوى ، ولكن البديل القريب لهذا الطريق هو البحث عن القوة ، باعتبارها وسيلة سريعة وشائعة في تسوية الخلاف ، وحيث يكون هذا اللجوء إلى القوة قد ضل الطريق ، وفي هذا الضلال كل الشر ، وكل ما عانته

وما تعانيه البشرية من ويلات الحروب ، ومن أنواع الصراع .  
وما تخلفه من طواحين الجوع والفسر، التي تطحن الملايين الذين ليس لهم  
في هذه الحروب من ناقة ولا جمل في أغلب الأحيان ، والذين قد لا يشعرون  
بأن بينهم وبين محاربيهم شيئا قط من عداوة أو خصومة أو اختلاف  
وإنما الخصومة والخلاف بين القادة والرؤساء ، وقد ينحصر الخلاف كله  
بين اثنين ممن أتيح لهم احتلال قمم الشعوب ، بالحكم أو السيادة فيتدخلون  
من هذه القمم طواحين لإبادة بعض هذه الشعوب بالحرب ، وتعذيب  
الباقى بالجوع والعري والمرض وسائر مآثره الحروب ، ولو احتكموا إلى  
الحق ، لوجدوه واضحا بينا ، وأقصى ما يحتاجون إليه حينئذ ، هو  
الحوار بالمنطق والحجة ، ليكون الحوار طريقهم إلى الحق ، فالأمر حينئذ  
لا يكاد يعلمو حالتين ، إما أن يستجيب الطرفان للحق ، فيستريحان  
وتستريح معهما الشعوب ، وإما أن يتمرد أحدهما على الحق بعد ظهوره  
وحينئذ سيكون ظهور الحق مقصرا لأجل الخصومة ، ومقللا من عدد  
الضحايا إن تحولت الخصومة إلى رضى ، لأن ظهور الحق في جانب  
سيجعل منه في أغلب الأحيان قوة قوية ، ولا سلاح أقوى من الحق .  
ويجعل في الجانب الذى ظهر بطلانه ضعفا في ذات المسك بالباطل  
وتخاذلا في أتباعه ، فلا يبقى أوهن من جبهة الباطل ولا شيء أسرع من تهالك  
بنيانه ، وانفضاض جمعه ، وعلام يحرض هذا الجمع ، ويم يستمسك  
وهو موقن بأنه لاحق له ؟ وزيادة على ذلك ، حين يوقن بأن خصمه  
هو صاحب الحق . . .

والقرآن الكريم يهذى الناس فيما يهديهم إلى أن يحتكموا إلى  
الحق ، وإلى أن يسلكوا الطريق الصحيح إليه ، وهو طريق المحاورة

حتى لا يضلوا فيسلوكوا بادية ذي بدو طريق القوة دون منطق ، فيكونون حينئذ قد سلكوا ذات الطريق الى يسلكها سائر الحيوان الأعجم حين يختلف ، وهو طريق القوة البدنية دون منطق .

فيجعل القرآن كل قضايا سبيلها الحوار ، ويجعل كل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائما على الحوار ، ولا يجعل من القوة سبيلا قط إلى التعامل مع المخالفين ، وإنما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق ، لتكون أيضا وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق ، وآية ذلك أن الله جلت قدرته يتخذ من ذاته مثلا في المحاوره فلا يفرض قوته وقدرته مع أنه غير مراجع فيهما ، وإنما ييسط حواره قبل القوة ، ويضرب لنا سبحانه أمثلة كثيرة ، كحواره مع الملائكة حين يتقبل منهم في منطق الحوار ، ما يشبه أن يكون إنكارا أو اعتراضا عليه في ظاهر اللفظ ، كقولهم له سبحانه ( أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ) بعد أن قال لهم عن خلق آدم ( إني جاعل في الأرض خليفة ) وحواره مع بعض البشر ، مثل حواره مع إبراهيم الذي بدا وكأنه غير موثق بالبحث كل اليقين ، فيسأل ربه ( رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ ) ولكن ربه لا ينكر عليه ذلك وإنما يحاوره ، كما ينقل القرآن الكريم ( قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ) وحواره سبحانه مع نوح الذي بدا وكأنه يتغابي أو يتجاهل على الله لينجي فلذة كبده من الغرق ، ولكن الله يحاوره ليبين له الحق واضحا جليا في غير لباس ، قبل أن ينذره أو يحذره ( ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم

•

إلى أعظك أن تكون من الجاهلين : قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ) وكحواره سبحانه مع موسى حين ألح على ربه في أن يسمح له برؤية ذاته سبحانه ليزداد يقينا كما أراد إبراهيم أن يزداد يقينا بالبعث ، ولينقل لقومه ماكثر إلحاحهم فيه من قولهم ( أرنا الله جهرة ) ولكن الله لا ينكر على موسى مطلبه ، وإنما يحاوره ليملأ نفسه يقينا كما ملأ نفس إبراهيم (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ) وكذلك حواره سبحانه مع إبليس . على الرغم من تحدي إبليس ومخالفته وعصيانه الصريح ( ... ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين : قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فانخرج إنك من الصاغرين قال أنظرني إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنتظرين ، قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . . . . ) .

وهكذا نرى الله سبحانه يحاور الملائكة والناس وحتى الشيطان ، مع وضوح قوته وقدرته على أن يجعل كل شيء يمضي كما يريد . ولكنه يريد أن يعلم الناس - فيما يعلمهم - أن يلجأوا إلى المحاورة قبل لجوئهم إلى القوة ، مهما ملكوا من وسائل القوة ، ومهما كان خلاف مخالفيتهم ، وكأنه سبحانه يقول : هل تملكون من القوة أكبر مما أملك ؟ ومع ذلك فإني أتخذ المحاورة والحجة سبيلا إلى تبيان الحق

وإقراره ، وهل تبلغ مخالفة مخالفيكم ما بلغه خلاف إبليس إياي ؟  
ومع ذلك اتخذت الحوار معه سبيلا .

فمن هذا ونحوه ندرك أهمية الحوار في حياة الناس ، وندرك  
مدى عظم هذه الأمتية ، أمنية أن تصبح المحاوره سبيل الناس في  
وصولهم إلى الحق ، ووصول حقهم إليهم .  
وقد كان هذا الجانب ونحوه من الدوافع إلى اختيارى المحاوره  
لتكون موضوعا لهذا الكتاب .

ومن الدوافع أيضا جانب موضوعي ، يدور حول إعجاز القرآن  
الكريم وموجزه أنه مهما تعددت البحوث والأفكار في فهم إعجاز  
القرآن وتحديده ، فليس من المتوقع ولا من المظنون التوصل منه إلى  
كل شيء ، بل سيبقى سر إعجاز القرآن محاطا بما يشبه الهالة القوية  
الكثيفة التي إن كشفت عن كل الحجم ، فلن تكشف عن كل  
الجوهر والحقيقة ، ويبقى هذا السؤال قائما : ثم ماذا ؟ وذلك من  
باب قولهم ( إذا عرف السبب ، بطل العجب ) ولو استنزفنا  
كل ما في إعجاز القرآن من أسرار ، لنذهب أهم ما يحمله أسلوب القرآن  
من بهاء وجلال .

ولئن فسببى إعجاز القرآن منهلا لا يغضب ، لكل باحث فيه  
وكل مفترق منه ، وما كتب أسلوب المحاوره في القرآن إلا محاولة  
استكشاف جانب من جوانب الإعجاز ، نأمل ألا يعود القارئ منها  
صفر اليدين .

ولئن قيل فما وجه الاختلاف بين المحاوره والقصه ، مع كونهما



جميعا من أختبار السائقين ؟ والجواب أنه وإن جمعهما طابع الخبر فإتتهما من حيث الأسلوب وطبيعة التهج يختلفان اختلافا كبيرا ومن تقريب هذا الاختلاف إلى الأذهان ، أنه يمكن أن يقال إن الفارق بين القصة والمحاورة في القرآن ، كالفارق بين القصة والمسرحية في الواقع الأدبي ، من حيث إن القصة تعتمد على الأحداث في تتابعها وتولد بعضها من بعض ، أما المسرحية فتعتمد على الأشخاص في حوارهم ، وإبراز مواقفهم بالحجة والمنطق . فالقصة تعتمد على الأحداث أما المسرحية أو المحاورة ، فإنها تعتمد على حوار الأشخاص ، سواء أكان الشخص حقيقيا معينا بذاته ، أم اعتباريا بوصفه رمزا لمعنى معين ، كما يرمز في المسرحية عن الوطنية بشخصية لاهمنا من همي وإنما يهتما أنها رمز للوطن ، وكما يرمز في محاورات القرآن لمعنى معين ، فيساق على ألسنة أشخاص ، ليس المهم تحديد ذواتهم ونسبتهم ، ولكن المهم توضيح المعنى الذي جعلوا رمزا له ، كالمحاورات التي تدور في جهنم ، وفي الآخرة عامة ، بين الضعفاء والمستكبرين ، وبين المرء وقرينته ، فليس المهم حيثشذ ، معرفة أشخاص الطرفين ، وإنما المهم وضوح المعنى الذي يرمز له كل منهما .

وكما أنه لايتساع الخلط بين القصة والمسرحية في الدراسات الأدبية ، مع اتفاقهما في بعض الجوانب ، فكذلك لايتبغى الخلط بين القصة والمحاورة في القرآن الكريم ، من حيث الدراسة البيانية لأسلوب كل منهما وتهيجه .

وليس من أهداف هذا البحث استقصاء محاورات القرآن

ولا استقصاء الأهداف الدينية لما يتعرض له من المحاورات ، وإنما يهدف أساساً إلى أمرين :

أحدهما محاولة بيان أهم خصائص أسلوب المحاورات ، ومنهجها الذى تتميز به عن غيرها من الأساليب ، ومن الألوان البيانية ، أو ما يسمونه الأجناس الأدبية التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، دون استهداف الموازنة بين المحاورات وغيرها من هذه الأجناس البيانية ، بمعنى أن البحث يحاول بيان أهم خصائص أسلوب المحاورات ، لأنه موضوع الكتاب ، دون التركيز على الموازنة بين أسلوب المحاورات والأساليب الأخرى ، كأسلوب السخرية ، أو أسلوب القصة ، أو غيرهما فهذا موضوع مستقل ، لم يستهدفه الكتاب .

والأمر الآخر محاولة توضيح مدى إسهام أسلوب بالمحاورات ، فى تحقيق الهدف العام للقرآن الكريم ، فليس من البعيد عن الأفهام أن القرآن هدفة العام إصلاح الحياة ، سواء أكان إصلاحاً فى الدين أم فى السلوك ، أم فى أى جانب ، وأنه يسلط إلى تحقيق هذا الهدف أساليب متنوعة متعددة ، منها أسلوب المحاورات ، فينبغى أن يكون من أهداف الكتاب إبراز مدى إسهام أسلوب المحاورات فى تحقيق هذا الهدف سواء تمثلت هذه المحاولة فى حديث محدد أو جاءت فى ثنايا بسط المحاورات ، وتوضيح جوانبها وخصائصها .

فإن وفقت إلى شئ مما أريد . فهذا من فضل رى ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د • عبد الحليم حفى

\_\_\_\_\_

## المحاورة والمجادلة

يصبر علماء اللغة على أن يفرقوا بين المحاورة والمجادلة في المدلول فأما المحاورة فهي عندهم مراجعة الكلام . يقال حاورته أى راجعته الكلام ، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم . فمادة المحاورة تدور حول الرجوع .

وأما المجادلة فهي كما يفسرها اللغويون اللدد في الخصومة ، وما يكون في نحو من ذلك ، ولكنها في كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام .

ويمكن أن نخرج من حديث اللغويين بفارق واضح بعض الوضوح في مدلول اللفظين ، فالجدال والمجادلة والجدل ( يتحرك الدال ) كل ذلك ينحو منحى الخصومة ، بمعنى أن استعمال هذه المادة يكاد يلزم الخصومة في أى صورة من صورها ، ولو بمعنى التمسك بالرأى والتعصب له .

وأما المحاورة فهي مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ، ولاتلزم فيه صورة الخصومة ، وإنما تغلب عليها صورة الكلام المتبادل بين طرفين ، في أسلوب لاتقصده به الخصومة . أو لايراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة .

وهذه التفرقة بين المدلولين إنما استقاهما اللغويون بطبيعة الحال من تشيع الاستعمال العربي . وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم في استعماله

للفظين نجد فيه هذه التفرقة ، حيث يغلب استعمال القرآن الكريم للجدال في الموضع غير المرضي عنه ، أو غير المجدي ، كقوله تعالى : ( وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ )<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ( وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ )<sup>(٢)</sup> ، وكذلك استعمالها فيما ينشأ عن عدم الرضا أو عدم الجدوى حتى في الحديث عن الأنبياء ، كقوله تعالى ( وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ )<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ )<sup>(٤)</sup> ولذلك نهى القرآن عن الجدال في الحجج<sup>(٥)</sup> وقد وردت مادة الجدال في نحو تسعة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم ، يغلب عليها جميعاً أن تكون إما سياق عدم الرضا عن الجدال ، وإما عدم جدواه ، وكذلك علماء اللغة يفسرونه بما يدخل في هذا المحيط ، نتيجة تتبعهم لاستعماله سواء في القرآن ، أو في التعبير العربي عامة .

وأما المحاوره فقد وردت مادتها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ، اثنان متهما في موضع يبدو في ظاهره التخاصم الشديد ، في قصة الأخوين صاحبي الجنة ، حيث كان أحدهما مؤمناً سخيّاً ، والآخر كافراً شحيحاً ، فكان من قول الكافر لما رواه القرآن الكريم ( فَقَالَ لَصَاحِبِهِ هُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ) وينقل القرآن عن الآخر

(١) الآية ٥ سورة غافر .

(٢) الآية ٨ سورة الحج والآية ٢٠ سورة لقمان .

(٣) الآية ١٠٧ سورة النساء ومعنى ( يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ) يخونونها بالمعصية .

(٤) الآية ٧٤ سورة هود .

(٥) من الآية ١٩٧ سورة البقرة .

( قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُثَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ) (١) ومع أنها خصومة جوهرية بينهما إلا أنها من الناحية الاجتماعية ، أعنى في الظاهر الواضح أمام الناس لا تمثل خصومة وإنما تمثل اختلافاً بين الأخوين في الدين والمنهج ، ولعل هذا مما جعل تعبير القرآن الكريم عن موقفهما يتأق بلفظ التحاور المنبى عن مجرد المراجعة في الكلام ، ولأيتأق بلفظ الجدال الذى يرتبط بالخصومة ، أو اللدد فى الخصومة كما يقول اللغويون .

والموضع الثالث الذى ورد فيه التحاور فى القرآن الكريم ، يتضمن سياقه التفرقة بين المجادلة والمحاورة فى مدلوليهما اللذين نتحدث عنهما ، وذلك فى قوله تعالى ، فى قصة المرأة التى نجأت نخاصم زوجها وتشتكىه ( قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ) (٢) فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ، ولذلك كان التعبير حينئذ بالمجادلة ، ولكن حديثها مع النبي صلى الله عليه وسلم كان مراجعة فى الكلام ، ولذلك كان تعبيره بالمحاورة .

ومن هنا كان إشار لفظ المحاورة ، واختياره فى عنوان الكتاب بدل لفظ المجادلة ، لأننا لانعنى حديث الخصومة ، ولا اللدد فيه ، ولانعنى الخصومة لذاتها ، وإنما نعنى المراجعة فى الكلام ، وأسلوب طرأ هذه المراجعة ، من وجهة القرآن الكريم ، وتفتن أسلوبه فى ملامة كل

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٧ سورة الكهف .

(٢) أول سورة المجادلة .

تعبير لشخصية صاحبه ، ولظروف الموقف . ولكن هناك ملاحظة  
يتبني أن تكون واضحة ، وهي أن موضوع الكتاب ليس مقصوراً  
على مراجعة الكلام المجردة من الخصومة ، بل سنرى فيه أنواعاً ،  
بعضها نخلو من التخاصم كتحااور العلماء ، وبعضها لا يخلو من خصومة ،  
ومن لد ذلك أحياناً في الخصومة كمحاورة الذين يحتاجون في الدين ،  
فيمكن أن يقال حينئذ : لماذا لم يختار لفظ المجادلة ، مادام الموضوع  
يتضمن جدالاً ؟ أو كيف تختار المحاورة لموضوع الجدل ؟ ،  
والجواب عن ذلك أننا آثرنا لفظ المحاورة على لفظ المجادلة لسببين ،  
أحدهما أن تعبير المجادلة محصور لغة واستعمالاً في محيط الخصومة ،  
أو للدلالة على غير المرغوب فيه ، وليس من الميسور التوسع في مدلوله  
واستعماله ، أما لفظ التحاور فمع دلالاته على المراجعة يمكن التوسع  
فيه للدلالة على موقف الخصومة وموقف غير الخصومة ، مادام كلا  
الطرفين يراجع الآخر بكلام ومنطق .

والسبب الثاني أن هذا الموضوع لانتفيه الخصومة ، ولا أطراف  
الخصومة لذواتهم ، وإنما تعنيه المراجعة الكلامية التي يتداولونها ،  
وهذه المراجعة الكلامية بين الخصمين يمكن أن نتظر إليها حين نجردها  
عن الخصومة على أنها محاورة .

وإذاً فمراجعة الكلام التي نسعيها محاورة ، موجودة في كل  
أنواع الحديث الذي يتبادل طرفان ، سواء صليته خصومة أو لم  
نصاحبه وحينئذ يكون لفظ المحاورة أشمل لجوانب الموضوع وهذا  
ما عناه الاختيار .

ولكن هذا الحديث اللغوي ، يجرنا إلى التنبيه إلى لفظ يشيع

الخطأ في استخدامه ، وهو لفظ ( المناقشة ) حيث يشيع استخدامه في معنى المحاوره ، واللغة لاتعرف هذا الاستعمال ، بل لاتكاد تعرف استعماله من حيث الواقع إلا من طرف واحد ، وليس تبادل لابين طرفين ، فالمناقشة عند علماء اللغة استقصاء الحساب ، أى استيفاء الحساب ، والحساب يكون بين طرفين عادة ولكن استيفاءه يكون في العادة لمصلحة أحد الطرفين فحسب ، فمناقشة أحد الطرفين للآخر في اللغة معناها أن يستقصي محصيا ومستوعبا كل ماله على الآخر ، ويستشهد صاحب أساس البلاغة لهذا بقول عائشة رضى الله عنها ( من نوقش الحساب عذب ) أى من أحصيت واستقصيت أعماله ليحاسب عليها حسابا عاديا ، دون أن يتداركه عفو الله وغفرانه ، فلا بد أن يصيبه العذاب ولكن كثيرا من المثقفين والكتاب يستعملونها مرادفة للمحاوره ، وهذا الخطأ نشأ من شيوعها في التخاطب بين الناس بهذا المعنى ، وما أكثر ما تجنى العابية على الفصحى في هذا النحو وغيره من الألفاظ والأساليب .



## الدعاة واللسان

المحاورة في دلالتها الواقعية ، هي محاولة كل من طرفي الحديث أو أحدهما أن يقنع الآخر بمنطقه ووجهة رأيه ، وإذن فالمحاورة في أغلب صورها مباراة أو منافسة أداتها اللسان ، وهي في كل أحوالها تمثل موقف المحاور ورأيه وحجته ، وفوق ذلك فإنها تمثل شخصيته ومقدار عقله وتفكيره فأما شخصيته فتبدو من خلال طريقته في المحاورة ، ومدى حرصه على بلوغ هدفه ، ومدى مقدرة على محاصرة منافسه أو خصمه ، وأما عقله وتفكيره فيبدو من خلال حجته التي يسوقها ومن خلال ترتيب أفكاره ، وتسلسل المقدمات والنتائج في حديثه ومن الواضح أن القرآن الكريم جعل الاهتمام باللسان والمنطق في المكان البارز المرموق ، وإذا ذهبنا نتلمس مصادر هذه الأهمية يمكن أن نشير إلى أبرز جوانبها فيما يلي .

### ١ - أهمية اللسان :

لا نزاع في أن مهمة رسول الله أن يبلغوا للناس الدين الصحيح ، فينتزعوهم من الضلال والجهل إلى المعرفة الصحيحة لله أولاً ، ثم يبينوا لهم الأسلوب الأمثل لتطبيق شريعة الله ، سواء منها ما يتعلق بالعبادة لله ، أو الصلة بين الناس أو نحو ذلك ، كل رسول حسب ماتتضمنه رسالته من تفاصيل ، وفي كل ذلك يكون الرسول صاحب رسالة أو دعوة كل هم أن يقنع الناس بها ليقتنعوا بها ويطبقوها وهذا بطبيعة الحال يستلزم الحوار الدائم والمتواصل بينه وبين المرسل

إليهم ، هو يريد أن يقتنمهم بدعوته ، وهم يجادلونه للتمسك بتقاليدهم وكيانهم الاجتماعي الذي صاغوه من هذه التقاليد . وحينئذ تبين أهمية اللسان من حيث إنه السلاح الأساسي في هذه الحرب الإعلامية أو النفسية ، وإذا كانت مآثر الأسلحة العسكرية والتفيسية يمكن لشيء منها أن يؤدي بعض الغرض الذي يؤديه السلاح الآخر ، فإن اللسان هو السلاح الوحيد الذي لا يستغنى عنه الداعي ، ولا يجد شيئا قط يحل محله ، أو يغني عنه أي غناء ، ولعلنا نجد شيئا من هذا المعنى في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوِّمٍ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ<sup>(١)</sup>) فإنه وإن كان المعنى الأساسي متصفا على أنه لا بد أن تكون لغة الرسول والمرسل إليهم واحدة ، إلا أن دور اللسان في الآية وكونه الأداة الوحيدة للبيان والبلاغ ، وكونه ملازما لكل رسول ملازمة أساسية أمر واضح شديد الوضوح .

ولذلك جعل موسى عليه السلام اللسان مطلباً أولياً يدعو ربه أن يحققه له ( رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ) بل نلاحظ أنه حينما تحدث عن اللسان ربط به جوهر رسالته كلها في فهم الناس عنه ( يَفْقَهُوا قَوْلِي ) لأنهم إذا لم يفقهوا قوله فقد انقضت الرابطة بينه وبينهم ، لانعدام وسيلة الاتصال والتفاهم .

ويصر موسى على أن يكتمل لديه هذا السلاح الذي لا يبدل له عند الداعية ، وهو البيان ممثلاً في اللسان ، وحينما كلفه ربه إعلان رسالته ، وتبليغها إلى أعني طغاة عصره فرعون ، لم يطلب موسى

(١) الآية ٤ سورة إبراهيم .

قوة ولا سلاحاً قط في هذا الصراع الرهيب المقدم عليه سوى لسان كامل البيان ، ولم يكن لسانه هو كامل البيان والطلاقة ، فطلب الاستعانة بأخيه الفصيح الطلق اللسان ( وأخي هارون هو أفصح مني لساناً قَارِئُهُ مَعِي رَدُّهُ يُصَلِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ <sup>(١)</sup> ) وحين يكتمل مالدى موسى من شخصية قوية ، وعلم واسع ، وحجة دامغة ، بما لدى هارون من طلاقة لسان في حسن العرض والصبغة البليغة ، فهذا كل ما هو في حاجة إليه ، وهو أيضاً كل أو خير ما يحتاج إليه أى داعية ولم يكن ما ينقص موسى - كما يفهم من أغلب الروايات - شيئاً يتعلق بالعجز عن النطق أو عن وضوح الألفاظ نفسها ، وإنما يتعلق بطلاقة اللسان في استرساله ومقدرته السريعة المتلاحقة ليس على توضيح الكلمات ونطقها وإنما على تنسيقها وعرضها بالصياغة والإلقاء الجذاب المؤثر ، والزمخشري يبرز هذه الملحوظة في تعبير طريف عميق حيث يقول إن الفصاحة لا يحتاج إليها لمجرد إلقاء المعنى ليصل السامع إلى فهمه فيقول للمتكلم صدقت أو كذبت ، فهذا القدر يستوى فيه من يضرب به المثل في البلاغة وهو سبحانه ، ومن يضرب به المثل في المعنى وهو باقل ، وإنما يحتاج إلى الفصاحة لشيء فوق فهم المعنى ، وهو إلتأثير في السامع ، وكسب مشاعره ، وهذا بجانب وإن كان يبدو دقيقاً في التعبير عنه وفي تحديده ، إلا أنه واضح ملموس في واقع الحياة ، فمن المعروف مثلاً عن أمير شعراء عصره أحمد شوقي أنه كان يستعين بشخص آخر ليلقى شعره في المحافل نيابة عنه مع وجوده ، فهذا الشخص لم يصنع شيئاً أكثر من أن

(١) الآية ٣٤ سورة القصص .

صوته وإلقاءه يضيف على الكلام شيئاً يزيد من جماله ، ويجعل النفوس أشد تأثراً به ، ولم يكن أحمد شوقي يختار شخصاً معيناً ذا موهبة معينة ، وإنما يختار شخصاً لمجرد أن إلقاءه خير من إنشاد الشاعر نفسه . ولعلنا نستشف من هذا المثال حين ننظر من خلاله إلى استعانة موسى بأخيه هارون أن موسى لم يكن لديه عجز أو عيب فيما يتعلق بوصفه رسولاً ونبياً ، كما أن شوقي لم يكن لديه عجز فيما يتعلق بوصفه شاعراً ، وكما أن استعانة شوقي بمنشد شعره بدلاً منه لم تقلل من قيمته باعتباره شاعراً ، ولم تكن عيباً ولا مضعفاً فيه فكذلك استعانة موسى بأخيه هارون لا تحمل قطعاً دليلاً على عجز فيه باعتباره نبياً رسولاً ، وإنما تحمل دليلاً على ميزة من مزاياه ، وهي حرصه الشديد على أن يهيئ لرسائله أقصى ما يستطيع من وسائل النجاح .

#### اللسان والسيف :

كلاهما سلاح في الخصومة ولكن إذا كان السيف أشد رهبة ، وأصلب جسداً ، فلن اللسان أنفذ طعناً ، وأبعد أثراً ، هذا عند الخصومة ، وكذلك عند الغاية والنتيجة حين يحقق كل منهما هدفه فلن اللسان حيث أشد سلطاناً على أتباعه ، وهم أشد طواعية له من طاعتهم للسيف .

وإذا أردنا شيئاً من إيضاح ، نقول إن اللسان والسيف كلاهما سلاح تخاصم وتنافس ، وكلاهما كان كذلك منذ خلقه الله ، وإذا أردنا الموازنة بينهما في التأثير ، نجد النتيجة لا تخلو من غرابة في

ظاهر الأمر ، وتطبيق ذلك أن نضرب مثلا بنّاحد الملوك أو صاحب قوة يريد أن يفرض وضعاً معيناً على شعب أو جماعة من الناس لا ترغب في هذا الوضع ، ونبي صاحب رسالة ، أو مصلح صاحب مذهب ، يريد أن ينشر هذا الدين أو هذا المذهب في جماعة من الناس وهم بطبيعة الحال غير راغبين فيه ، لمخالفته ومناقضته لواقعهم ، فإن الأديان ومذاهب الإصلاح الحقبة بطبيعتها تكون دائماً مخالفة لواقع المجتمع ، لأنها لو كانت موافقة لم تكن هناك حاجة إليها ، وعندئذ نجد الوسيلة المألوفة لهذا الملك في تحقيق غرضه السيف ، وأما الوسيلة المألوفة للنبي أو صاحب المذهب فاللسان ، وقد يكون الملك أسرع في تحقيق غرضه ، وفرض إرادته ولكننا على المدى البعيد ، نجد الأمر مختلفاً من عدة وجوه .

#### أولها :

إن خضوع الذين خضعوا لهذا الملك ، إنما يستمر طالما كان سيفه مشهوراً وليس فيهم سيف يكافئه ، فلذا انخفض سيفه ، أوقام سيف أقوى منه أسرع هؤلاء الخاضعون إلى التحلل من خضوعهم ، أما انقياد الأتباع للنبي أو صاحب المذهب فإنه يستمر حتى بعد موته . بل وبعد موت الأتباع أنفسهم ، حيث يحرصون على أن يورثوا هذا الانقياد لأجيالهم التالية . لأن انقيادهم في حقيقته ليس انقياداً لشخص ، وإنما للعقيدة أو المذهب الذي أقنمهم به هذا الشخص .

### وثانيها :

إن السيف في انتصاره إنما يكسب الأعداء ، أما اللسان فانتصاره كسب الأصدقاء وذلك أن انتصار سيف الملك أو صاحب القوة إنما يمثل هزيمة لآخرين ، وهؤلاء المهزومون ، قد يخضعون للقوة خضوعاً ظاهرياً ، أما في بينهم وبين نفوسهم فهم أعداء لصاحب هذا السيف ، لأن الهزيمة لم تكن يوماً محبة إلى أحد . أما صاحب اللسان فإنه حين ينتصر في حوارهِ يكون قد اكتسب حب هؤلاء المقتنعين أو إعجابهم وحيثئذ يكون الوضع الطبيعي أن يتحولوا إلى أصدقاء ولا يتعارض هذا مع وضعهم في التبعية والانقياد

### وثالثها :

إن السيف لا يؤثر غالباً في السلوك ، ولا يغير من الطابع العام للفرد أو الجماعة ، إلا بمقدار الضرورة التي يضطر فيها الفرد اضطراراً إلى تغيير شيء من عاداته أو رغباته ، ثم يكون هذا التغيير مؤقتاً بوقت زوال كابوس السيف ورهيبته ، فلذا تنسم الفرد حريره عاد إلى ما كان عليه ولكنه في غالب الأمر يتفقد مطالب صاحب القوة في الظاهر ، ثم يتمرد ما وجد إلى التمرد سبيلاً ، أما صاحب الدين أو المذهب ، فإنه عادة عند اقتناعه واعتناقه ما اقتنع به يبدأ في توجيه سلوكه بما يتلاءم مع عقيدته الجديدة ، ومثال ذلك أن يصدر صاحب هذا السيف أمراً إلى الخاضعين لسيقه بالامتناع عن أي شيء كشرب الخمر مثلاً ، فإن الخاضعين سيتفقدون هذا الأمر ظاهراً ، ثم يتلمسون كل وسيلة للتمرد على الأمر ، ويجدون متعة في التمكن من مخالفة هذا الأمر ، أما أتباع الدين أو المذهب فإنهم حين يجدون

الخمر محرمة عليهم ، يبدأون في رياضة أنفسهم على هذا التحريم وإذا غلبتهم نفوسهم فخالقوا ، فإنهم يشعرون بتأنيب الضمير لأنهم على أيسر الفروض فعلوا شيئاً مخالفاً لعقيدتهم أو مذهبهم ، والنتيجة إذن أن اللسان - بوصفه أداة الإقناع - هو الوسيلة المثلى لتغيير السلوك وبالتالي للإصلاح الاجتماعي .

ومن هنا يتضح لنا لماذا لم يكن رسل الله من الملوك أصحاب السلطان ، ولا من القادة أصحاب القوة والنفوذ ، وإنما يرسل النبي وليس معه إلا ( اللسان ) أديم الأسلحة ، وأقوى وسائل الإصلاح والهدف الوحيد للأديان هو الإصلاح ، سواء أكان في العقيدة أم في المجتمع .

#### ورابعا :

إننا لو وازنا انتصار السيف بانتصار اللسان ، نجد انتصار اللسان هو النصر الحقيقي ، لأن المقتنع بدعوة اللسان هو الذي يحتسب لصاحب اللسان استسلاما كاملا ونهائيا ، ولا يتصور أن يعاود الخصومة معه فيما اقتنع به واعتنقه ، إلا في حالات شاذة لانتقاض حكما ، ولا يبنى عليها حكم ، أما انتصار السيف فلا يعد انتصارا كاملا ولا نهائيا ، بل هو نصر وقفي ، لأن المهزوم في أغلب الأحيان يحاول غسل الهزيمة عن نفسه ، ومن ثم فإنه يبدأ التفكير والمحاولة للانتقام ما أمكنته الفرصة ، وإذن فسيبقى صاحب السيف مترقباً ومتوجساً هذا الانتقام ، ولذلك ليس من الشغلط أن يقال إن نصر السيف لا يعد في حقيقته نصراً كاملا ، لأنه لا يحقق الاستسلام

النهائى من المهزوم ، فالنصر حينئذ أقرب إلى التفوق منه إلى النصر  
الكامل ، أما النصر الكامل والحقيقى ، فهو نصر اللسان  
على أن مجرد مقدرة اللسان على إظهار الحجة وإفحام الخصم  
حتى إذا لم يعتنق الخصم هذا اليقين ، فإن تفوق صاحب اللسان  
حينئذ أبلغ وأعمق من تفوق صاحب السيف فى الوضع المشابه لذلك  
والقرآن الكريم يضرب مثلا لذلك فى قصة إبراهيم صاحب اللسان  
والحجة ، مع خصمه صاحب السيف والقوة والملك العريض ( ألم تر  
إلى الذى حآج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال لإبراهيم ربي  
الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى  
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدي  
القوم الظالمين <sup>(١)</sup>

---

(١) الآية ٢٥٨ سورة البقرة .



## القرآن الكريم واللسان

نسبة القرآن إلى الله حقيقة لا يثازع فيها مسلم ، وهي فوق البحث والحوار ، ولكن هناك اعتبارات يمكن أن ينظر إلى القرآن من خلالها ، بعد التسليم بالحقيقة السابقة ، وبعد مراعاة أن اللسان في هذا الحديث مجرد رمز وأداة لما يعنيه السياق ، وما يعتمد عليه الموضوع من البلاغة والبيان ، والحجة والمنطق ، وسائر ماتقتضيه المحاورة ببدلولها الذي قلنا إن فيه بسطة وتوسعا دعا إليه احتياج الموضوع إلى الشمول والإحاطة ، حتى لا ينحصر في جانب واحد ، أو صورة واحدة من صور تبادل الكلام بين الطرفين .

وبعد ذلك التسليم ، وهذه المراعاة نقول إنه من اعتبارات الموضوع الجانبية ما يأتي :

١ - القرآن الكريم نزل بلسان النبي صلى الله عليه وسلم أي باللغة العربية ( فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً )<sup>(١)</sup> وكذلك عن القرآن ( وهذا لسان عربي مبين )<sup>(٢)</sup> وهذا يتضمن إبرازاً لأهمية اللسان ودوره ، ولأنه مجرد ورود ذكر اللسان ، وإنما نعى أن التركيز الواضح في هذين الموضعين وفي غيرهما من الآيات على إبراز اللغة وعلى التعبير عنها باللسان ، يتضمن

(١) الآية ٩٧ سورة مريم .  
(٢) من الآية ١٠٣ سورة النحل .

ولو إشارة إلى أن اللسان ولغته لهما دور فعال في الدعوة وتأثيرها ، وهذا المعنى هو ما يعني أن نصل إليه فيما يتعلق بالمحاورة ، وفي أن نفهم لماذا يوليها القرآن الكريم اهتمامه إلى الدرجة التي قد تبدو من خلال ما نستقبل من الحديث .

٢ - القرآن معجزة الله الخالدة إلى يوم القيامة ( قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً<sup>(١)</sup> ) والذي يشير الاهتمام في هذا أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مادية محسوسة كما هو معروف ، لأنها معجزات موقوتة بزمان محدود ، وفي مكان محدد ومنسوبة ولو في الظاهر إلى شخص النبي ، ولأنها أيضاً كانت في وقت لم تكن البشرية فيه قد نضجت ، أو لم يكتمل نضجها أما القرآن فهو على العكس من ذلك كله ، هو معجزة عامة في الزمان والمكان للبشرية كلها ، وللأزمان كلها ، وليست منسوبة إلى شخص النبي ، وإنما تنسب إلى الله مباشرة ، حيث إنه كلام الله ، أما المعجزات السابقة فيمكن نسبتها ولو ظاهراً إلى شخص النبي ، فيقال عيسى يبرئ الأكمه والأبرص مثلاً ، ولا يقال هذا كلام محمد . وكذلك من حيث نضج البشرية ، كانت البشرية عند نزول القرآن قد نضجت ، وهي مستمرة في النضج العقلي والثقافي ، وهذا كله واضح وغير جديد على قارئ ولكن إثارة الاهتمام تتركز في تساؤلنا : مع أن القرآن يسمو على المعجزات كلها سمو عظيمًا بجانبين ، أحدهما انتسابه مباشرة إلى الله ، والآخر خلوده على مر الزمان . فلماذا مع هذا السمو اختير الكلام

(١) الآية ٨٨ سورة الاسراء .

ليكون هو المعجزة الخالدة ، والمنسوبة إلى الله مع أن الله لا يغلبه أن يصنع معجزة مادية محسوسة تنسب إليه وتبقى بقاء الزمان ؟ ودون الإفاضة في الجواب ، نقول إنه مهما تعددت الإجابات فلا بد أن يكون من بينها تمجيد العقل والحجة ، والإشارة إلى أن الدين الذي يكتب له البقاء السليم ، لابد أن يعتمد على العقل والحجة ، والعقل والحجة عماد المحاوراة .

وإذن فالمحاوراة تحمل أعمق وأقوى ما يحتاج إليه دين أو دعوة ليكتب لأي منهما البقاء السليم .

٣ - مع أن القرآن يمكن اعتباره وسيلة وأداة أعطيت لمحمد صلى الله عليه وسلم للمعاونة على نجاح رسالته ، إلا أن حكمة الله اقتضت أن يكون القرآن كيانا متكاملا ومستقلا ، وليس مجرد أداة أو وسيلة ، فأدى التماثل في القرآن الكريم بالنظر الكلية ، يظهرنا على أن القرآن احتشدت فيه كل وسائل الدعوة الكاملة وأساليبها وأسلحتها معا . حتى كأن القرآن نفسه داعية كاملة الاستعداد ، والتهيؤ للدعوة ، والقدرة عليها ، وعلى صراع من يعاندها ويتحداها وهي ملحوظة مع قربها من الأفهام إلا أنها قد تحتاج إلى شيء من البسطة في القول للتوضيح ، وليس هنا مجال هذه البسطة ، ولكننا نستطيع إيجاز القول في أنه يمكن أن ننخيل القرآن وليس فيه إلا توضيح شريعة الإسلام ومبادئها وحدودها ونحو ذلك ، ويكون مع هذا كتاب دين لا تنقص فيه ، ولكن القرآن أقي بهذا وافيأ كل الوفاء ، وزاد على ذلك صنوفاً لا يمكن لعقل أن يحصيها ، من سرد أخبار السابقين مؤمنهم وكافريهم ، لاستنباط العبرة منها ، ومن

التفنن في تصوير نفسيات أعداء الله ومسالكهم ، ثم تصوير مايلقونه من جزاء في الدنيا والآخرة ، مقابلاً بجزاء المؤمنين ، ومن صراع مع كل لون من ألوان الكفر والنفاق ، ناصباً حرباً كاملة الأدوات النفسية والمادية لكل نوع من هذه الأنواع ، مختاراً من الأسلحة مايناسب كلا منها ، وهكذا في كل ميدان ، وصدق الله حيث يقول عن نحو هذا ( وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا )<sup>(١)</sup> ومن بين هذه الصنوف التي حفل بها القرآن الكريم نجد لوناً بارزاً واضحاً ، هو أسلوب الحوار والحجة . فالقرآن يعتمد اعتماداً أساسياً ، وفي مواضع كثيرة جداً على أن يتصدى لأعدائه بالحوار والمحاورة المباشرة حيناً وعلى السنة الأنبياء والمؤمنين السابقين حيناً آخر ، بل نلمس من حرص القرآن على إبراز أهمية المحاور والمحاورة أنه لايقصرها على مهاجمة الأعداء والتصدى للمخالفين ، وإنما يجعلها في كثير من المواضع نماذج للتربية والتعليم والتوجيه ، كالحوار بين إبراهيم وابنه الذبيح ، وبين موسى وأخيه هارون ، وبين موسى وأستاذه الخضر ، وبين مريم وابنها الرضيع . بل وبين الله سبحانه وملائكته ، كحوار الله سبحانه مع الملائكة في قصة خلق آدم عليه السلام ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

(١) الآية ٨٩ من سورة الاسراء .

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ <sup>(١)</sup> وليس غريباً أن يولى القرآن الحوار كل هذه الأهمية ، فإن الحوار بالحجة هو الطريق الأمثل ، بل الوحيد للإقناع العقلي ، والإقناع أساس الإيمان. إن لم يكن الإيمان نفسه . وأى دين أو منصب لا يبدل لاعتناقه من اقتناع . وإذن فالحوار له هذه الأهمية في الدعوة إلى أى دين أو منصب .

(١) الآية ٣٠ - ٣٣ سورة البقرة .

### طبيعة الحوار في القرآن الكريم

ليس المراد من هذا العنوان إفراده بالحديث عن الخصائص الفنية للحوار في القرآن ، فإن لهذه الخصائص مواضعها من الكتاب مقترنة بنوع المحاوراة التي تمثلها .  
ولما نعى به محاولة إبراز ماتوجيه نظرة فيها شيء من شمول ننظر بها إلى أنواع المحاوراة في القرآن الكريم بوصفها كلا ، وليس إلى كل نوع على حدة : ومن خلال هذه النظرة التي تحاول شيئا من شمول نتبين مايلي :

#### ١ - التنوع :

حيث نلاحظ أن الحوار في القرآن الكريم لم يقتصر على نوع معين كالمقيدة أو الدين عامة ، بل شمل كل أوجه الحياة دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية أو غير ذلك ، كما سبق الإشارة آنفا ، وكما سنستقبل من هذه الأنواع بعون الله . ومعنى ذلك أن المحاوراة لم تأت في القرآن عرضا ، ولم يستدعها سياق أو غرض معين ، وإنما هي غرض أساسي من أغراض القرآن وأسلوب محدد من أساليبه التي يهدف بها إلى تحقيق أغراضه الشاملة لكل جوانب الإصلاح عامة ، سواء أكتفت فردية أم جماعية .

## ٢ - الاعتماد على العقل :

وهو اتجاه واضح في كل أساليب محاوراة القرآن الكريم وطبيعة هذا الاعتماد أن الأسلوب يتجه إلى إبراز الحجة والمنطق العقلي ، ويتناع التسلسل المنطقي مهما بلغ من صور الافتراضات التي تتناقى مع أسس القرآن ، حتى إننا نجد الله تبارك وتعالى ذاته يوجه نبيه في حوار مع المشركين إلى أن يفترض لهم أن هناك آلهة أخرى مع الله ، ثم يحاورهم كيف تكون النتيجة : ( قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَإِتَّخَفُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا <sup>(١)</sup> ) كما يقول سبحانه ( لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا <sup>(٢)</sup> ) وهكذا نجد أسلوب المحاوراة في القرآن يعتمد على العقل المجرد - أثناء المحاوراة - من التأثير بأي عامل أو مؤشر خارج المحاوراة ، وهو أقصى ما يمكن أن يطلبه أو ينتظره مفكر يدعى الحرية في فكره . أو باحث يدعى التجرد من التحصب والانحياز ، وقد ضرب إبراهيم عليه السلام أمثلة باهرة في هذا المجال ، كما نراه في افتراض تجرده من النبوة ، بل من الإيمان في حوار مع الله ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَىٰ ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِّيُبَيِّنَ لِّقَلْبِي <sup>(٣)</sup> ) فإبراهيم يفترض في هذا الحوار أنه غير نبي وغير مؤمن ، وجوابه الله سبحانه أنه قد آمن في قوله ( بَلَىٰ ) هو تقرير للواقع من أنه مؤمن حقيقة ، ولكن هذا لا يتعارض مع تجرده الافتراضي من الدين أثناء المحاوراة ، ويدل عليه قوله ( لِيُبَيِّنَ لِّقَلْبِي ) لأن قلب النبي والمؤمن لا بد أن

(١) من الآية ٤٢ سورة الاسراء .

(٢) من الآية ٢٢ سورة الانبياء .

(٣) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

يكون مطمئنا ، ولكن ذلك لا يمنع من افتراض عدم الاطمئنان ، بل وعدم الإيمان أو النبوة أثناء المحاوره ، ولكن كان يبدو في هذا شيء من غرابة وتساؤل ، فالجواب أنه منهج إبراهيم الذي يضرب مثالا لايلحق في مقدرته الخارقة على الحاجة والمحاوره والافتحام كما سترى في حديثه الخاص به ، بل بلغ بإبراهيم التجرد في محاورته مع المشركين اللذين يعبدون الكواكب ، أن افترض في حواراه أنه يعبد كوكبا مثلهم ( فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي )<sup>(١)</sup> وغرض التجرد نفى وجود أى مؤثر على المحاور غير العقل وليسنا نريد الخوض في هذه التفاصيل التي لا تقصد لذاتها ، وإنما للتمثيل بها على أن المحاوره في القرآن طابعها الاعتماد على العقل ، ومتابعة هذا الاعتماد إلى أى مدى عقلى تحتاجه المحاوره ، ولو كان خروج مفترضا على أهم أسس القرآن نفسه ومبادئه ، وهو معنى كبير وعميق ، وذو دلالات كثيرة ، منها تمجيد الاسلام الواضح للعقل ومنها ثقة الاسلام في رسوخ مبادئه وموافقتها لكل العقول .

### ٣ - انصاف الخصم :

ومن السمات الواضحة في محاوره القرآن الكريم المحافظة على حق الخصم وانصافه من كل وجه ، وسواء أكان المحاور الذي يناله القرآن شخصا مؤمنا عاديا ، أم كان شخص نبي من الأنبياء ، بل حتى وإن كانت ذات الله سبحانه ، فالأمر واحد في المحاوره ، وهو إبراز حق الخصم وإنصافه ، ونلاحظ أن أوضح النواحي التي راعى منها القرآن أنها من حق الخصم ما يأتي .

(١) من الآية ٧٦ سورة الانعام .



(١) التجرد من المؤثرات ، والاحتكام إلى حكم يرتضيه الطرفان  
كما أشرنا إلى شيء من ذلك آنفاً ، فأما التجرد من المؤثرات فمثاله  
أن يحاور مؤمن كافرًا في إثبات وجود الله ، فلو قال المؤمن للكافر  
أنا مؤمن بوجود الله ثم قال أى شيء بعد ذلك ، فليست هذه محاورة  
بل هي إلزام للخصم ، أو هي محاورة فاشلة ، لأنه أعلن أنه مخالف  
لخصمه من أول خطوة في طريق المحاورة ، وكذلك لو قال له الله قال  
كنا أو الرسول قال كنا لأنه لا يؤمن بالله ولا بالرسول ، وإنما المحاورة  
المنطقية السليمة أن يتجرد كل من الخصمين أثناء المحاورة من  
عقيدته افتراضاً ، ومن انتمائه إلى أى شيء يؤثر عليه فيما يتعلق  
بموضوع المحاورة ، كما افترض إبراهيم أنه مشرك مثلهم ، يعبد  
كوكبا كما يعبدون : وأما الاحتكام إلى حكم يرتضيه الطرفان ،  
فذلك أمر طبعى أن يختصم الطرفان إلى قاض يرتضيه ليهكم  
بينهما ، ولكن هذا إنما يحدث في الخصومات الدنيوية أما الخصومة  
الدينية فلا يتصور فيها قاض مرتضى من الطرفين ، لأن القاضى  
إما مؤمن وإما كافر ، وليس بينهما وسط ، وفي كلا الحالين فهو  
منحاز لأحد الطرفين . ولذلك لم يكن هناك حكم في خصومات الدين  
إلا العقل ، لأنه قادر متفق عليه وعلى حقائقه بين الناس جميعاً ،  
فهو إذن متفق عليه ، ومرضى عنه من الطرفين ، ولذلك نجد القرآن  
الكريم يركز دائماً ، وفي كل محاوراته في الدين على جملة الحكم  
مهما يكن الطرف المحاور الذى يمثل القرآن ، وأو كان ذات الله سبحانه  
لأن الأمر حينئذ لا ينظر فيه إلى أشخاص المحاورة ، وإنما إلى عدالة  
الموقف ، فما دام القرآن يرتضى إقامة محاورة ، فهي محاورة في

قمة المثالية بصرف النظر عن شخص المحاور ، كما أن القاضي يجب أن يحقق العدالة ، مهما تكن أشخاص المتخاصمين .

(ب) حماية الخصم أثناء المحاوره : فمهما يبلغ الخصم المحاور من الضعف في رأيه أو في كيانه ، نجده في محاوره القرآن محمياً لايناله أذى ولاتسفيه ولاتحقير ، ومن بابيه قول مشرعي القانون ( المتهم بريء حتى تثبت إدانته ) فطرفا المحاوره قد اتفقا ولو ضمننا على افتراض تجردهما من العقيدة والالتزام خلال المحاوره ، وهذا يقتضي ألايوصف أحدهما بأنه مخطئ أو مصيب إلا بانتهاء المحاوره فالإساءة إلى أى من طرفي الخصومة قبل انتهاء المحاوره ظلم له ، ولذلك نجد الخصم في محاورات الدين في القرآن الكريم مصوناً من الأذى حتى يصدر عليه الحكم ، ومثال ذلك هذا الذي يحاور في الله مدعياً إنكاره أو إنكار مقدرة على بعث الموتى ، وكيف يوجه الله نبيه إلى محاورته في غير إيذاء ، بل فيما يشبه عتاب الود والتقريب ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قل يحْييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ) (١) .

(ج) إعلان المساواة للخصم ، وهي درجة أعلى من حماية الخصم أو عدم إيذائه ، حيث نلمس في محاورات القرآن إشعار الخصم بوضوح أثناء المحاوره ، بمساواته مع محاوره فيما يتعلق بهذا الحوار ، وهذا أقصى مايمكن من عدالة تمنح للخصوم ، حين يشعر الخصم أنه مساو لخصمه ، وأن خصمه هو الذي يشعره بذلك ،

(١) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ سورة يس .

رغم أن كل الملبسات توحى بغير هذه المساواة ، ومثال ذلك أنه مع اليقين بأن النبي على حق ، وأن مجادليه هم على الباطل ، إلا أن الله يوجهه إلى افتراض التجرد من ذلك ، وإشعارهم بالمساواة معه ، في صورة افتراض أنه لا يعلم أيهما على الهدى ، وأيهما في الضلال أم هو أم هم ؟ ( قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ <sup>(١)</sup> ) بل نجد لإنصاف الخصم في محاورات القرآن يصل إلى حد إشعار الخصم كأنه المتفوق ، وكلا الأمرين نجده في مثل هذه الصورة من إنصاف الخصم ( قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْسَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ <sup>(٢)</sup> ) فأعلن لخصومهم حق المساواة الجدلية ، في افتراض أن كلا الطرفين يمكن أن يكون على حق ، وأن يكون على باطل ( لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ ) ثم زاد على هذه المساواة أن افتراض صدق الخصوم ، وصحة رأيهم ، ورأى الخصوم أن عملهم وموقفهم من الدين صحيح ، أما عمل المؤمنين وموقفهم فباطل وإجرام ، فالقرآن يسلم لهم جدلاً أو افتراضاً أن المشركين على حق ، وأن المؤمنين مجرمون ويعلمن إليهم هذا على لسان الرسول ( قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْسَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .

ومن هنا القبول في إنصاف الخصم ، افتراض صحة أمانيه . وتوقع حسبانته ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَهْلَكَتِ اللَّهُ وَمِنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ

(١) من الآية ٨٥ سورة القصص .

(٢) الآيات ٢٤ - ٢٦ سورة سبا .

يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١) ويصرح القرآن لخصوم المحاوره بالمساواة داعيا لإياهم إليها ( قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٢) فهو يدعوهم إلى أمر لا يميز فيه أحدهما عن الآخر في شيء .

#### ٤ - تعديد الغاية وتوضيحيها :

يهتم حوار القرآن الكريم بإبراز الهدف الذي تدور حوله المحاوره مع التركيز الشديد على أن يكون الهدف واضحا ومحددا ومقبولا من النفوس والمشاعر بعد اجتيازه مرحلة القبول العقلي ، حيث إن هذه النقطة التي نتحدث عنها توقيتها يعد انتهاء المحاوره وإظهار الحق إما مع تسليم الخصم به ، وإما مع إفحامه وعجزه عن متابعة المحاوره ، وفي حالة التسليم يغلب أن يعترف الخصم بالحق وأن يعتنقه ، وأما في حالة الإفحام والعجز عن متابعة المحاوره ، فالغالب أن يبقى الخصم على خصومته ، ولكنه يعلن هزيمته صراحة أو ضمنا بعجزه عن مواصلة المحاوره ، بما يسميه مايسمى في عرف الملاكمة ( الضربة القاضية ) والشبه بين مهزوم المحاوره ومهزوم الملاكمة بالصورة المشار إليها واضح بارز على غرابة الجمع بينهما في تشبيه ، فكلاهما عجز ، غاية الأمر أن أحدهما عجز معنوي ، والآخر عجز حسي ، أو أحدهما عجز نفسي وعقلي ، والآخر عجز جسدي .

(١) الآية ٢٦ سورة الملك .

(٢) الآية ٦٤ سورة آل عمران وكلمة سواء أى لستوى فيها نحن

وانتم .

## ٥ - الرفق بالمهزوم :

وحديثنا هنا عما يلي هذه المرحلة . مرحلة انتصار القرآن أو من يمثله في المحاوراة ، وهزيمة خصمه . عندئذ نقول إن الملحوظ في محاورات القرآن احتفاظها دائما بالرفق بالخصم في كل الأطوار ، ففي طور المحاوراة نفسها رأينا كيف يرفق القرآن بالخصم ويحميه من الأذى حتى تنتهي المحاوراة ثم تعلن النتيجة ، ومن حق الخصم العادي حينئذ أن ينال من خصمه ومقوماته ، ولو في سياق الإشادة بنصره هو ، أما القرآن فنلاحظ فيه التركيز على إعلان النتيجة وإبرازها ، لأنها محور الخصومة ، وإعلانها في صورة الإعلام والنشر الذي يستهدف أن يكون في أوسع نطاق ممكن هو هدف مقصود للقرآن ، وهو نشر الدين نفسه ، فإن نتائج محاورات القرآن هي الدين نفسه . أما الخصم ذاته فتحس أن محاوراة القرآن لاتهدف إلى النيل منه أو إيلائه حتى بعد إعلان خطئه ، وسوء موقفه في المحاوراة ، وقد يلتمس لذلك أكثر من سبب ، فمن ذلك أن القرآن لايعنى كثيرا بالأشخاص كثروا أو قلوا ، إلا بمقدار اعتراضهم طريق نشر الدين ، أما أشخا صهم ذاتها ، أو خصومتهم لنفسها ، فالقرآن أكبر من أن يوليها اهتماما شديدا ولذلك نجد مهاجمة القرآن للأشخاص يتضح فيها التركيز على اعتراضهم طريق الدين ، ولو كان هذا التركيز بطريق غير مباشر ، وقد يكون من هذه الأسباب أن القرآن ليس إلا داعيا إلى الله ، فهو يريد أن يجذب كل الناس إليه ، بما فيهم هؤلاء الخصوم ويؤداء هؤلاء الخصوم قد يزيدهم بعدا عنه بينما هو يريد أن يقربهم إليه ، وهناك احتمالات كثيرة للأسباب ، ليس يعنى هذه الفقرة أن تفيض فيها

ومن أمثلة ذلك محاولة إبراهيم مع المشركين من عبدة الكواكب ، وتدرجه العقل والنفس معهم حتى وصل إلى تقمصه عبادة الشمس معهم ( فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ) ثم يصل إلى النتيجة حين كان قد وصل إلى اعترافهم واقتناعهم بأن الإله لا يغيب ، ولا ينبغي أن يغيب . وإذا الشمس اتى يعبدونها معهم افتراضاً على أنها الإله تغيب ، فيبرز حينئذ النتيجة والتعقيب عليها وتوضيحها ( فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١)</sup> ) وفي إشارة عابرة لا يقصد منها إلى البسط والتحليل ، نقول : فلننظر في التركيز على النتيجة كيف أن إبراهيم في هذه الكلمات الموجزة راعى كثيراً من النواحي ، ومن ذلك :

- ١ - المحافظة على صلته بالخصوم وتقريبهم إليه بقوله ( يَاقُومُ ) أملاً في كسب إيمانهم .
- ٢ - أعلن الحكم على عبادتهم للكواكب ، وهو إنها شرك ( وَمِمَّا تُشْرِكُونَ ) .
- ٣ - أعلن استنكاره لهذا الشرك ( إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ) .
- ٤ - بين لهم البديل الصحيح الذي يجب أن يتجهوا إليه بدل الشرك ، وهو الإيمان بالله ( إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ) .
- ٥ - بين لهم قدرًا كافيًا من مزايا الإله الواحد الذي يدعوه إلى إلهه ويكفى أنه ( فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ) .

(١) الآيات ٧٣ - ٨١ سورة الأنعام .

٦ - يخشى إبراهيم- اللبس والتأويل ، كأن يقولوا نعبد الإله الذى تدعوننا إليه ، ونعبد معه آلهتنا ، فيقول لهم إنه يأتى أى شرك مع الله ( وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) وكل هذا التركيز والتوضيح منصب على الغاية لإبرازها وتحديدها وتوضيحها ، ومن البدهى أن غاية المحاوره السابقة لإثبات وحدانية الله ، وإبطال ماعده من آلهة ، وهذا التركيز لايتجاوز الغاية المستهدفة ، وإنما يسلك كل سبيل لجعلها فى قمة الوضوح ولفت الأنظار منتها طريق المحاوره نفسها ، بمعنى أن التوضيح لايتأتى مفتعلا ، أو استطرادا ، أو إضافة وإنما يأتى مرتبطا بالمحاوره نفسها ، بوصفه جزءا منها ، ففى المثال السابق نجد التوضيح يأتى من صلب المحاوره من أكثر من وجه ، ومن هذه الوجوه أن ظهور الحق بانتصار أحد طرق المحاوره هو فى ذاته إبراز لموضوع الخصومه أو المحاوره ، وقد انتصر المحاور المزمع وفى هذا إبراز لحقيقه وحدانية الله ، وبطلان الشرك ، ولكن لما كانت هذه الغاية هى كل الهدف من المحاوره ، أعنى ليس فى هذه المحاوره ولا فى غيرها من محاورات القرآن هدف شخصى أو نفعى كالخصومه الشخصيه ، أو استهداف مصلحه ذاتية أو غير ذلك من المألوف فى خصومات إناس ، وكانت العقيدة أو جانب الإصلاح الذى تستهدفه المحاوره هو كل الهدف ، لذلك يشتد التركيز على هذا الهدف ، ففى هذه لمحاوره التى معنا ، مع وضوح الغاية من انتصار إبراهيم وإفحامه لمحاوريه ، إلا أنه يعاود التوضيح ، مصرحا عما أشرنا إليه فى النقاط السابقة كقولہ ( إِنِّى

بِرِيٍّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ) وقوله ( إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ ) . . .

#### ٦ - تحديد الهجوم :

وليس معنى ماسبق أن الخصومة أو المحاوراة كلها رفق ، فليس  
من طبيعة الخصومة أن تكون رفقاً ، والذي يلتزم الرفق بخصمه  
ليس أهلاً للفوز الدائم ، سواء أكان هذا في حرب السيف أم في  
حرب اللسان ، ولكن القوى حقاً هو من يستطيع الحكمة في معالجة  
خصمه ، وبخاصة في الحوار بالذات ، وعلى الأنص في حوار الدعوة  
عامة ، فقد أشرنا إلى أن الداعية المحاور لا يستطيع أن يغفل عن أنه  
يهدف إلى كسب محاوره ليضمه في دعوته ، وهذا مما يجعله يحافظ  
على جانب من حوار له إن لم يكن وداً ، فهو شبيه بالود ، أو على  
الأقل المسألة بينه وبين خصمه ، هذا جانب مما يراعيه محاور الدعوة  
لكن هناك جانباً آخر تقتضيه طبيعة الخصام من حيث هو ، وهو  
جانب القوة ، فالقوة أمضى أسلحة الخصومة على الإطلاق وقد  
يتوسع في مدلول القوة بأن يقال إن مظهر القوة في المحاوراة هو قوة  
الحجة ، كما أن قوة الطعن والضرب في الحرب هي مظهر القوة ،  
وليس هذا التوسع في الدلالة أو الفهم بالغريب ولا بالمستنكر ،  
ولكننا نقول إنه مع ذلك أيضاً ، فلا بد من ارتباط القوة بشخص  
الخصم ، بمعنى أن يحس الطرف الآخر أن خصمه قوى ، وهذا  
الإحساس له أهمية كبيرة في التأثير النفسي ، من حيث التمهيد  
لتحقيق ما يهدف إلى تحقيقه الطرف القوى ، ولتكتنا نعود فتقول  
إن تحديد مظهر القوة ليس ثابتاً ولا متفقاً عليه ، وإنما يتفاوت



ببتفاوت المحاورين أحيانا ، وبتفاوت موضوعات المحاوره أحيانا ، وبتفاوت الملايسات التي تحيط بالمحاوره أحيانا أخرى ، ولكن الهم أننا نرى محاورات الدعوة وقد اشتملت في أغلب أحوالها على الجانبين ، جانب الرفق أو الموادعة مع الطرف الآخر ، وجانب إظهار القوة في أى صورة يراها المحاور مناسبة للمقام وللشخصية خصمه .

وهذا ما نلاحظه يغلب على محاورات الدعاة في القرآن الكريم ، وأما تقييد المحاوره بأنها محاوره الدعوة ، فلأن محاورات غير الدعاة ليست في أغلب حالاتها في حاجة إلى إظهار القوة ، لأنها غالبا ليست بين خصوم ، وإنما بين كبير وصغير ، أعنى في المنزلة والدرجة الاجتماعية وليس في السن . كالمحاوره بين معلم ومتعلم ، مثل محاوره موسى مع معلمه الخضر ، أو بين أب وابنه كالمحاوره بين إبراهيم وابنه الذبيح ، أو بين رئيس ومرءوس ، كالمحاوره بين ملكة سبأ ومستشاريها وهكذا ، وليس هذا مكان هذه الأنواع من المحاورات حيث إنها تحتاج إلى حديث مستقل .

وأما اجتماع الأمرين ، الرفق والقوة ، فلأن موادعة الخصم تهدف إلى كسبه للدعوة ، أو عدم الإسهام في نفوره على الأقل ، وإعلان القوة لهذا الخصم ، ليكون هذا عاملا أيضا من عوامل كسبه للدعوة وبهذا تكون محاوره القرآن قد استخدمت جانبي القيادة ، أو فرعى العنان فبعض الناس يؤثر فيه اللين ، وبعضهم تؤثر فيه الشدة ، ولكن إذا اجتمع الأمران يكونان في قمة التأثير ، والجمع بينهما يحتاج إلى حكمة ، ومن أولى بهذه الحكمة من أسلوب القرآن ؟

فمن اجتماع الأمرين في تعبير واحد في القرآن الكريم ( فَلَنْ كَذَّبُواكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بِئْسَ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ )<sup>(١)</sup> فالفتراض أن هذه النتيجة جاءت بعد انتهاء محاورته مع خصومه من أهل الكتاب ، فقد كان المنتظر أن يسلموا له وأن يقتنعوا بعد ماساقه لهم قبل ذلك من براهين ، ولكن طبيعة اليهود عدم الاستجابة إلا لمنفعتهم وأهوائهم ، فلن يستجيبوا ، ولن يكتبوا عدم الاستجابة بل يعلنون لرسول تكذيبه ، ومع ذلك لايسرع الرسول إلى مبادلتهم العداة وإنما يقدم إليهم الرفق أولاً ، ويقدم إليهم رحمة ليست ضيقة ولاعادية ( ربكم ذو رحمة واسعة ) ولكنه مع ذلك يلوح لهم أخيراً بالقوة التي يرضخ لها من لانجدي معه الرحمة الواسعة ( ولايرد بئس عن القوم المجرمين ) .

ومن هذه الأمثلة الكثيرة في القرآن الكريم ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ )<sup>(٢)</sup> فبعد انتهاء المحاوراة الطويلة ، التي أصروا فيها وبعدها على أن هذا النبي ومن معه من المسلمين ضالون ، وعليهم أن ينتظروا الهلاك ، لايفضب الرسول صلوات الله عليه ، ولايبادلهم مايقولون وإنما يرفق بهم ، ويسألهم مؤيداً لهم في الجدال قائلاً إذا افترضنا صدقكم في اتهامنا بالضللال ، وأهلكنا الله أولم يهلكنا ، فما مصيركم أنتم ؟

(١) الآية ١٤٧ سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٨ سورة الملك .

والواقع أنكم معترفون بالكفر وعدم الإيمان بالله ، فمن ذا الذى  
يجبركم ويحميكم من عتابه ؟  
فقد كانت المواجهة لهم ظاهرة فى الشق الأول ، عجارتهم فى  
صدق ادعائهم ، ولكن إظهار القوة بالترهيب والإنذار كان فى  
الشق الثانى أشد وضوحا .

## تأثير المحاوره

تبقى جوانب من الحديث تشير شيئاً من تساؤل لتوضيحها ، ولكنها جميعاً تتعلق بتأثير المحاوره بوصفها أسلوباً من أساليب البيان العربى الذى تعرف على تسميته الأدب ، ومن هذه الجوانب التى تشير تساؤل الاستيفاح ، الجانب الموضوعى للمحاوره ، حيث يستطيع السائل أن يقول : ومع كل ماسبق من الحديث عن طبيعة المحاوره ، لم يتضح الجانب الموضوعى لها ، فكيف نتبينه ، أو بصياغة أوضح ما الغرض الذى تهدف إليه محاورات القرآن الكريم ؟

والواقع أنه تساؤل فى صميم الموضوع ، ولذلك يستلحق بسطة فى القول لتصل إلى شيء من وضوح فى الإجابة ، ويمكن أن تصاغ هذه البسطة اليسيرة فيما يأتى :

١ - غنى عن البيان أن القرآن الكريم كله هدفه الدعوة إلى الله بصفة عامة ، بكل ما يندرج تحت هذه الدعوة من جوانب الإصلاح فى العقيدة أو السلوك أو ما يتعلق بهما ، وإذن فالمحاورات فى القرآن تدخل فى هذا الإطار من حيث إنها تتضمن موضوعاً هو جزء من هذه الدعوة ، أو بمعنى أقرب ، كل موضوع المحاوره ، يتضمن جانب من هذه الدعوة .

٢ - ولكن القرآن الكريم من جوانب إعجازه أنه لا يعتمد

على المعاني المجردة لضعف تأثيرها ، وسرعة انمحائها من النفوس وإنما يعتمد على تجسيد المعاني في قوالب أو صور محسوسة . لإثارة اهتمام السامع بصورة أشد ، ولترسيخ المعنى وتثبيتته في النفوس ولذلك نجد القرآن يعرض عديداً من الأساليب البيانية ليصب فيها المعاني العادية ، ومثال ذلك الإيمان بالله ، فالقرآن يدعو مخاطبيه إلى توحيد الله في الإيمان به ، وفي عبادته . ويوضح لهم هذا بالمعاني المجردة وضوحاً بينا لاليس فيه ( اعبدوا الله مالهكم من إله غيره<sup>(١)</sup> ) ( قل هو الله أحد )<sup>(٢)</sup> وفي مواضع أخرى كثيرة من القرآن . ولكن القرآن لا يكتفى بذلك ، فإن من طبيعة النفوس ألا تنقف طويلاً مع المعاني المجردة ، لأن تأثيرها غير شديد ، فقد يطلب من المرء أمر فلا يستجيب له ، ثم يطلب منه هذا الأمر نفسه بأسلوب آخر فلذا هو يستجيب ، لأن الأسلوب الآخر يحمل إثارة لمشاعره ، يأتي صورة ثلاث هذه المشاعر ، وقد تكون هذه الصورة من قبيل الترغيب في أي لون من ألوان الإغراء والترغيب وقد تكون من قبيل التهريب في أي لون من ألوان التخويف والوعيد . فالإنسان تكوين عجيب من آثار قدرة الله القدير ، بعضه حيواني لا يختلف فيه عن أي دابة من دواب الأرض ، وبعضه ملكي يسمو فيه إلى طبيعة الملائكة ، وبعضه شيطاني ينزل به إلى حضوض الشياطين ، وبعضه خاص به هو ، وهذا البعض الخاص به في صورته العملية يتركز في شيئين ، أحدهما العقل بطابعه البشري ، والآخر الإرادة التي توجه سلوكه

(١) من الآية ٥٠ سورة هود .

(٢) من سورة الصمد .

وتتحكم في قياده ، وفي كل الأحوال فالإنسان واقع تحت عوامل عديدة متنوعة ، بعضها عقلى ، وبعضها مادى ، أعنى تابع من ماديات الإنسان في تكوينه ، وبعضها من المشاعر والانفعالات ، وهكذا . والله العليم الخبير بتكوين الإنسان وطبيعته ، يريد أن يأتيه من كل جوانبه وزواياه ، حتى لا تكون له أدنى حجة ، بل يكون هذا زيادة في إلزامه الحجة ، فقد كان يكفى أن يعرف الإنسان حقيقة أن لا إله إلا الله ، ليستجيب لهذه الحقيقة ، ولكن من آثار تعدد العوامل التي يتكون منها الإنسان ، والتي تؤثر فيه ، نجد أن الأقلية من الناس ، هم الذين تدفعهم المعرفة بهذه الحقيقة إلى الله ، أما الأكثرية فلان تؤثر فيهم المعرفة ، وإنما تؤثر فيهم عوامل أخرى بعضها من قبيل الخوف ، وبعضها من قبيل الرغبة والآمال ، ولذلك كان من حكمة الله أن تمثلت أساليب القرآن في كل هذه العوامل والمؤثرات ، لتطبق على الإنسان من كل زواياه ، لعلها تستطيع أن تقوده إلى الله فكان منها عامل المعرفة ، وهذا تخاطبه المعاني المجردة في القرآن ، والتي تدعوه مباشرة إلى الله كما مثلنا ، وكان منها عوامل الرغبة والمطامع والآمال ، فتخاطبه معاني الوعود الكثيرة التي يؤكدتها القرآن للمؤمنين العاملين للصلوات ، سواء من هذه الوعود ما يتحقق في الدنيا كقوله تعالى ( من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون <sup>(١)</sup> ) وكقوله تعالى على لسان نوح ( فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم

(١) الآية ٩٧ سورة النحل .

حنات ويجعل لكم أنهاراً (١) وكقوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . . . » (٢) وكقوله تعالى ( وعد الله اللذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد عرفهم أمناء ... ) (٣) أو ما يتحقق من هذه الدعوة في الآخرة ، كالأيات الكثيرة التي تصف الجنة وما فيها من نعم ، من مثل قوله تعالى ( وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ) (٤) .

ومن العوامل التي يخاطبها القرآن في الإنسان ، عامل الخوف الذي يؤثر في الإنسان ، بأقوى مما يؤثر فيه أي عامل آخر ، وهذا العامل تخاطبه آيات كثيرة حافلة بالوعيد للكافرين ، سواء في الدنيا والآخرة .

ومن العوامل التي يخاطبها القرآن في الإنسان المشاعر والمواطف والانفعالات وسائر الوجدان فكل مشاعر الوجدان يخاطبها القرآن ، مشاعر الغضب ، مشاعر الرضا ، مشاعر الحزن ، مشاعر الفرح ، مشاعر الحب ، مشاعر السخط ، وهكذا . حتى انفعال الضحك يخاطبه القرآن ،

(١) الآيات ١٠ - ١٢ سورة نوح .  
(٢) من الآية ٩٦ سورة الأعراف .  
(٣) من الآية ٥٥ سورة النور .  
(٤) الآية ٧٢ سورة التوبة .

كما يفعل في أساليب السخرية ، التي تبعث على الضحك من المصورين بها كتصوير هذا الزعيم العريض المديد ، الذي يتيه على الناس بضخامته صاداً عن سبيل الله ، ولكن أهل مكة يجدون نفوسهم وقد فرغت من تهيبها له ، وامتلأت سخرية تثير الضحك ، حين يرونه مصوراً بهذه الصورة ( سَتَيْسُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ )<sup>(١)</sup> والوسم هو العلامة ، والخرطوم وإن كان اسماً للأنف ، إلا أن فيه إشارة إلى التشبيه بخرطوم الفيل ، والصورة من هذه الزاوية تشبيه هذا الزعيم المهيب بفيل مكوى على خرطومه ، ليكون الكى علامة مميزة عن الفيلة ، ووعيد الله لهذا الزعيم المشرك بالكى على أنفه لايراد منه التعذيب ، فلدى الله من العذاب ما هو أشد ، وما هو أنسب من حيث التعذيب للكفرة ، ولكن المراد إثارة السخرية الباعثة على الضحك أو الاستخفاف ، لتكون أبلغ في صرف الأتباع عن انقيادهم لهذا الزعيم فمهما وصف عذاب هذا الزعيم في جهنم ، فلن يبلغ من نفوسهم ما تبلغه هذه العلامة على أنفه الشامخ الأبى .

ومن المشاعر التي غاطبها القرآن مشاعر النفور ، فالقرآن مثلاً ينهى عن الغيبة وينفر الناس منها ، فينهاهم عنها ( ولا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ) وهذا عامل المعرفة<sup>(٢)</sup> ، التي كان يمكن أن يكتفى به لو أن الإنسان تحركه المعرفة وحدها وتؤثر في سلوكه ، ولكنه لما كانت تحركه عوامل أخرى ، كان أقرب هذه العوامل حينئذ

(١) الآية ١٦ سورة القلم . ويرى أن المراد الوليد بن المغيرة .

(٢) أى معرفة أن الغيبة ينهى عنها الله ، لأن الآية مخاطبة بها المؤمنين .



مشاعر النفور في الإنسان ، فيجسم القرآن لهذا الشئ صورة تنفر منها مشاعر كل الناس ( ولا يَتَّبِعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ... )<sup>(١)</sup> فصورة الأكل من لحم الأخ ، ثم وهو جيفة ، تنفر منها مشاعر كل إنسان .

ومن الواضح أن القرآن لاتعنيه المشاعر لذاتها ، وإنما ليؤثر بها في الناس ، فحيث كانت من مقاوِد الناس ، فإنه يحرص على أن يمسك كل المقاوِد ، ويخاطب كل المؤثرات التي توجه الإنسان وتؤثر في سلوكه واتجاهه ، من عقله وغرائزه ومشاعره ، وسائر محرركاته ، فإذا جمع بعد هذا كله ، فهو إنسان شاذ على القطرة السوية .

ونلاحظ - أن هناك بعض الأمور ذات الأهمية الخاصة ، لا يكتفى القرآن بعرضها على جانب واحد من جوانب التأثير في الإنسان وإنما على جوانب عديدة ، كالعقيدة ، حيث نجد القرآن يوليها أكبر الاهتمام في العرض ، لأنها محور الدين كله ، فيوضحها توضيحاً شديداً بأساليب كثيرة تصاغ بالمعاني المجردة ، وما يدور حولها ، ولكنه لا يكتفى بذلك ، وإنما يعرضها في كل الأساليب التي تخاطب كل المؤثرات في الإنسان ، فيصوغها في قصص ، وهذه القصص تثير أحياناً التفكير ، وأحياناً تثير مشاعر وانفعالات مختلفة ، حسب طبيعة كل قصة ، وهي قصص كثيرة متنوعة كقصص الأنبياء مع أقوامهم ، وأحياناً قصص بعض الأنبياء مع ذات الله سبحانه كقصة إبراهيم في محاورته ربه كيف يحيى الموقى<sup>(٢)</sup> وقصة موسى

(١) من الآية ١٢ سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

في محاورته ربه أن يسمح له برؤيته (١) وقصة عيسى في محاورته الله إياه ، هل طلب من الناس أن يتخلوه وأمه إلهين من دون الله ؟ (٢) وأحيانا يصوغ القرآن حقيقة العقيدة في مثل يضربه ( مثل الذين اتَّخَلَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْيُوتُ لَبِثَتْ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ) (٣) . وأحيانا في صور مختلفة متعددة ، كل منها يخاطب جانباً من جوانب التأثير في الإنسان .

ومن هنا نعلم أنه ليس في القرآن تكرار كما يفهم من لفظ التكرار ، لأن القرآن لا يكرر الموضوع بألفاظه ولا بمعانيه كما هي ، وإنما يكرر الحقيقة والفرق كبير بين الحقيقة والمعنى ، فالحقيقة تشبه الفكرة أو الموضوع ، والمعنى يشبه العنصر أو الفقرة في الفكرة أو الموضوع . ومثال ذلك العقيدة . فمن حيث هي حقيقة كلية ، يكرر القرآن الدعوة إليها كثيراً .

ومع ذلك لا يعد هذا من الوجهة البيانية الأدبية تكراراً ، لأن القالب البياني الأدبي ، يختلف في كل مرة عن الأخرى ، واختلاف هذه القوالب أو الألوان ليس لمجرد تنويع الأسلوب ، وإنما لغرض أبعد من ذلك ، وهو مخاطبة كل عوامل التأثير في الإنسان ، من عقله ، وغرائزه ، وجدانه فحينما يعيد القرآن عرض هذه الحقيقة إنما يعيدها في ثوب آخر ، وهذا الثوب مصنوع لغرض معين ، هو التأثير في زاوية من زوايا الإنسان .

- 
- (١) الآية ١٤٣ سورة الأعراف .  
 (٢) الآية ١١٦ سورة المائدة .  
 (٣) الآية ٤١ سورة العنكبوت .

والقرآن بهذا المعنى يعلو على كل أساليب الأدب من حيث التكرار فالتكرار لجوهر الفكرة غير معيب قط في الأدب ، ولن يقول عاقل قط إن تكرار المدح بالشجاعة أو الجود مثلاً معيب ، وإلا لتوقف الأدب عند جيل واحد ، ولم يتكرر بعد ذلك ، وإنما المعيب في الأدب ، أن يعيد أديب ثوباً أدبياً ألبسه أديب سابق لمعنى من المعاني ، أما المعنى نفسه فهو متاح لكل الأدباء ، ينسج كل منهم عليه كما يشاء ، أو يلبسه كل منهم الثوب الأدبي الذي يراه ملائماً . ولكن القرآن الكريم زياد فعلى كونه يجدد القالب أو الثوب الأدبي في كل مرة يكرر فيها الحقيقة أو ماتبسيتها الفكرة ، زيادة على ذلك يراعى أن يكون لكل قالب أو ثوب أدبي هدف معين يرمى إليه ، بينما يكفى عند الأدباء مجرد التنوع في عرض القوالب الأدبية .

ولئن كانت هذه البسطة قد طالت شيئاً ما ، فلأنها في صلب موضوع الكتاب كله ، ولأنها تمهد لأهم سؤال ينتهي إليه هذا التمهيد وهو : إذا كان لكل لون في أساليب القرآن هدف معين ضمن أهداف القرآن في جذب المدعوين أو السامعين ، فما هدف المحاورة بوصفها لوناً من أساليب القرآن ؟ ويمكن أن يصاغ هذا السؤال من الكلام السابق مباشرة ، فيقال : إذا سلمنا بما سبق ، وهو أن كل أسلوب من أساليب القرآن يخاطب جانباً من جوانب التأثير في الإنسان لجذبه إلى دعوة القرآن ، فما الجانب الذي يخاطبه أسلوب المحاورة ؟ والسؤال مؤداهما واحد ، حيث يلتقيان في الفقرة الأخيرة من السؤال الثاني .

وفي محاولة الإجابة عن هذا السؤال نقول : إن المحاورة تخاطب

فى الإنسان أكثر من جانب ، ويمكن عرض أبرز هذه الجوانب فيما يلى :

١ - المحلورة تخاطب الجانب العقل فى الإنسان من جهتين

إحدهما عرض الحقيقة نفسها ، وهو موضوع للمحاورة ، كالمقيدة مثلا ، وهذا قدر يتساوى فيه أسلوب المحاورة مع كل الأساليب حيث إن لكل أسلوب موضوعا أو فكرة ، وعندئذ يتاح لعقل السامع أن يفكر فى هذه الحقيقة بعقله ، والجهة الأخرى المباراة بين المتحاورين ، والصراع العقل الذى يدور بينهما ، والحجج التى يتحوران بها ، وكل ذلك يستدعى من السامع أن يشحذ عقله ونشاط ذهنه ، ليتابع هذه المباراة ، إما متقمصا شخصية الحكم ، وحينئذ يشحذ عقله لإيجاد الحكم ، وإما منحازا إلى أحد الطرفين وحينئذ يجهد عقله للبحث عن حجج يدعم بها موقف المنحاز له وأما مجرد مشاهدة لهذه المباراة . ومع أن هذه أضعف وسائل التنشيط الذهنى إلا أنها على أيسر الفروض ستجعله يستخدم عقله لاستيعاب الصراع العقل ، والحجج المتبادلة ، ليحقق لنفسه المتابعة الصادقة والاستمتاع بالتبارى بين طرفى المحاورة ، ثم التخمين بفوز أحد الطرفين ، وفى كل هذه الأحوال نجد السامع قد أيقظ عقله و سمه للتفكير فى موضوع المحاورة ، وفى الصراع الذى يدور حول هذا الموضوع ، واستخدام العقل عامة - فضلا عن تحذره - من أهم أهداف القرآن الكريم فى كل أساليبه .

٢ - المحاورة تخاطب جانبا آخر ، وهو جانب الغرائز ،

حيث تخاطب غريزة من أسمى غرائز الإنسان ، لقربها من العقل ، ولصوقها بالمعرفة ، وهى غريزة حب الاستطلاع ، فأما لصوقها بالمعرفة ، فلأن كل ما يستطلعه الإنسان ويقف على حقيقته فهو

إضافة جديدة إلى معارفه ، مهما صغرت هذه الإضافة ، وأما مخاطبة أسلوب المحاوره لحب الاستطلاع في الإنسان ، فمن ناحية إثقال المحاوره على طابع القصة في أقوى حالات إثارتها ، وهي حالة تصارع قوتين ، فإن هذا الجانب يكون غالبا أقوى جوانب القصة إثارة لحب الاستطلاع ، ومتابعة ما ينتهي إليه صراع هاتين القوتين ، وإذا كانت هناك لفتات جانبية في هذه الملحوظة ، فمن هذه اللفتات أن المتابع لصراع قوتين في أي قصة ، يكون غالبا منحازا بعواطفه ومشاعره من حيث لا يقصد مع القوة الأساسية في القصة أو مع الجانب الأقوى منهما ، وهو ما يعبر عنه في اصطلاحات القصة ببطل القصة ، فالمتابع للقصة يكون غالبا منحازا لموقف البطل بمشاعره وعواطفه ، وإن كان مخالفا له بعقله ومنطقه ، وهذا جانب له مراعاة غير هيمنة في أسلوب محاورات القرآن ، فإن المؤمن أو المصلح بصفة عامة ، هو دائما بطل المحاوره ، أي القوة الأساسية فيها ، وحينئذ يسرى عليها الحكم أو الوضع العام ، وهو أن موقف ( بطل ) المحاوره ، الممثل للدين ، سيكسب عواطف السامعين ومشاعرهم أو شيئا من هذه العواطف ، وإن كانوا مخالفين له في الدين ، وهو كسب غير يسير ، فإن الدين لا يقوم على العقل وحده أعني أن العقل ليس هو الدافع الوحيد للدين ، بل المشاعر والعواطف عنصر أساسي في الاتجاه إلى الدين ، وهو معنى غير غريب ولا جديد . فالحق قد يكون واضحا في عقول جماعة من الناس كلها ، ولكن بعضا منهم هم الذين يلقي الله في قلوبهم مشاعر السكينة ويقظة الوجدان ، فهم الذين يتجهون إلى الله . وفي كل

حال فإن أسلوب المحاوره بقرع غريزة من غرائز الإنسان ، مشيرا بها جوانب من شأنها أن تسهم في جذب السامعين إلى الله .

٣ - وهناك الجانب الثالث من جوانب المؤثرات في سلوك الإنسان وهو جانب المشاعر والانفعالات فإن أسلوب المحاوره من شأنه أن يثير مشاعر الإنسان وانفعالاته ، ومع صرف النظر عن أن محاورات القرآن تشتمل على كثير من الأحداث التي تثير مشاعر السامع وانفعاله ، كمحاورات موسى مع فرعون الطاغية ، وما يثور في نفس السامع لهذه المحاورات لأول مرة من خوف على موسى أو توقع لما يصدر من فرعون ، وكذلك محاورات السحرة مع موسى وتصميمهم على هزيمته ، وشعور موسى بالخوف من مقدرتهم العجيبة في السحر ، وما يثيره هذا في نفس السامع للمحاوره لأول مرة ، وكذلك محاوره هؤلاء السحرة بعد أن آمنوا ، حين صب عليهم فرعون في حوار كل رهبة ووعيد ، وصمودهم المستبسل في سبيل الله ، مع ضعفهم بجواز قوة فرعون ، وما يثيره كل هذا في نفس من يسمع هذه المحاوره أول مرة ، وكذلك محاورات إبراهيم مع قومه وما تثيره من انفعالات شتى في نفس سامعها لأول مرة ، كأنفعال الطرافة والمرح ، حين يشعر السامع أن إبراهيم قد استطاع التغرير بهم حين زعم لهم أنه يعبد معهم هذه الكواكب وكلما رأى كوكبا منها يقول لهم ( هذا ربي )<sup>(١)</sup> ، وكأنفعال الإعجاب والاستطراف معا حين يرى هذا القبي الوحيد يجرؤ على تحطيم أعظم ما يملك قومه في نظرهم ، وهم الآلهة ، ثم ما يصنع هذا المنظر

(١) من الآية ٧٦ سورة الانعام .

الطريف حين يترك كبير هؤلاء الآلهة ، بعد أن يعلق المعول في كاهله ، لحاجة في نفس إبراهيم ، وكانفعال الخوف الذي يشور في نفس السامع لأول مرة حين يسمع أن قوم إبراهيم قد أوقدوا نارا هائلة ، وجاءوا به ليلقوه فيها ، ثم انفعال التعجب ، حين يسمع أن إبراهيم قد ألقى في هذه النار الهائلة ، وإذا هو يخرج منها حيا معاف .

وكذلك محاورة إبراهيم مع ابنه الذبيح ، وما تشيره من انفعال الرحمة والاشفاق البالغين ، حين يسمع سامع المحاورة لأول مرة أن أباه يضحج ابنه ليذبحه يسكين ، وابنه مستسلم يقول له ( سَجِدْنِيْ لِأَنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِيْنَ )<sup>(١)</sup> .

ونعود فنقول إنه مع صرف النظر عن اشتغال المحاورات على أحداث تثير الانفعال والمشاعر ، فإن المحاورة من حيث هي وباعتبارها على أدنى القروض مباراة وتنافس بين طرفين ، فإن هذا التباري من شأنه أن يثير لثاته انفعال المشاهدين للمباراة ، والسامعين لحكاية هذه المباراة ، وهذا شيء في طبيعة النفس أن يثيرهم ويشد انتباههم الصراع بين قوتين ، وقد تلتبس لذلك الأسباب ، ولكننا لا نريد أن نجتج إلى الاستطراد ، وإنما نعينا أنها حقيقة لا يكاد ينازع فيها ، أن الصراع يثير مشاعر المشاهدين أو السامعين ، ولذلك عمد الناس في كل أزمانهم وبيئاتهم إلى اختلاق صنوف شيء من الصراع ، سواء أكان صراعا قتاليا ، كـمبارزات السيوف المعروفة من أقدم الأزمان ، أم صراعا رياضيا ، كـمبارزات الرياضة الجسدية

(١) من الآية ١٠٢ سورة الصافات .

المعروفة أيضا من قديم ، والتي تفنن الناس فيها حتى صنعوا التبارز بين كل أعضاء الجسم ، كمياريات الكرة ، والملاكمة ، والمصارعة وهلم جرا ، بل بلغ من ولع الناس بالتبارز والانفعال له ، أن دربوا كثيرا من صنوف الحيوان حتى الدببة ليقوموا بينها مياريات يتمتعون مشاعرهم وانفعالاتهم بها ، ومن هذا القبيل أيضا ولع الناس في كل المصنوع بالمباريات الكلامية ، كالمبارزات في الهجاء بين الشعراء ، حتى إنهم كانوا إذا لم يجدوا خصومة أدبية يتمتعون بها انفعالهم اختلقوا خصومة وهمية ، كالمناظرات الأدبية التي كانت تعقد بين الأدباء ، على ألسنة الحيوانات أنفسهم ، أيها أنفع ، الجمل مثلا أم الفرس ، أوبين الجماد كالمناظرات بين السيف والقلم ، وهكذا . وإذن فالتصارع والتبارز من حيث هو ، يثير مشاعر الناس وانفعالاتهم ، ولاشك أن المحاور نوع من التبارز بين خصمين ، أو طرفين ، وحينئذ يبدو لنا جانب من حكمة أسلوب المحاور ، وهو كسب انفعال السامعين ومشاعرهم ، ليكون هذا جانباً من جوانب جلبهم إلى الله .

وما سبقت الإشارة إليه من حيث التكرار ، يمكن أن يثار هنا أيضا ، في صورة تساؤل عن الهدف من تكرار المحاورات في القرآن ، وللدرد على هذا التساؤل نقول إننا قد انتهينا في الإشارة السابقة إلى أن القرآن لا يكرر المعاني الفرعية ، وإنما يكرر الحقيقة أو مايسمى في الأدب الفكرة الكلية أو الموضوع ، وعندئذ نقول إن المحاورات التي يكررها القرآن ، هي ذات الحقيقة الكلية الهامة ، كالمحاورات في العقيدة ، فإن العقيدة أساس الدين كله ، وكل



ماى الدين جملة أو تفصيلا وإنما يرتبط بالعقيدة ، إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة ، ولذلك فمحاورة العقيدة فى حاجة إلى تكرار متواصل لأهميتها الخاصة ، ولذلك نلاحظ أن المحاوراة فى العقيدة هى التى تتكرر ، ومثال ذلك محاوراة إبراهيم مع قومه ، فإنها تتكرر فى القرآن عدة مرات ، لكونها فى العقيدة ، وأما محاورته مع ابنه النبيح<sup>(١)</sup> فلا تتكرر ، لكونها ليست فى العقيدة ، ولا فى أمر له أهمية عامة فى الدين ، بينما نجد محاوراة إبراهيم مع أبيه تتكرر لكونها فى العقيدة ، وكذلك محاورات موسى مع فرعون تتكرر كثيرا لهذا السبب ، بينما لا تتكرر محاورته مع أخيه هارون لكون الخلاف بينهما لم يكن فى عقيدتهما ، وهكذا كل المحاورات التى وردت فى القرآن فى غير العقيدة ، ولم تكن لها أهمية خاصة حول العقيدة نجدها ترد مرة واحدة ثم لا تتكرر ، ومثال ذلك محاوراة قارون مع قومه<sup>(٢)</sup> ، فمع صرف النظر عن كون قارون كان مؤمنا أو غير مؤمن ، إلا أن المحاوراة لم يكن موضوعها عقيدة قارون ، وإنما كان موضوعها بغية على قومه وغروره بالمال العريض الذى آتاه الله إياه وهذا من محيط السلوك والخلق ، وليس العقيدة ، ولذلك لم يتكرر موضوعها . وكذلك محاوراة داود مع الخصمين اللذين تسلفا عليه المحارب يختصمان عنده ، فيشكو أحدهما بغير الآخر عليه<sup>(٣)</sup> ، فليس موضوعها العقيدة ، وإنما نوع من السلوك الجائر عن الحق ، ولذلك لم يحجج موضوعها إلى تكرار ، وهكذا سائر المحاورات فى

(١) الآية ١٠١ سورة الصافات وما بعدها .

(٢) الآية ٧٦ سورة القصص وما بعدها .

(٣) الآية ٢١ سورة ص وما بعدها .

القرآن الكريم ، لا يتكرر منها إلا ما يكون صلبه المحاوره في العقيدة وما يرتبط بها مباشرة .

وبالنظر إلى المحاورات التي يحتاج موضوعها إلى تكرار ، قد يقول قائل : فما طبيعة هذا التكرار ، أهو تكرار باللفظ ، أم بالمعنى أم في صورة أخرى ؟ ، ومن الإجابة على ذلك أن المتتبع للمحاورات تبدو أملمه ملحوظات كثيرة فيما يتعلق بهذا السؤال ، على أننا قبل ذلك نستبعد تكرار المحاوره بتنصها ، وهذا أمر يدمى في التوقع ، فأسلوب القرآن على جلالة - بل ماهو دون أسلوب القرآن بكثير - لا يتوقع فيه تكرار موضوع كامل بألفاظه ومعانيه ذاتها ، فهذا بعيد عن التوقع في القرآن ، حيث لا توجد في القرآن قط . محاوره تكررت كاملة بألفاظها ومعانيها ، مهما كانت هذه المحاوره قصيرة .

أما الملحوظات فمن أبرزها ناحيتان :

الأولى :

أن التكرار دائماً يتصب على المواضع الجوهرية في المحاوره ، وهذه المواضع الأساسية تتمثل غالباً فيما يأتي .

١ - الغرض الذي سبقت من أجله المحاوره ، كالدعوة إلى توحيد الله وعبادته ، ولذلك نجد هذا المعنى يتكرر في محاورات نوح مع قومه ، حيث يقول لهم ( .. يَأْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَلِكُكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُهُ .. ) (١) ويقول لهم في محاوره أخرى ( .. إني لكم نذير

(١) من الآية ٥٩ سورة الاعراف .

مُبينٌ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ... )<sup>(١)</sup> ويقول لهم في محاوراة أخرى كما قال في الأولى ( ... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ... )<sup>(٢)</sup> ويقول في محاوراة أخرى أيضا ( إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْتَشِرُوا )<sup>(٣)</sup> وكذلك يقول لهم في محاوراة أخرى ( ... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ) ثم يكرر لهم هذا المعنى بلفظه في المحاوراة نفسها<sup>(٤)</sup> . ومن الواضح أن الغرض هو أهم ما يحمله أى موضوع ، بل هو الموضوع ، وحينئذ فلا غرابة في أن تكون هذه الأهمية دافعا إلى التكرار ، وبخاصة إذا كان الغرض يمثل أمراً في قمة الأهمية ، كالعقيدة أو ما يرتبط بها .

٢ - ومن المواضيع الأساسية التي تتركز عليها المحاوراة بالذات الحجة ، فإن المحاوراة عادة صراع عقلى ، وخصومة منطقية ، النصر فيها لأقوى الطرفين حجة ، وحيث كان النصر معلقا على أهمية الحجة وقيمتها ، فالحجة إذن أهم ما في المحاوراة من حيث الخصومة أى من حيث القيمة الموضوعية أو الفنية للمحاوراة ، لأن المحاوراة إذا ضعفت حجتها عند طرف ، انتصرت محاوراة الطرف الآخر ، فبطلت محاوراة الطرف الأول ، وتحولت إلى هزيمة وفشل لصاحبها ، وأما من حيث موضوع الحجة ، فإن المحاور مهمات تعددت حججه فهناك حجة معينة ، هى في الغالب صلب الحجج التي لديه جميعا وأفواها ، لوضوحها أو لشدة تأثيرها في النفوس ، أو لموافقتها لطبائع الناس جميعا فضلا عن عقولهم أو نحو ذلك ، وهذه الحجة

(١) من الآيتين ٢٥ ، ٢٦ سورة هود .

(٢) الآية ٢٣ سورة المؤمنون .

(٣) من الآيتين ٢٤ ، ٢٥ سورة نوح .

(٤) الآيتان ١٠٨ ، ١١٠ سورة الشعراء .

الأساسية تصبح عادة قرينة للمحاورة ، وملزمة لها ولو في ذهن الناس ، بل ملازمة لشخص صاحب المحاوراة ، بمعنى أنه حينما تذكر أي محاورة ولو كانت غير دينية ، كالمحاورات التاريخية المشهورة فإنه يقترن بهما في الذهن عادة تذكر الحجة الأساسية التي كانت سببا في فوز الفائز وأمثلة ذلك كثيرة في المناظرات والمحاورات التاريخية بين سادة القبائل ، وزعماء بعض الأمم . وعندئذ يبدو واضحا أنه مهما تكررت المحاوراة فإن الحجة الأساسية فيها ستتكرر معها غالبا ، ومهما تغيرت فقرات المحاوراة أو معانيها ، فإن هذه الحجة في أغلب الأحيان ستبقى ثابتة مع المحاوراة . بوصفها عصب المحاوراة ، ومن أعمدتها الأساسية ومثال ذلك أيضا محاورات نوح مع قومه ، فقد كانت حجته الأساسية في صدق دعواه الرسالة من عند الله ، أنه لا يطلب منهم أجرا ، فإنها حجة تجمع بين الوضوح ، فمن الواضح لهم جميعا أنه لا يطلب أجرا على عنائه الشديد في أداء ما يؤديه ، وبين الموافقة لمنطق الناس وطبائعهم ، فمن طبيعة الناس أنهم لا يؤدون عملا بدون أجر ، فلو كان هذا العمل لمصلحته هو ، لطلب عليه أجرا ، ويؤكد لهم نوح أنه لم يشذ عن طبيعة الناس ، وإنما يطلب أجره كسائر الناس ، ولكنه يطلبه ممن كلفه العمل . كما يطلب أي أجير أجره من صاحب العمل ، وصاحب عمل نوح هو الله سبحانه ، وإذن فهذه الحجة أقوى سلاح منطقي يعتمد عليه موقف نوح ، ولذلك يحتاج إلى تكرارها أكثر من مرة ، فيقول ( فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ) (١) ويقول في محاورة أخرى ( وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس -

مَالاً إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ (١) ويقول في محاوراة أخرى (وما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) (٢) فتكرار هذه الحجة إذن لا غرابة فيه ، لأن موقفه كله بصفته رسولا يعتمد على هذه الحجة ، فكلما حاور قومه احتاج إلى إعادة هذه الحجة ، لتكون من وسائل الإقناع الأساسية .

٣ - ومن المواضع الأساسية التي تفتقر بالمحاورة ، وإن لم تكن منها ، النتيجة التي تنتهي إليها المحاوراة ، أو ما يترتب على المحاوراة ، فإن هذه النتيجة تشبه الحكم في أي قضية ، فإنه وإن لم يكن جزءا من الخصومة ، إلا أنه جزء مكمل للقضية ، وأي قضية تروى دون حكم تجعل النفوس متطلعة إلى شيء أساسي ، هو معرفة الحكم إن كان قد صدر ، وحينئذ يكون من المنطقي أنه كلما تكررت المحاوراة صاحبها بيان النتيجة التي انتهت إليها المحاوراة والنتيجة بطبيعة الحال في محاورات القرآن ، هي انتصار الحق ، أو ظهوره ووضوحه ، ثم انتصار الباطل أو خزيه أو ظهور بطلانه على الأقل ، وهذه النتيجة ذات أهمية كبيرة لدى القرآن الكريم من حيث كونه دعوة للناس ، فمن أكبر جوانب الأهمية أن يبلغ المدعوون والسامعون هذه النتيجة ، لتكون إنذاراً يدفعهم إلى الله إن لم يدفعهم إليه مساقته المحاوراة من دعوة ومن حجج تصدق هذه الدعوة ، ولذلك أيضا نجد محاورات نوح عليه السلام تتكرر معها النتيجة وهي نجاة من معه في السفينة ، وغرق قومه الكافرين

(١) من الآية ٢٩ سورة هود .

(٢) من الآية ١٠٩ سورة الشعراء .

المكذّبين فمن ذلك ( فَكَذَّبُوهُ فَاتَّجِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَفَرُوا قَوْمًا عَمِينَ ) (١) وكذلك ( فَكَذَّبُوهُ فَتَّجِبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ) (٢) وكذلك أيضا ( فَاتَّجِبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَقِيَّةَ الْبَاقِينَ ) (٣)

وأما الناحية الثانية من ملحوظات التأمل في تكرار محاورات القرآن أننا لانجد محاورة قط مكررة ، إلا وفي هذا التكرار لإضافة جديدة لموقف جديد أو معنى جديد ، وهذا واضح في كل المحاورات المكررة ، بحيث لو جمعنا هذه الأجزاء المتفرقة في تكرار المحاورة الواحدة ، لوجدنا لدينا محاورة كاملة المواقف والجوانب الفنية للمحاورة على وجه مفصل بالغ الوضوح والاكتمال .

وحينئذ قد يبرز سؤال ذو قيمة ، وهو : فلماذا لم ترد المحاورات في القرآن على هذه الصورة ، بحيث تكون كل محاورة مجتمعة الأجزاء ، متكاملة التفاصيل ، فلا تحتاج إلى تكرار ؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأمرين :

أحدهما أن محاورات القرآن يراعى فيها الجانب التاريخي ، بمعنى أنها منقولة عن أشخاص وأقوام سابقين ، ومعظمها عن الأنبياء الماضين ، والتي لا يتصور أنه حاور قومه مرة واحدة ، ولأى مناسبة أو مدة واحدة من مدة رسالته ، وإنما يقضى طول

(١) من الآية ٦٤ سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٧٣ سورة يونس .

(٣) الأينان ١١٩ ، ١٢٠ سورة الشعراء .

إقامته رسولا بين المرسل إليهم ، يدعوهم ويحاورهم في هذه الدعوة ومحاوراته المتعددة معهم ليحث صورة واحدة ، ولا ألفاظا محددة يعيدها عليهم كما هي في كل مرة ، بل هي بداهة وإن احتفظت بجوهر ثابت ، إلا أن طريقة عرضها غير ثابتة ، وتفصيلها أيضا غير ثابتة ، بل تحتاج إلى تجديد وتنويع من جهة ، وتحتاج أيضا إلى الرد على ما يأتي جديدا في محاوره الخصوم ، فإن محاوره الطرف الآخر أيضا غير ثابتة ، وفي كل الأحوال فإن محاورات الرسل مع أقوامهم لا بد وأن تشمل على تجديد وتغيير وإضافات ، كصورتها الموجودة في القرآن أو نحو ذلك ، وعندئذ يمكن أن نقول إنه من المحتمل أن يكون القرآن الكريم راعي هذا الواقع التاريخي فنقل محاورات الرسل بصورة تشير إلى ما كانت عليه فعلا حتى في الشكل ، من حيث التجزئة ، والتفوق الزمني .

والأمر الثاني أن القرآن في منهجه كله يراعى أن يبيى لدعوته أنسب الوسائل ، وأفضل ظروف النجاح ، وقد بلغ في ذلك أقصى قمم النجاح ، كما يشهد بذلك الواقع التاريخي ، حيث كان مما حير علماء الاجتماع هذه السرعة الفائقة التي انتشر بها الإسلام مخالفا بذلك كل الدعوات والمذاهب والأديان على الإطلاق ، ومهما تعددت الأسباب التي تلمس لتعليل هذه الظاهرة فلا بد أن يكون من بينها القرآن الكريم ، والشيء الذي يسهم في إحداث ظاهرة عظيمة لا بد أن يكون عظيما ، وهي حقيقة لا تحتاج إلى زيادة إثبات ، والواقع أن جوانب العظمة في القرآن الكريم لا تكاد تحصى ومن مجموع هذه الجوانب يتكون ( إعجاز القرآن ) ومن بين

هذه الجوانب حكمة القرآن في أسلوب الدعوة ، وحين نصل إلى هذه النقطة نجد أنه من الواضح أن تكرار المحاورات يتضمن من حيث التكرار نفسه زيادة في استيعاب موضوع الدعوة وفهمه ، وكل تكرار مادام مقبولا في أسلوب عرضه فإنه يزيد الموضوع ثبوتا وقرارا في النفوس ، ويزيد النفوس فهما واستيعابا ، ونحتز بقبول العرض ، عن العرض الرديء ، كإعادة الموضوع بلفظه ومعناه فمما يتمثل به قولهم ( أثقل من كلام معاد ) . نقول بالاضافة إلى فائدة التكرار لذاته ، فإننا نلاحظ أن تكرار المحاورات يتضمن شيئا من التجزئ للمحاورة ، بحيث لاتعرض كاملة ، وإنما يعرض القدر الضروري لتأخذ النفوس في تفهمه ، ثم يضاف إليها جزء آخر أو أجزاء أخرى في كل إعادة ، وقد يستغنى بجزء جديد عن جزء سابق ، فلايعاد الجزء الذي أصبح هذا المقام غير محتاج إليه . وهذا التصور غير بعيد ، بل هو من واقع تكرار المحاورات كما سنرى في أمثلة كثيرة ، ولكننا نضيف أن هذا التجزئ غير غريب ولافريد في القرآن ، بل هو منهج القرآن نفسه في نزوله ، حيث نزل منجما ومجزءا في طول مدة الرسالة ، ومن العلل المشهورة في ذلك ، أن تجزئته تعين النفوس على استيعابه وتثبيتته جزءا جزءا ، أكثر مما لو تلى على هذه النفوس مرة واحدة ، وكون النفوس أكثر فهما واستيعابا للشيء القليل من الشيء الكثير أمر لايتحتاج في وضوحه إلى تدليل .

وتبقى معنا في هذا الحديث بقايا يسيرة نشير إلى أهمها في إيجاز فمئها أننا ينبغي أن نراعى في حديثنا عن السامعين للقرآن أننا نعى السامعين لأول مرة ، فهناك أمور كثيرة قد لاندرك نحن



مدى تأثيرها ، أو التأثير الكامل لها في النفوس لكثرة تردادها على أسماعنا ، ولكن من يسمعها لأول مرة متفهماً ومتدوقاً يختلف ولو نوعاً ما عن تردد سماعه وتفهمه وتدوقه ، فالسامع لأول مرة أكثر انفعالا وتأثراً بما يسمع .

ومنها أنه قد يقال : إن المحاورات في جملتها نوع من أخبار السالقين ، فما جدوى ذلك من كتاب سماوى هدفه الدعوة إلى الدين ، والجواب أن موضوع المحاورات التي أوردتها القرآن كله من صلب الدين عقيدة أو سلوكاً ، وبالتالي فهي من صميم دعوة القرآن ، غاية الأمر من هذه الزاوية أن أسلوب المحاورات اختيار بدل المعاني المجردة ، لاعتبارات معينة تتعلق بالتأثير في السامعين كما سبقت الإشارة إلى ذلك . على أننا ينبغي أن نلاحظ أن الخصومات التي تدور حولها المحاورات ، سواء أكانت في العقيدة أم في السلوك هي ذات الخصومات التي حملها القرآن والدعاة به ، فالقرآن حيناً يعرض خصومة أو محاورات حول العقيدة ، فيأتيها تمثل خصومة القرآن مع مدعويه حول العقيدة ، وكذلك محاورته حول السلوك ، كمحاورات قارون حول الفرور واليهي ، ومحاورات الخصمين اللذين يهني أحدهما على الآخر ، وتمثلاً هذه الخصومة عند داود عليه السلام ، ونحو ذلك من جوانب السلوك ، فإن القرآن يخاصم الناس فيها كما يخاصم الأنبياء والمصلحون السابقون أقوامهم فيها ، فالمحاورات رغم أنها قديمة ، لا تزال موضوعاتها قائمة تحتاج إلى الحوار والمخاصمة والداعي بالقرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم إنما يدعو إلى مادعا إليه الأنبياء والمصلحون المؤمنون من الأمم السابقة ، وخصوماته ومحاوراته هي خصومات السابقين ومحاوراتهم .

### أمثلة متنوعة

وسنعرض هنا لأمثلة محددة من محاورات القرآن الكريم في بعض الأغراض المتنوعة ، وليس القصد منها شمول الأغراض ، ولا تمثيل منهج الداعي بها تمثيلاً كاملاً ، فهذا أبعد ما يكون عن القصد فإن المحاورات في القرآن أكثر عدداً ، وأكثر تنوعاً وتعددًا من أن يحيط بها هذا العدد القليل من الأمثلة ، وهذه الأمثلة أيضا لا تمثل مناهج صاحب المحاوره ، فإن المحاورين الذين ساق القرآن محاورات على ألسنتهم معظمهم وهم الأنبياء ، لهم محاورات عديدة إما مع أقوامهم ، وإما مع الله سبحانه ، وإما مع أشخاص آخرين كالملائكة ، ومنهج كل نبي منهم لا يتضح إلا باستعراض محاوراته كلها ، حتى نستطيع أن نلمح من خلالها مجتمعة منهجه وأسلوبه في المحاوره ، وهذا ما لم تقصد إليه هذه الأمثلة قط .

وكل ما يهدف إليه لإيراد هذه الأمثلة بيان نماذج من أسلوب المحاوره بصفة عامة في القرآن الكريم ، وأن محاورات القرآن أبعد غوراً ، وأدق طريقاً ، وأشمل غرضاً مما توحيه النظرة العابرة أو السمع السطحي وعسى أن يكون في ذلك زيادة في تهويل القارئ ونفسه لما يستقبل من الكتاب ، حين يعلم أن أيسر ما يستفاد من القرآن الكريم على أهميته هو ما توحيه النظرة العابرة ، وأن المتعة الحقيقية إنما تبدأ درجاتها بعد هذه النظرة ، حين يتجاوز التأمّل سطح الاستماع ويبدأ في الغوص مع بحور الرحمن ، وليس لهذا الكلام

علاقة قطب بالمشتهطين في حديث الظاهر والباطن ، وأبعد ما يمكن أن يؤخذ من هذا الكلام أن القرآن الكريم له طابع عام شديد الوضوح بحيث لا يحتاج إلى اجتهاد أوعق في الفهم ، وهو التشريع الذي يحمله القرآن في أوامره ونواهيه وسائر توجيهه وأحكامه ، وهذا القدر يستوى كل الناس في فهمه وإدراكه ، بل ولاتفاوت فيه اللغات ، بحيث لو ترجم القرآن أو ترجمت هذه الأحكام إلى أى لغة غير العربية فلن تختايف هذه الأحكام والتوجيهات في العربية عنها في اللغة المترجم إليها .

ولكن هناك أعماقاً في عدة جوانب ، وراء هذا القدر القريب الواضح من القرآن ، كالجانب البياني ، فإن الذي يريد أن يتذوق جمال أسلوب القرآن لا يكفيه الطابع القريب من سطح أسلوب القرآن ، وإنما يحتاج إلى التأمل والتذوق ، وحينئذ يبدأ في الإحساس بما يحمله القرآن من جمال وعمق بياني أدبي ، وكذلك من الناحية العقلية ، يبدو عرض القرآن للمنطق العقلي والحجج بسيطاً قريب المأخذ لكل العقول ، بحيث لا يلتوى فهم هذه الحجج على عقل مهما يكن يسير الإدراك ، مادام غير مختل أو مريض ، ولكن وراء هذه البساطة عمقا أكبر ، ووراء قرب المأخذ دقة شديدة في التعبير والإشارات ، وفي التنسيق والترتيب المنطقي ، وفي الجوانب النفسية الواسعة الآفاق ، وفي نواح أخرى متعددة ، وفي هذا المجال يتركز أهم ما في حديث المحاور ، لعلنا نوفق في إبراز شيء من هذه الآفاق التي لا تخلو من حاجة إلى التأمل الذي يدعو إليه القرآن نفسه ملحاً في الدعوة أشد الإلحاح :

ومن الأمثلة ما يأتي :

## ١ - فى الايمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ، فَقَالَ الْمَلَأُ <sup>(١)</sup> الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ يَكْفِرُونَ <sup>(٢)</sup> وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُ عَلَىٰ كَذِبٍ » .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَأَتَانِى رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّى فَقَدْ جَاءَ لَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّى وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ ، وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِ اجْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَقُولَ إِن كَذِبًا إِلَّا ظَنًّا مِنْكُمْ فَأَنْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ عِلْمٍ وَلَكِنَّكُمْ أَكْثَرٌ مُّذِلَّةٍ ، وَيَا قَوْمِ إِن يَنْصُرْنِى مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ فَلْيَكُونِ الْمَوْتُ عَلَىٰ شِئْرِ طَائِفَتٍ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُ مِنَ الشَّيْءِ الَّذِى فِي يَدَيْهِمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خِزْيَائِنَا اللَّهُ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذَا لَبِيتُ الظَّالِمِينَ .

(١) الملائكة الأشراف والسادة وأصله من الامتلاء ، كأنهم ممتلئون بصفات السيادة .

(٢) أَرَادُوا - جمع أَرَادَ والمعنى أَفَلَمْ نَشَأْكُمْ وَفِيهِ .

(٣) بَادَى الرَّأْيِ وَغَرَى ، بَادَى الرَّأْيِ بِمَعْنَى صَدَّقَكَ أَوَّلَ الْأَمْرِ دُونَ تَفَكُّيرٍ أَوْ تَدَبُّرٍ .

(٤) عَمِيتْ أَخْفِيَتْ وَالْمَعْنَى خَفَى عَلَيْكُمْ الْحَقُّ لِجَهْلِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَمَى لَا تَبْصُرُونَهُ وَتَأْتِى التَّائِيْتُ لِلرَّحْمَةِ وَهِيَ النَّبُوءَةُ .

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ<sup>(١)</sup> وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٢)</sup> .

#### مراحل المناظرة وملايساتها

وطرفا المناظرة : نوح المرسل من الله ؛ وسادة قومه الذين أرسل إليهم .

#### ١ - القضية :

والقضية أو الموضوع هي الرسالة التي حملها نوح من ربه ليؤديها إلى هؤلاء القوم . وموضوعها حدده نوح في غاية الإيجاز والوضوح والتميز عن غيره وهو قوله ( ألتعبدوا إلا الله ) فوحداية الله إذن هي كل القضية التي يدور الصراع حولها بين نوح وقومه . وهنا نحاول أن نثبني كيف عرض نوح الموضوع على قومه ؟ ، والواقع أنه أحاط الموضوع في عرضه بسياسين في غاية القوة ، ليكونا قوة للموضوع ، وحماية له ، وهذان السياسان ، ينصيان على نفسية قومه ، فقد أراد نوح أن يهيئ نفوس قومه قبل إلقاء الأمر الخطير ليكون لديها شيء من استعداد وتأييد ، أو تفكير على الأقل في توقع ما يهيئ له نوح ، وقد هيأ نوح للموضوع بقوله ( إني لكم نذير مبين ) فهو يوجه إليهم إنذاراً شديداً الأهمية ( مبين ) وهذا من

(١) بمعجزين . أي لن تغلبوا من عذاب الله .

(٢) الآيات ٢٥ - ٣٤ سورة هود .

شأنه أن يهيج نفوسهم ، ويحرك عقولهم ومشاعرهم ، ويمكن تمييز نقاط الركن الأول من أركان المحاور ( وهو الموضوع ) فيما يأتى

(أ) التمهيد الذى يسبق صلب الموضوع ، وقد اختار نوح هذا التمهيد قوياً عنيفاً ليحدث فى نفوسهم جلبة وقلقاً يهيئها للاهتمام والترقب الشديد للموضوع الذى يندرون هذا الإنذار الشديد من أجله ، وقد صاغ نوح هذا التمهيد فى قوله ( إني لكم نذير مبين ) .

(ب) صلب الموضوع ، وقد اختار له نوح ألفاظاً بسيطة المعنى ، ليس فيها تصوير بياني ، ولا خيال أدبي ، ولا مبالغة ، ولا شيء قط يصرف الذهن عن أصل المعنى ، أو يتيح للنفس أن تتجاوز هذا المعنى المحدد ، أو أن تتأول فيه ، وكان هذا التعبير . . . . . لاتعبدوا إلا الله .

وأما أداء الألفاظ للهدف المقصود فقد كان بالغ الكمال فى الفقرتين ، ويبدو لك ذلك حينما تتأمل الفقرة الأولى وهى ( إني لكم نذير مبين ) فلما كان الهدف تأكيد الإنذار ليحدث فى نفوسهم الرهبة والتهيؤ ، احتشدت أربعة مؤكدات ومقويات للمعنى ، فمنها التأكيد بلفظ ( إن ) فى كلمة ( إني ) ومنها التخصيص بتقديم الجار والمجرور ( لكم ) وأصله إني نذير مبين لكم ، ولكنه قدم للتخصيص أى الإشعار بأن هذا الإنذار خاص بهم دون غيرهم ، وفى هذا زيادة تخويف أو إثارة اهتمام لهم ، ومنها صياغة لفظ ( نذير ) فلا أصل ( منذر ) ولكنه عدل عنه إلى لفظ ( نذير ) ليدل بهذه الصيغة على المبالغة والقوة فى أداء المعنى ، ومنها عدم الاكتفاء

بلفظ التذير وإنما وصفه بكلمة ( مبين ) ليكون في هذا الوصف تقوية للمعنى ، ودلالة على قوة الإنذار ووضوح مدلوله .

وأما النقطة الثانية وهي صلب الموضوع ، فكما قلنا إنها لا تعتمد على إحياء الألفاظ أو تأثيرها النفسى كالفقرة السابقة وإنما تعتمد على توضيح المعنى وبساطته ، ولذلك خلت الفقرة كلها من تأثير الألفاظ ، وانحصر الأثر كله في المعنى المجرد من الصياغة البيانية وبتعبير أوضح نقول : إن التركيز في الفقرة الأولى منصب على الألفاظ والصياغة ، أما في الفقرة الثانية فينصب على المعنى ، والمعنى المستهدف في الفقرة الثانية ينحصر في إبراز توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وليظل هذا المعنى واضحاً وبارزاً ومحددًا صيغاً بالألفاظ عادية مجردة من أى ثوب بياني وأدبي ، اللهم إلا جانباً ذا أهمية يتعلق بالمعنى نفسه ، وهو حذف المستثنى منه ، ليكون في حذفه تعميم هو صلب الوجدانية حيث يجوز لعقل السامع أن يفهم لاتعبدوا إلهاً أو أحداً أو شيئاً قط إلا الله ولو ذكر المستثنى منه ، بأن قبل مثلاً لاتعبدوا إلهاً إلا الله ، لجاز في عقل قاصر أو ملتو أن يتأوله على نحو أن يعبد إنساناً أو منفعة أو أى شيء غير جنس الإله ، ولكن حذف المستثنى منه يقطع على كل العقول ، كل صور التأويل .

(ج) التخويف والتهديد ، ويمثل هذا في قوله ( إني أخاص عليكم عذاب يوم أليم ) عقب تلاوته موضوع الرسالة عليهم مباشرة حتى يملأ نفوسهم حذراً ورهبة من العصيان والنفور بهذا التخويف وحتى لا يترك لنفوسهم مجالاً للتهرب أو الروغان ، يكون هذا التخويف تالياً للرسالة مباشرة .

وبالإضافة إلى أن التعبير في جملة يفيد تحذيرهم وتخويعهم ، فإن الألفاظ تحشد فيه زيادة في هذا التخويف ، ومن هذه الألفاظ ( إن ) المقيدة للتأكيد ، ومنها التعبير بلفظ المضارع في ( أخاف ) وما يفيد المضارع من تجدد حدوث الفعل واستمراره ، كأن خوفه عليهم متجدد متواصل ، ثم الخطاب في ( عليكم ) وما يفيد من الإشفاق والاهتمام بهم ، ثم إنه يخوفهم من عذاب يوم القيامة ، ولكنه يجعل العذاب عذابين ، العذاب الذي سيكون حيث ، واليوم نفسه كأنه عذاب ، حيث وصف اليوم بأنه ( أليم ) بمعنى مؤلم والألم في الواقع يأتي من العذاب الموجود في اليوم ، ولكنه جعله يأتي من اليوم نفسه حيث جعل اليوم مؤلماً زيادة في إبراز خطورة العذاب ، وتعدد مصادره .

#### ٢ - معارضة الخصم :

والخصم في المحاوره هم الملأ أي السادة والقادة من قوم نوح ، وقد سبقت حججهم في المعارضة ، في الآية الكرعة ( فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرأ مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نلظنكم كاذبين ) ومع هذا الإيجاز لو تأملنا دقة التعبير نجد أنها تبرز لنا كثيراً من النقاط ، وتبرز لنا حججا صائبة يعرضونها محاولين أن يجلبوا منها منطقاً مقبولاً ، وأولى هذه الملحوظات أن التعبير بعد أن بين أن المعارضين هم السادة ، احتراز عن أن يفهم أن صفة السيادة لها دخل في المحاوره ، فقيده بقوله ( الذين كفروا ) لأن الكفر هو عنصر الخصومة في المحاوره ، وليس السيادة ، ثم أضيف



فيد ( من قومه ) لأن بعض ماساقوه من حجج ، وهو أن التابعين لنوح من ضعاف الناس وأراذلهم إنما يرتبط بكونهم جميعا - السادة الكافرين والآتباع المؤمنين - من مجتمع واحد ، مما يمثل الطبقية الاجتماعية كما سيأتى . بالإضافة إلى أن كون السادة المحاورين من قومه معناه أن الذين آمنوا بنوح من الضعفاء كانوا أتباعا لهؤلاء السادة قبل أن يؤمنوا ، وإذن فاجتماعهما في مكان وفي مستوى واحد وهو الإيمان فيه غشاضة من وجهة نظر السادة الكافرين .

وأما حجج السادة الكافرين فتكاد تنحصر في مواضع :

#### أولها :

قولهم ( مانراك إلا بشرا مثلنا ) كأنهم يقولون لنوح : إن المرسل من عند الله ينبغي أن يكون متميزا عن غيره من الناس بشيء وإلا لجاز لكل إنسان أن يكون رسولا أو يدعى الرسالة ، وأنت لا تتميز عن سائر الناس بشيء ، بل أنت بشر مثل سائر الناس فلا يصح أن تكون رسولا ، ثم يترتب على هذا المنطق كأنهم يقولون له : ومادام المرسل يجب أن يتميز عن غيره ، فإذا كانت هناك رسالة من عند الله كما تدعى فنحن أولى بها ، لأننا نتميز بأننا سادة ووجهاء في الناس ، ولكننا لم ندع هذه الرسالة ، فأولى ألا تدعيها أنت .

ومن هذا نعلم أن خصومتهم العقلية لم تكن ساذجة كل الساذجة بل كانت لهم عقول فيها شيء من عمق وفكر ، يحاولون أن يخلقوا به منطقا مضللا ، والواقع أن وضعهم من السيادة يشير إلى أهمية

موقفهم ، فإن السادة غالباً لا يكونون سلجاً ، وبخاصة إذا كانوا \*  
مجتمعين في تفكيرهم كهذا الموقف ، ولولا هذه الأهمية لم يكن  
القرآن ليخفى بذكرهم .

#### وثانيها :

أن من خطورة معارضتهم أنهم تحاشوا المحاوره في موضوع  
الرسالة ، مع أنه هو القضية ، فلم يجادلوا في تصديقهم بوحداية  
الله أو عدم تصديقهم ، وإنما عمدوا إلى الأصل والأساس الذي  
تستنبى عليه القضية ، وهو رسالة نوح من عند الله ، هل هي  
صحيحة أم كاذبة ، وهذه النقطة أخطر ما في القضية ، لأن القضية  
كلها مبنية على هذا الأساس ، فإذا انهار فقد بطلت القضية كلها ،  
وإذا صحت الرسالة فإن كل مايقول الرسول بعد ذلك مصدق ،  
فهم يريدون أن يكذبوا رسالة نوح من أساسها ، وحينئذ لايقبل  
منه أى كلام في الموضوع ، لأن الصفة التى يتكلم بها وهى الرسالة  
انتفت عنه .

#### وثالثها :

أنهم يحكمون العرف الاجتماعى ليجعلوا منه حجة ، وهذا العرف  
يتمثل عادة في أن أصحاب الرأى في كل مجتمع هم سادته ووجوهه ،  
ورأيهم في مجموعهم هو مقياس الصواب والخطأ ، حيث من غير  
المألوف أن يتفقوا جميعاً أو أغلبية على الخطأ ، ومن هنا يأخذ  
خصوم نوح حجة العرف ، وكنّهم يقولون له إن أصحاب الرأى  
في الناس عادة هم سادتهم ، لأن عقولهم ترفعهم إلى مكان السيادة

ولو كان أتباعك من وجوه الناس لحكمنا بآئك على صواب لاتباع أصحاب الرأي إياك ، ولكن أصحاب الرأي لم يتبعوك ، ولم يتبعك قط. إلا دهماه الناس وأنصهم مكانا في المجتمع وهم أراذل الناس<sup>(١)</sup> ، وهؤلاء عقولهم من التفاهة بحيث لا يعتد بها ، ثم يتابع خصوم نوح استنزاف الحجة حتى آخرها ، فيقولون ومع تفاهة عقول تابعيك ، فإنك أعلتهم على غرة ( بادی الرأي ) ، ولم يجدوا وقتا للتفكير والتأمل ولو فكروا بهذا القدر الضئيل من عقولهم لما صدقوك . وهذه الوجهة يثيرها خصوم نوح من زاوية الحجة ، ويبقى جانب آخر نفسى لهذه الحجة ، وهو أن نفوس السادة والزعماء لاتقبل أن تنزل إلى مستوى عامة الناس لتكون معهم على قدم المساواة ، فحتى لو فكر السادة في الإيمان ، فإن وجود هؤلاء الأراذل حول نوح يمنهم من الإيمان ، حفاظا على سيادتهم ومكانتهم ، وهذا كله من مفهوم قولهم ( وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي ) .

#### ورابعها :

قولهم ( وما نرى لكم علينا من فضل ) كأنهم يقولون لنوح ومن معه ، إن ماتدعوننا من وجود رسالة سماوية فيكم ، ومن منزلة عند الله ومن ثواب تنتظرونه ، كل ذلك يقتضى أن تكون لكم ميزة تميزون بها عنا ، وفضل تملون به علينا ، ولكن أين هذه الميزة ، أو هذا الفضل ؟ ، ليس لديكم من ذلك شيء ، فكيف تدعون

(١) الأراذل هو التفاهة الهين والردى. من كل شيء .

ما ادعيتموه ؟ ، وإذا كنتم غير محقين في دعواكم مع فرض مساواتكم لنا ، فكيف بكم وأنتم دوننا ؟ ، بل كيف بكم وأنتم في أغلب الظن كاذبون ؟ هل تكون هذه المزاي التي تدعونها « من الرسالة السماوية ورضا الله وثوابه » في الكاذبين ؟

ومن هذا كله نتبين أن نوحا عليه السلام كان يواجه خصومة غير هينة ، وخصوما لا يستهان بهم ، بل إننا لو أعدنا التأمل في جدالهم ، نلمح محاولتهم أن يصوغوا كل موقفهم في قالب الحجة المنطقية التي تعنى بها العقول ، وتحتاج إلى شيء من جهد في بيان زيفها وتضليلها ، ومن محاولتهم الجدلية العقلية هذه ، ما يأتي :  
١ - التزام السير الصحيح في شكل الخصومة المنطقية ، فمن ذلك أن الخصم من حقه أن يعرض وجهة نظره مدللا عليها ، وليس من حقه الحكم في الخصومة ، حتى لا يكون خصما وحكما ، ولا الحكم على أحد الطرفين حكما نهائيا ، لأن الحكم على أحدهما حكم في الخصومة كلها ، ولذلك نجدهم يلتزمون ببيان أن ما يقولونه هو رأيهم ووجهة نظرهم ، فالتزموا قولهم ( نرى ) وكرروها مع كل حجة ، كأنهم يقولون هذا رأينا ونقول شكل الخصومة لأنهم لم يلتزموا السير الصحيح في موضوع الخصومة ، وإنما اعتمدوا على التضليل العقلي

٢ - لجأوا إلى محاولة سد المنافذ على خصمهم وهو نوح وأتباعه وسد المنافذ بادعاء عدم وجود احتمالات غير ما يقولونه ، كقولهم ( مانراك إلا بشرا مثلنا ) فلو قالوا ( أنت بشر ) لأمكن لخصمهم أن يضيف قوله : ولكني أتميز عنكم بكذا ، أما قولهم ( مانراك إلا

بشرا مثلنا) بأسلوب الحصر . فينفى أى احتمال أو إضافة ويجعله محصورا في البشرية المادية لا يتجاوزها إلى أى صفة أو احتمال آخر ، وكذلك بقية تعبيرهم عن حججهم ، وإضافة لفظ (من) في قولهم (لوما نرى لكم علينا من فضل) تؤدي ما يشبه معنى الحصر وهو نفى أى فضل .

٣ - من محاولاتهم أن يجعلوا موقفهم الجدل مقبولا وناجحا تلطيف هجومهم على الخصم ، ليبدو هذا الهجوم وكأنه اعتدال وعدم شطط ، ومن ذلك أنهم جعلوا النتيجة ، وهي الحكم على نوح ومن معه في نظرهم بالكذب ، جعلوها في أسلوب الشك ، وعدم اليقين ، حيث كانوا يستطيعون أن يقولوا : بل أنتم كاذبون ، ولكنهم قالوا ( بل نظنكم كاذبين ) ليظهروا بمظهر المعتدل أو الذي يحاول الاعتدال ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى جعلوا هذه النتيجة ، وكأنها استنتاج منطقي من مقدمات سبقتها ، وكأنهم يقولون : ما نزعومونه من الرسالة السماوية وما يتبعها ميزة لا يصلح لها إلا ذو فضل في الناس ، وأنتم ليس لكم فضل قط ( مشيرين إلى أنهم هم ذوو فضل) وإذن فلستم أهلا لهذه الميزة ، حينئذ فالنتيجة العقلية أنكم غير صادقين في دعواكم . اتدعون .

وقد يقال : فلماذا صاغ خصوم نوح النتيجة بأسلوب الشك فقالوا ( بل نظنكم كاذبين) ، وقد كان من مصالحهم أسلوب اليقين ، بأن يقولوا أنتم كاذبون . والجواب أن خصوم نوح لم يخسروا بهذا الشك أو الظن شيئا من حيث النتيجة ، فإنهم يتحاورون حول الدين بوصفه عقيدة ، والعقيدة إذا نزلت عن اليقين بأى درجة من درجات الشك لا تكون عقيدة ولا إيمانا ، وحتى إذا قلنا إن المحاوراة في هذه الفقرة كانت حول صحة الرسالة ، فإن الرسالة وسيلة

لإثبات العقيدة ، ووسائل الإثبات ، وسائر الأدلة ، لا يصلح فيها إلا اليقين ، ولذلك يقول علماء المنطق والأصول ( الدليل متى تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال ) ، فقول الخصوم ( نظنكم كاذبين ) يؤدي في النتيجة معنى ( أنتم كاذبون ) ، ولكن الخصوم كسبوا بأسلوب الشك والظن محاولة الظهور بمظهر الاعتدال ، ليكسبوا موقفهم في الخصومة شيئا من قوة .

### ٣ - دفاع الرسول :

ولكن نوحا عليه السلام ينبرى لهم بعارضته القوية ، وأسلوبه الحكيم ، ومنطقه المضحك ، ويهيئ نوح نفسه للدفاع سالكا الخطوات الآتية :

#### ١ - في التمهيد :

(أ) يحرص على إيجاد ألفة بينه وبينهم ، وألا يبدو في كلامه ما يتخلونه حجة للنفور والابتعاد ، متجاهلا ما أصابوه به هو والمؤمنين به من إساءات شخصية ، فإن مايعنيه هو نجاحه في الخصومة ، ليكون هذا النجاح وسيلة لكسبهم في الإيمان ، ولذلك تجده يبدأ كلامه بهذه الرابطة الاجتماعية المتينة بينه وبينهم ( يا قوم ) مستدرا ألفتهم بهذه الرابطة من جهة ، ومذكرا إياهم ضمنا بأن المرء عادة لا يغش قومه ولا يضللهم ، ليزيد بهذا من ثقتهم به .

(ب) يلجأ إلى إثارة عقولهم ودفعها إلى التفكير بإلقاء الأسئلة عليهم ، فيقول ( يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ) وأرايتم معناها

أخبروني والبيئة الأمر الدال على صدقه كالمعجزة ونحوها، والرحمة النبوة، وعييت أخفيت . فمع ماوجهوه إليه في محاورتهم يأخذهم هو بغاية الرفق واللين وكأنه يقول لهم : افترضوا أن رسالي التي أكرمني الله بها كانت بيئة ظاهرة ، ولكنها خفيت عليكم فلم تدركوها ، هل تكرهكم عليها لإكراها ؟ وفي خلال كلامه نجد ألفاظا كثيرة تستوقف التأمل ، منها البناء للمجهول في ( عييت ) إشارة إلى أن شيوته ظاهرة واضحة ، ومن شأن كل العقول أن تدركها ، ولولا أن هناك حائلا حال دون عقولهم لأدركوها ، وهذا يمثل غاية الرفق بمشاعرهم ، والحرص على ألفتهم ، وكأنه يقول لهم أنا لأنهمكم أنتم في عدم إدراك نبوتي ، وإنما أنهم الذي حال بينكم وبينها فلم تدركوها ، وهذا يدفعهم تلقائيا إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل ، ومنها لفظ ( على ) في قوله ( على بيئة ) الذي يفيد التمكن من البيئة ووضوح الحق عنده ، ثم إن المعنى نفسه يمثل أقصى الاطمئنان النفسى لهم ، حيث يؤكد لهم حرية الاختيار في الدين كما يقول القرآن في موضع آخر ( لا إكراه في الدين ) وهذا من طبيعته أن يزيد نفوسهم اطمئنانا إن كان لديهم أدنى استعداد .

## ٢ - الدليل من الواقع

ومن الحكمة البالغة في أسلوب محاوره نوح أن يترك الأدلة التي ينازع فيها الخصم أولا تنفض كل الوضوح في ذهنه ، ويلجأ إلى أقرب الأدلة إلى الواقع الذي يفهمه ويسلم به الناس جميعا وهو أن كل عمل له مقابل ، فكأنه يقول : إذا لم أكن رسول الله ، وكان ماأدعيه لمصلحتي أنا ، فأين المقابل ، وهل طلبت منكم شيئا

مقابل ما أبدله وما أعانيه ؟ وهم لا ينازعون في أنه لم يطلب مقابلا ، ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يردوا عليه به هو أنه شاذ عن طبيعة الناس ، والشذوذ أمر محتمل وقائم في كثير من الناس ، فالأصل في الإنسان مثلا أن يكون مبصرا ولكن بعض الأفراد يولدون عميا ، والأصل في الإنسان أن يكون عاقلا ، ولكن بعض الأفراد يولدون مجانين ، وهكذا ، فيمكن أن يرد على نوح بأنه شاذ عن طبيعة الناس ، ولذلك يعقب نوح مسرعا ، بأنه لم يشذ عن الناس ، وإنما هو يعمل في الرسالة بأجر ، كما يعمل الأجراء بأجرهم ، وأجره بطبيعة الحال عند من استخدمه وهو الله ، سبحانه وببدا هذا العنصر أيضا يتألف قومه ( ويقوم لأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ... ) .

### ٣ - الرد على حججهم :

ويأخذ نوح في تفنيد كل ماساقوه من حجة أو اتهام ، كما يلي :  
(١) فأما نفورهم من أتباعه الضعاف الأراذل في نظرهم ، فيرد عليهم فيه برفق مراعي دائما أن يحرص على ألفتهم وعدم تنفيرهم ، فيقول ( وما أنا بطارد للذين آمنوا منهم ملائكو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ) ونلاحظ أن نوحا يراعى في رده هذا جوانب عدة بالاضافة إلى إيجائه وإشارته إلى أنه كان يود أن يلبي رغبتهم ويطرد هؤلاء الأتباع من حوله لولا هذه الجوانب والأسباب وأولها أن هؤلاء الأتباع آمنوا به ، وإيمانهم به يعصمهم من جهتين ، أحدهما أن الإيمان كرامة لهم ، والأخرى أن الوفاء لمن آمن به وصدقه لا يبيح له إيناءه ، وثانيها أنني لو وافقتكم وطردتهم فإنهم لا يد ملائكو



رهبهم يوم القيامة ، وهناك يشكوننى إليه ، ولا قبل لى بهذه الشكوى ، وهذا الرد من نوح يتضمن أمراً آخر هو دعوة قومه ضمناً إلى الإيمان بالبعث ويوم القيامة ، وثالثها أن هؤلاء المؤمنين مسألون لم يقدموا إليكم شراً ، وإنما أنتم الذين تعتدون عليهم فكيف تكونون أنتم المعتدين عليهم وتطلبون زيادة اعتداء عليهم بالطرد ؟ ، وهذا فى قوله ( ولكنى أراكم قوما تجهلون ) فليس معنى الجهل هنا الشتم بأنهم جاهلون قليلو المعرفة ، وإنما معنى الجهل هنا الاعتداء فى سفه وحمق ، كما يقول عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويعنى بالجهل البده بالشر .

ولكن نوحا يعود بهم إلى موضوع الرسالة وهو العقيدة بطريق غير مباشر من خلال هذه النقطة ، قائلاً لهم : تعالوا نفترض أننى وافقتكم مع كل هذا وطردتهم ، وحل فى غضب الله ، فأين من يحمينى من الله ؟ ، ألا تستخدمون عقولكم وتفكرون ( أفلا تذكرون ) وكأنه يقول لهم ، هل تحموننى أنتم أو آلهتكم من الله ؟ ( ويقوم من ينصرى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ؟ ) .

(ب) وأما قول الخصوم ( وما نرى لكم علينا من فضل ) فيرد عليه نوح عارضا أفكارهم وتصوراتهم عن طبيعة الفضل نفسه : فهم يتصورون أن الفضل لابد أن يكون شيئاً محسوساً محدداً ، سواء ، أكان مادياً كامالاً ، أم روحياً كعلم الغيب ، أم بالخروج عن طبيعة البشر إلى طبيعة أخرى كالملكىة ، فيقول لهم نوح فيما يشبه السخرية من تفكيرهم ، لأننى لم أقل لكم إن الله أعطانى خزانة

ملكه وأمواله ، ولم أقل لكم إن الله أعطاني ما يخص به نفسه وهو علم الغيب ، ولم أقل لكم إن الله سلخني من البشرية ، وجعلني من الملائكة ، وكأنه يقول لهم أنتم مخطئون في تصوركهم أن الفضل لا بد أن يكون بهذه الصورة ، وأن من يفضل الله لا بد أن ينبيه عنه أو يشركه معه ، أو يخصه بشيء محدد كما تتصور عقولكم ، وأنتم مخطئون في احتقاركم وازدراؤكم لي ولن معي من المؤمنين لأننا لم نكن كما تتصور عقولكم ، فالحقيقة أن الفضل : بل الخير عامة ، إنما هو في النفوس وما تتميز به من فضائل ( الله أعلم بما في أنفسهم ) وإذا وافقتم في تصوركهم الخاطئ أكون ظلالا لكل شيء ، لنفسي ولن معي ، وللحق والعقل ، ولكل شيء ( ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ) وبهذا نجد أن نوحا قد استقصى كل حججهم وهجومهم ، ورد على كل فقرة ردا محدد واضحا ، مراعى أمرين لا يحيد عنهما :

١ - الحرص الشديد على تأليفهم وعدم تنفيرهم ، ولذلك يكرر في كل فقرة ( يا قوم ) بالإضافة إلى تحاشي ما يؤذي نفوسهم من لفظ أو معنى ، وأكثر من هذا تحاشيه الرد على أيدائهم وإسائتهم لآليه وإلي من معه .

٢ - التزام المنطق العقل الذي تتفق عليه كل العقول والذي لا ينكره الخصوم أنفسهم ، كإلزامهم الحجة في أنه لا يطلب منهم أجراً وحتى فيما يشغل على نفوسهم لتعودهم عليه كأو ضاع القوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء ، والسادة والدمماء ، حيث تعودوا

ذلك وصاغوا حياتهم ونفسياتهم عليه ، فإن نوحا يبدى رغبته في الترفق بهم ، بافتراض مجاراتهم فيما يطلبون ، فيفترض أنه طرد هؤلاء الفقراء الضعفاء لإرضاء للسادة ، ولكنه يعود بالسادة إلى العقل حين يوجه إليهم هذا السؤال ( ... من ينصرني من الله إن طردتهم ... ) .

#### نتيجة المناورة :

ومادام نوح قد استطاع الرد المقنع ، فقد انتهت المناورة ، لأنهم أدلوا بكل مآلديهم من حجج ، وهو أبطل كل هذه الحجج ، فبطلت إذن حججهم جميعا . ومعنى هذا أن نوحا قد انتصر ، ومن حقه أن يلزمهم بدعواه أنه رسول من عند الله ، ويترتب على هذا التزامهم مايدعوههم إليه ، وهو وحدانية الله . وهم أنفسهم يعلمون أنهم حينئذ بين أمرين اثنين ، إما أن يأتوا بحجة جديدة ، وإما أن يسلموا له بدعواه ، وليست لديهم حجة جديدة ، لأنهم استنفدوا كل مآلديهم فإذاً يجب أن يسلموا ، ولكنهم لا يريدون ذلك مهما كان الحق واضحا .

فلم يكن أمامهم حينئذ إلا أن يعترفوا ولو ضمنا بهزيمتهم في المناورة ، وانتصار نوح عليهم فيها ، وقد صاغوا ذلك فيما يشبه اللوم أو اللوم لنوح بأنه كثير الجدل ، ولكنهم يعلمون أن ذلك لاينهي الموقف ، فما زالت الدعوى ماثلة بانتصارها أمامهم تطالبهم بالاعتراف بها ، ولكنهم مصرون على المضى في الباطل ، وكانهم يقولون : مع هذا كله ومع عجزنا عن مجاراتك في الحوار فما زلنا غير موقنين بما تقولون ، فإن كنت صادقا فأنزل بنا العذاب

الذى تتوعدنا به ( قالوا يانوح قد جادلنا فأكثررت جدالنا فأثنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين )

ولكن نوحا لا يريد أن يترك لهم حتى هذه الثمالة التى يبدو واضحا أنهم يريدون منها حفظ ماء وجوههم بعد الهزيمة ثم يتخذون منها ثوبا يحاولون به ستر إصرارهم على الباطل الذى دحرته المحاوره ، فيعود نوح إلى حوارهم فى هذه الثمالة ، فيقول لهم إن العذاب الذى تستعملونه ليس لى عليه سلطان ، إنما الله سبحانه هو الذى يملك أن يوجهه فيأتيكم به إن شاء ، ويصرفه إن شاء فإذا أراد إحلاله بكم فليس لكم منه منجى ولا مهرب ( قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ) .

ولكن نوحا لشدة حرصه على إيمانهم يعاوده الحثين إلى استئاثهم فيذكرهم بأنه ناصح لهم ، ولكنه يحتفظ بالسياق الذى يتطلبه الرد ، وهو أنه مجرد رسول ، وقد أدى الرسالة بآمانة ، فالخصومة الآن ليست بينهم وبين الرسول ، لأنهم رفضوه ، ولكنها بينهم وبين من أرسله ، وهو الله سبحانه ، بيده كل شيء . واراوته وحدها هى التى تنفذ ( ولا ينفعكم نصيحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ) .

وبما يستخلص من الملاحظات فى ختام نوح للمحاوره أمران :

١ - أحدهما إحساسه باليأس من استجابتهم وميلهم إليه .  
فبدأ ينسلخ منهم نفسيا ، ولذلك تحاشى حينئذ ما تعودناه منه

خلال المحاوره من استمالتهم ، فلم يقل فى الختام ( يا قوم )  
٢ - مع فقدته لصلته هو بهم ، لم ييأس من صلتهم بالله  
عسى أن يتدوا إليه ، فكرر تذكيرهم بالله ، وأنه ربهم ، وأنهم  
لابد راجعون إليه ( هوربكم وإليه ترجعون )

## ٢ - في الإصلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ أَخَافُهُمْ شُعْبَةً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَكِّيَّالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ، وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمَكِّيَّالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ .

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ ، وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ، وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَفَعُلَىٰ أَعَزَّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا

إِنَّ رَبِّي يَمَا تَعْمَلُونَ مَحِيطٌ ، وَيَقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَائِلٌ  
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي  
مَعَكُمْ رَقِيبٌ <sup>(١)</sup>

#### عناصر المحاوراة

##### ١ - طرفا المحاوراة :

وطرفا المحاوراة هتا شعيب عليه السلام ، وقومه أهل مدين ، ولكننا  
نلاحظ أنه بينما كان المحاورون مع نوح هم سادة القوم ، فإن محاورى  
شعيب كانوا من عامة قومه ، ولذلك نجد من دقة تعبير القرآن  
إبراز التماثل والتقارب الاجتماعى بينه وبينهم بذكر الأخوة ( وإلى  
مدین أنھام شعيبا ) ولم يذكر لفظ الأخوة فى محاوراة نوح ، لأن  
الأخوة عنوان التماثل والتواصل الاجتماعى ، وهذا لا يتحقق بين  
القوى والضعيف ، أو السيد وغيره ، وينعكس هذا الفارق فى  
النوعية الاجتماعية للمحاورين على أسلوب المحاوراة نفسه ، ونجد ذلك فى  
كثير من مواضعها ، ومن ذلك :

١ - محاورو نوح لكونهم من السادة ، سيطرت عليهم فى  
المحاوراة نزعة التعالى ، والتركيز على معنى التميز والمفاضلة بين  
الناس ، فأول مابدأوا به هو قولهم ( ماتراك لإبشرا مثلنا ) لأن تفكيرهم  
مرتکز على أنه مالم تكن للشخص ميزة كتميز السادة عن سائر  
القوم ، فلا ينفى له أن يسمو على الناس ، فإذا كان القوم لا يسلمون  
لسيدهم بالسيادة إلا لصفة أو صفات معينة ، فكذلك وهم سادة

(١) الآيات ٨٤ - ٩٣ سورة هود .

لا يسلّمون لمُدعى النبوة بأن يرتفع عنهم بالنبوة إلا لصفة خاصة .  
كأن يعطى صفات الملائكة ، وكذلك كان تفكيرهم مركزاً على  
الفوارق الاجتماعية والشخصية حيناً قالوا عن أتباع نوح ( وما نراك  
اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الراى وما نرى لكم علينا من فضل ) .  
أما أسلوب محاورى شعيب فقد خلا من هذه النزعة ، وكل ما بدا  
منهم فى هذا النحو شعورهم بأنهم أقوى منه ، والقوة والضعف  
لا يحققان الفوارق الاجتماعية كفوارق السادة ، على أن ضعف شعيب  
لم يكن اجتماعياً ، وإنما كان فى ناحية واحدة ، هى قلة عدد تابعيه  
للمؤمنين ، أما من الناحية الاجتماعية ومن حيث النسب فقد كان كفؤاً  
لمحاوريه ، ولذلك قالوا ( ولولا رهطك لرجمناك ) والرهط الجماعة ،  
يعنون قرابته .

٢ - اشتمل أسلوب محاورى نوح على التحدى ، وهو طابع  
سلوك السادة والقادة فى الخصومة ، فقد قالوا يتحدون نوحاً ( فأتنا  
بما تعدنا إن كنت من الصادقين ) بينما خلا أسلوب محاورى شعيب  
من هذه النزعة .

## ٢ - موضوع المناورة :

وأما موضوع المناورة ، أو القضية التى يختصم فيها الطرفان ،  
فهى الإصلاح ، ولا يخفى ذلك أن بين محاورى نوح وشعيب اختلافاً  
أساسياً فى الموضوع ، فالأنبياء هدفهم واحد ، وإنما يختلفون  
فى أسلوب الدعوة ، والاختلاف هنا فى العموم والخصوص ، فمناورة  
نوح منصبة كلها على العقيدة ، وهى وحدانية الله ، على أساس



إنه إذا نجح في إقناع محاوريه بذلك ، فإن تغيير السلوك سيأتي بطبيعة الحال تبعاً لذلك ، حيث إن المؤمن سيبحث من تلقاء نفسه عما يرضى ربه من السلوك . وأما محاوره شعيب فقد كانت شاملة للعقيدة والسلوك ، لأنه يرى أن الموضوع كل لاداعي لتجزئته ، وربما كان لاختلاف نوعية المحاورين أثر في ذلك ، فإن انحرافات السلوك ، وظهور المساوئ في سلوك العامة وهم محاورو شعيب أوضح منه في سلوك السادة وهم محاورو نوح ، فإن السادة أقرب إلى تجنب مساوئ السلوك أو إلى إخفائها ، وإذا لم يكن ذلك حياً في الاعتدال ، فللمحافظة على السيادة ، وبناء على ذلك يكون أوضح مساوئ محاورى نوح العقيدة ، فصب المحاوره عليها ، وأما محاورو شعيب فكانت مساوئهم شديدة الوضوح في العقيدة والسلوك معا ، ولذلك جعل المحاوره شاملة ، لتكون إصلاحاً في المجالين ، وشعيب نفسه يحدد موضوع المحاوره بقوله ( إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ) فمحاوره نوح خاصة بالعقيدة ومحاوره شعيب عامة في العقيدة والسلوك .

فأما العقيدة فقد صاغها كما فعل نوح فيما يبرز أفراد الله سبحانه بالعبادة ، وهو معنى الوحدانية ، فكما قال نوح ( لا تعبدوا إلا الله ) قال شعيب ( اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ) والاستثناء بإلا في كلام نوح ، يقابله حرف الجر ( من ) في كلام شعيب .

وأيضا كما فعل نوح في التمهيد النفسى فعل شعيب ، فقد بدأ كلامه بمحاولة كسب مشاعر المخاطبين ، واستمالة قلوبهم بقوله

( يا قوم ) ، ثم عرض موضوع المحاوره ، ويمكن استخلاص النقاط التالية حينئذ في إيجاز

١ - بدأ بالتمهيد النفسى السابق ( يا قوم ) .

٢ - عرض موضوع المحاوره ، ويتمثل عرضه في جانبين ، أحدهما العقيدة وقد أمرهم فيها بوحداية الله في العبادة ، والآخر الإصلاح الاجتماعى ، وقد ركز فيه على أمرين يبدو أنهما كانا شائعين في المجتمع كله ، وهما المكيال والميزان ، حيث كرر التوجيه فيهما ، فطلب منهم عدم التقص فيهما ، ثم طلب منهم توفيتهما بالقسط أى بالعدل ، وقد تساءل كثير من المفسرين عن حكمة الإعادة فيهما ، حيث قال لهم أولا ( ولاتنقصوا المكيال والميزان ) ثم أعاد الأمر بنصيحة أخرى ، هى ( أوفوا المكيال والميزان ) ثم رد المفسرون على هذه التساؤلات بما فيه الغناء ، ومعظم الرد يدور حول أنه ترغيب لهم في عمل الخير ، والترغيب يستدعى الايضاح والتكرار ، ولكننا نضيف احتمالين آخرين للإجابة ، أحدهما أن المكيال والميزان أكثر الأشياء شيوعا وعموما في أى مجتمع ، حيث لا يخلو أحد من التعامل بهما ، بين بائع ومشتري ، وحين فسد التعامل فيهما في قوم شعيب ، أصبح المجتمع كله مشاركا في هذا الفساد أو طرفا فيه ، بين غابن ومغبون ، ولهذه الأهمية الكبيرة ، والشيع الشديد ازداد الاهتمام بإصلاح التعامل بهما ، وأما غير المكيال والميزان من نواحى الفساد في المجتمع فمهما بلغت خطورته فانه محصور غالبا في نطاق معين ، والمتأثرون بكل نوع من أنواع الفساد عادة ليسوا كل المجتمع ، كما هو الحال في المكيال والميزان ، ولذلك لم يستدع الحال إعادة الحديث في

غير هذين النوعين من أنواع الفساد والاحتيال الآخر أن الذين يباشرون المكيال والميزان هم التجار ، وهم الذين يغشون فيهما حين يحدث الغش ، وطبيعة الذي يحترف الغش أن يكون لديه القدرة على المراوغة والخداع ، فلعل شعيبا عصى حين طلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان أن يلجأ بعضهم إلى المراوغة والتضليل في تأويل هذا الطلب ، فيقول أنا لن أنقص المكيال والميزان ، بل سأزيد فيهما ، وذلك حينما تكون الزيادة لمصلحته ، بأن يكون هذا التاجر هو الشاري ، ويكيل من سلعة البائع ، أو نحو ذلك ، ممن وصفهم القرآن الكريم في موضع آخر بأنهم ( الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون )<sup>(١)</sup> فيريد شعيب أن يقطع عليهم طريق الخداع في التأويل ، فيقول لهم لا تنقصوا المكيال والميزان ، ولا تزيّدوا فيهما ، وإنما ( بالقسط ) يعني بالعدل ثم يعمم شعيب طلب الإصلاح في كل نواحي التعامل ، فيقول ( ولا تبخسوا الناس أشياءهم ) ثم ينتقل إلى طلب الإصلاح عامة في كل ناحية من نواحي الحياة والمجتمع ، فيقول ( ولا تعثوا في الأرض مفسدين ) .

٣ - يعاود شعيب الحرص الشديد على استمالتهم وتأليفهم ، فنلاحظ أنه في كل مرة يطلب منهم مطلباً وإن كان مكرراً ، يدلّ إليهم بشيء ودى من شأنه أن يريح النفس ، ويجذب القوادة ، فيقول لهم أولاً ( ولا تنقصوا المكيال والميزان إلى أراكم بخير )

(١) الأيتان ٣٠٢ سورة المطففين .

ومعنى بخير أنتم في نعمة من الله ولستم في حاجة إلى التطفيف والبخس في الكيل والوزن . ولكن ظاهر ألفاظ التعبير تحمل ما يشبه المدح لهم ، خاصة وأن لفظ ( أراكم ) يعنى أنه يوضح لهم أن هذا المدح صادر منه هو ، ويمثل رأيه فيهم ، وهذا كله من شأنه أن يكتسب قلوبهم وكذلك حينما طلب منهم التوفية وعدم البخس ، قال لهم ( بقية الله خير لكم ... ) وهذا التعبير وإن كان يتضمن نصيحة لهم بأن ما يقيه الله لهم من الرزق الحلال خير من الرزق الحرام الذى يجنونه من الغش ، إلا أنها نصيحة مصوغة بأسلوب الود والاستئالة .

٤ - يحاول شعيب أن يستفيد بكل المؤثرات النفسية عليهم ، وأن يأتى نفوسهم من جميع أقطارها ، فيبعد أن قريهم نفسيا بتكراره ( يا قوم ) ويبعد أن عرض عليهم الموضوع في رفق ، وبعد أن حرص على استمالتهم بما سبق حديثه ، يحاول أن يأتىهم من جانب التهديد ، ليستعمل مع نفوسهم كل أسلحة اللين والشدّة ، فإذا لم يصلح هذا ، فعسى أن يصلح ذاك ، فيقول لهم مثلنا ( إلى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ) ولكننا نلاحظ من روعة هذا التعبير ، أنه يجمع بين غاية الرحمة ، وغاية الشدة معا ، فأما الرحمة ففى قوله ( أخاف عليكم ) حيث يوحى إشفاقه المتجدد المستمر عليهم ، كما يفهم من صيغة المضارع ، وأما الشدة ، ففى كونه كما فعل نوح ، جعل لهم العذاب عذابين ، العذاب نفسه أولا ، ثم اليوم الذى يوجد فيه العذاب وصفه بأنه محيط ، أى محقق بهم لا فرار منه ، والمحيط فى الحقيقة هو العذاب وليس اليوم ، ولكنه أراد المبالغة فى وصف العذاب

٥ - من حكمة أسلوب شعيب ، أنه يريد أن يجعل كل كلامه مؤثرا وجاذبا لهم ، وأن يبعد عن نفوسهم وأوهامهم أى احتمال يبعدهم وينفرهم ، فهو يخشى أن يظنوا من هذا المنطق أن شعيباً يريد أن يتحكم أو يسيطر ، أوحى أن يشرف عليهم ، فيوضح لهم أن ليس لديه من هذا شئ ، ولاملك منه شئ ، فالأمر كله بيد الله ، وأما هو فيقول ( وما أنا عليكم بخفيظ ) أى لم يرسلنى الله متسلطا ولامراقيا لأعمالكم ، ولامعاقبا لكم . فهذا كله لله ، وهذا المعنى من شأنه أن يزيد من نفوس قومه اطمئنانا إليه ، وأن يبعد عنها وساوس النفور ، وأن يجعل مطالب شعيب ، وأوامره ونواحيه ، لاثثير فيهم نفورا ولاتبرما ، لكونها لم تصدر من متسلط أو متحكم ، وإنما من ناصح مشفق ، يريد أن يهديهم إلى غيرهم هم ، وليس إلى غيره هو .

### ٣ - موقف الخصم :

ويبدو الفارق النوعى بين خصوم نوح فى المحاوره وخصوم شعيب ، فى أسلوب كل منهما فى المحاوره فأما خصوم نوح السادة ، فقد حاولوا جهدهم الاعتماد على المنطق العقلى ، وأن يجعلوا أسلوبهم يسير على منتهى عقلى كما سبق قدر استطاعتهم ، أما خصوم شعيب وهم من أوساط الناس وعامتهم ، فلم يبلغوا هذه الدرجة ، حيث من الواضح أن السادة فى كل قوم إنما رفعتهم عادة عقولهم ، أو أسهمت على الأقل فى رفعهم إلى السيادة ، أما خصوم شعيب فنلاحظ أنهم تحاشوا الجانب العقلى فى حوارهم إطلاقا ، فلم يحاولوا الاعتماد عليه ،

بل ولا استخدامه بوصفه عنصراً من عناصر محاورتهم ، وإنما اعتمدوا اعتماداً كاملاً على السخرية من شعيب وتدينه ( قالوا يا شعيب أصلحك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لآنت الحليم الرشيد ) والاعتماد على السخرية ، واستخدام الفكاهة الهادفة ظاهرة شعبية ، يعرفها الباحثون في علم النفس وفي الأدب الشعبي ، فهي ظاهرة تمثل الشعوب وعامة المجتمع ، وإن صدرت من أفراد . وأما عن اعتياد خصوم شعيب على السخرية ، فلأن كلامهم كله كان سخرية ، سخروا من صلاته ، فهم يسألونه : هل صلاته هي التي أمرته أن يقول ما قال في العبادة ، وهم يعلمون أن الصلاة لا تصدر منها فعل ولا قول ، ولكنهم يسخرون من صلاته من جهة ، ويحطون من قدره من جهة أخرى ، وكأنهم يقولون إن ماقلته لا ينبغي أن يصدر من عاقل ، فمن الذي أصدره إليك هل الصلاة ؟ .

وسخروا من طلب إصلاحه في المعاملات عامة ، وعنوانها المكيال والميزان ، وتجاهلوا أنه طلب منهم العدل فيهما ، فادعوا ساخرين أنه يريد منهم بحثرة أموالهم حسب أهوائهم أو هواه هو ( أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ) بنون المضارعة للمتكلمين في الفعلين ، يقرئ ( أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ) بناء الخطاب في الفعلين ، وكلا المعنيين يدل على أنهم تجاهلوا أن شعيباً طلب منهم وضع قواعد عادلة للتعامل ، وادعوا أنه يطلب منهم إخضاع التعامل للهوى سواء أكان هواهم أم هواه ، وقد صاغوا ذلك بأسلوب السخرية

الذى يتركز في ( نفعل في أموالنا ) فإنه يفيد التنكيل والقسوة ،  
كأن تقول لشخص : ما ينبغي أن تفعل بفلان هذا .

وسخروا من شعيب نفسه بقولهم ( إنك لأنت الحليم الرشيد )  
فمن الواضح أنهم لا يريدون وصفه بالعقل والحكمة ، ولا بالرشد  
في السلوك كما يقولون ، وإنما يريدون وصفه بعكس ذلك على  
وجه التحديد ، كما تقول لشخص في موقف بخل واضح : ما هذا  
الجود ؟ فأنت تسخر منه قاصداً عكس الجود . فهم من خلال  
سخريتهم يريدون وصف شعيب عليه السلام ، بغاية السفه في  
التفكير ، وغاية الضلال في السلوك .

وهذه هي كل ردودهم على ماأثارة شعيب من موضوع المحاورة  
وواضح من هذه الردود أنها مجرد شتائم مصوغة بأسلوب  
السخرية لتكون أبغ تأثيراً وأوجع في النفوس ، فمن المعروف أن  
السخرية أشد الأساليب إيلاماً وإيذاء لمن توجه إليه ، ولذلك نجد  
القرآن الكريم يصف أثر السخرية والاستهزاء في صدر محمد  
صلى الله عليه وسلم ( إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع  
الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما  
يقولون )<sup>(١)</sup> وإذا ضاق صدر محمد الواسع الحلم والذي شهد له  
القرآن بالخلق العظيم<sup>(٢)</sup> ، فكيف بصدور غيره من الأنبياء  
والمصلحين ، فضلاً عن سائر الناس ؟ .  
وإذن فهي شتائم. أيا كان الأسلوب الذي صيغت به ، ولجود

(١) الآيات ٩٥ - ٩٧ آخر سورة الحجر .

(٢) الآية ٤ سورة القلم .

الخصم إلى الشتائم في أى مناظرة أو محاوراة عقلية معناه الهزيمة ،  
أو هي على وجه التحديد بداية الشعور بالهزيمة ، لأن الشتائم ليست  
سلاح المحاوراة ، وكلا الطرفين يعرف مقدماً أن الحجة هي السلاح  
حينئذ ، فإذا نفدت حجج أحد الخصمين ، أو لم توجد لديه أصلاً ،  
لجأ إلى بديل يحاول أن ينال به من خصمه ، أو يستتر به سوء  
موقفه ، وأيسر ذلك الشتائم التي تدل على فقدان الثقة بالنفس  
في هذا الموقف ، وهذا ما فعله محاورو شعيب ، فكأنهم رأوا الحق  
واضحاً في كلام شعيب ، وليست لديهم حجة للرد عليه ، وليست  
لديهم مقدرة على محاولة التفضيل العقلي كما فعل سادة قوم نوح ،  
مع إصرارهم على عدم الاستجابة لشعيب ، فلجأوا إلى الشتائم  
للتبيل من شعيب ، ولستر شعورهم بالعجز والهزيمة .

ونستخلص من ذلك أن رد قوم شعيب خلا من المنطق العقلي ،  
بل تحاشوا موضوع المحاوراة كله ، فلم يراجعوا شعيباً فيه ، ولم  
يتعرضوا له إلا في ثنانيا سخريتهم ، لأن شعيباً يطلب منهم عبادة  
الله وحده ، فلم يقولوا له رأيهم في هذا إلا قولهم خلال السخرية ،  
إن عبادة آلهتهم ميراث عن الآباء ، على أن هذا الرد منهم في سياق  
المحاوراة يعد نوعاً من العجز العقلي في التحاور ، وقالوا ذلك في  
غير المحاوراة لكانت لهم فيه وجهة نظر من حيث العادات والتقاليد  
وسلطاتها على المجتمعات ، ولكن المحاور لا ينبغي ولا يقبل منه أن  
يلقى عقله وهو كل سلاحه في المحاوراة ، ليأتى بآبائه الموقى يحاورون  
مكانه ، وكذلك ما طلبه شعيب منهم من الإصلاح الاجتماعي ،  
تحاشوا جعله موضوعاً يحاورونه فيه ، وكل ما فعلوه أن أوردوه



عرضاً خلال سخريتهم ، ولو كانت لديهم حجة ، أو مقدرة عقلية حتى على المراوغة ماتركوا الميدان لشعيب يلمع فيه دون منافس .

#### ٤ - موقف الرسول :

وكخلق الأنبياء وأصحاب الدعوات في تجاهل ما يوجه إلى أشخاصهم ، واهتمامهم بدعواتهم وما يوجه إليها ، كذلك فعل شعيب ، لأن النصر الحقيقي لصاحب الدين أو الدعوة هو انتصار ما يدعو إليه ، أما شخصه فهو منطوق في دعوته ، انتصاراً أو فشلاً . لذلك نجد شعيباً يتجاهل شتائم محاوريه ، وسخريتهم منه ، ويركز منطقته على ما يدعو إليه ، ويمكن تلخيص رد شعيب عليهم في النقاط الآتية :

١ - يدعوهم إلى العقل أولاً كما فعل نوح ، فكأنه يقول لهم : أخبروني عن وضعه الله موضع المصلح ، أو منحه النبوة ، ماذا يفعل غير أن يدعو إلى الإصلاح والدين ؟ (أرايتم إن كنت على بينة من ربي وزقني منه رزقاً حسناً . . . )

٢ - وكما فعل نوح في دعوتهم إلى دليل من الواقع الذي لا يختلف عليه الناس ، ولا يثار فيه الخصوم ، كذلك فعل شعيب ، فكأنه يقول لهم : أنا منفذ ما طلبته منكم في نفسي ، أفلا تفكرون : لو كان ما أدعوكم إليه شراً فكيف أعمل أنا به ؟ وهل أحسنتم مني ميلاً إلى عكس ما أدعوكم إليه ؟ ( وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ) والمخالفة هي الاتجاه في عكس اتجاه شيء آخر . وهذا المعنى يتضمن دليلاً واقعياً لا يختلف فيه الناس ، هو أن الإنسان

بطبيعته يحب لنفسه كل الخير ، فيطبق شعيب هذا في المحاوره  
قائلا لهم : من أدله صدق أنى أعمل بما أدعوكم إليه ، فلو لم يكن  
هذا خيرا ما ألزمت نفسى إياه : فهل أنا صادق أم وجدتمونى  
أفعل عكس ما أدعوكم إليه ؟

٣ - وكما فعل نوح في إبعاده عن نفوسهم أى وهم في أن  
يظنوا به رغبة في الاستئثار بأى شئ مما يهدف إليه الناس ، من  
مجد أو تسلط أو زعامة أو أى مصلحة شخصية ، فان شعيبا يقول  
( إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ) ويوضح لهم وضوحا لائس  
فيه، أن الأمر كله بيد الله ، سواء بدؤه ومنتهاه ( وما توفيقى إلا بالله  
عليه توكلت وإليه أنيب ) .

٤ - بعد هذا كله ، وبعد استفاد كل وسائل الترغيب ،  
يضيف أيضا بقية جوانب التأثير في نفوسهم ، ومن ذلك التهديد  
والتخويف ، ولكنه يأتيهم من جانب الفكر والموعظة ، طالبا منهم  
أن يتعظوا بالأمم التى فعلت مثل فعلهم فأهلكهم الله ، وأول ما يخشاه  
عليهم مخالفتهم إياه ، وجدالهم وشقاقهم في الحق الواضح ( ويا قوم  
لا يجرمكم شقاقى أن يصببكُم مثُل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود  
أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ) ولا يجرمكم أى لا يكسبتكم  
يريد أنه يخشى أن يكون شقاقهم وخلافهم إياه سببا في هلاكهم  
كما هلك أولئك الأقوام .

٥ - لشدة حرص شعيب على كسبهم في المؤمنين يعود إلى  
ترغيبهم مذكرا لإياهم بأن الله سبحانه لديه كل الرحمة والود ،

وليس بينهم وبين رحمته ووده إلا أن يستغفروه مما سلف ، وأن يعودوا ( واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ) وتلحظ دقة شديدة في كلام شعيب عن الله سبحانه ، فمع أن الله ربه وربهم جميعا ، إلا أنه يقول أولا ( استغفروا ربكم ) مراعاة لأن الله غاضب عليهم ، وهذا يقتضى أن يستغفروه ، ثم حينما وصف الله بالرحمة لم يقل إن ربكم رحيم ، وإنما قال ( إن ربي رحيم ) مراعاة لأن رحمة الله لا تنال الكافرين ، وإنما تنال حينئذ شعبيا ومن معه .

#### نتيجة المداورة :

ويبدو أثر نوعية المداورين أيضا في ختام المداورة ونتيجتها ، ومن حيث إن مداوري شعيب لم يكونوا من ذوى الرأى والعقل في قومهم ، لذلك لم يظهروا أى مقدرة عقلية لهم في المداورة كما سبق ، ثم هم يعلنون هزيمتهم ضمنا وانتصار شعيب عليهم ، والذي يلفت النظر هو الطريقة التي أعلنوا بها هزيمتهم أو هزيمتهم ، حيث نفاجأ لآباستسلامهم ، ولا يمجزم فحسب ، وإنما بأسوأ من ذلك وهو أنهم لم يفهموا ولم يفقهوا كثيرا مما قاله لهم شعيب ، وهذا اعتراف صريح منهم بضعف عقولهم ، وانخفاض ذكائهم إلى هذا الحد الواضح ( مانفقه كثيرا مما تقول )

بينما نجد مداوري نوح لكونهم من السادة ذوى الرأى والعقل في قومهم ، يفهمون ما قال لهم نوح ، ويقدرونه قدره العقل رغم معارضةهم فيعترفون لنوح بقوة المعارضة في الحوار بقولهم ( ياتنوح قد جادلنا فأكثر جدالنا ) ولا يقولون لم نفقه كما قال مداورو شعيب .

والشعور بالهزيمة في المحاوره عامل نفسى مثير ، يدفعهم إلى التماس شىء ينالون به من خصمهم شعيب ، ويحترون به هزيمتهم أمام الناس ، وإذا كانوا قد لجأوا إلى الشتائم أثناء المحاوره عند إحساسهم بالعجز ، فإن الشتائم لا تكفى عند تحقق هزيمتهم ، ولذلك فكروا في أن يقتلوا شعيباً بالرجم ، وما أكثر ما فعل الأقوام بأنبيائهم مثل ذلك ، وخاصة بنى إسرائيل ، ولكن شيئاً واحداً منع قوم شعيب من رجسه ، هو قرابته القوية ، التى تغضب له نسباً لادينا ( قالوا يا شعيب مانفقه كثيراً بما تقول وإنا نتركه فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ) .

ولكن شعيباً صاحب الدين والدعوة لا يعنيه من ذلك شىء إلا أن يحرص على اقتناص أدنى فرصة يرى فيها شيئاً من أمل في تقريبهم إلى الله ، فيعاود استئاثهم إلى الدين ، ويواصل محادثتهم والرد على كلامهم الذى أرادوا أن يختموا به حوارهم ، فيقول لهم إذا كنتم تتحدون في من أجل رهطى ، فقد كان ينبغي أن يكون الله أعز عليكم عن رهطى ، ولكنكم نسبتم الله حتى طرحتم شأنه وراء ظهوركم ، وكأنه لا يعينكم مع أن الله محيط بكم وبكل ماتعملون .

وعندما وصل شعيب إلى حالة اليأس منهم ، لجأ إلى الوعيد بالأسلوب الرائع ، الذى يملأ النفوس روعاً ، والذى يصدر من شعيب الذى يوصف بأنه خطيب الأنبياء ، فكأنه يقول لهم : مادمتم مصرين على الكفر والفساد بعد كل ذلك ، فابقوا على كفركم وفسادكم وسأبقى أنا على إيمانى وصلاحى ، ولا أقول لكم من الذى

سيحل به العذاب والخزي المهين ، ومن الذى سيظهر دون ريب  
أنه كاذب ، فانتظروا وأنا منتظر معكم .

ولكن هذا التغليف اللغزى الذى صاغ به شعيب كلامه ،  
لا يقلل من أثر الوعيد ، بل يزيده عمقا وتأثيرا ، لأن هذا الأسلوب  
يبدو واضحا أنه نابع من الثقة الكاملة لدى المتحدث فيها يقول .  
ومن الملاحظات أن شعيبا لم يتخل عن إمالة قومه ، بمثل قوله  
( يا قوم ) إلى آخر المحاوراة ، وحتى عندما ختموا المحاوراة مصرين  
على الكفر ، فان شعيبا كأنه لم ييأس منهم ، وإنما لديه أمل ولو  
كالبصيص ، فيناديهم من أجله بقوله ( يا قوم ) وحتى أنه في آخر  
ماوجهه إليهم من كلام الوعيد ، يقول لهم ( وارتقبوا إلى معكم  
رقيب ) ويلفت النظر بقوله ( معكم ) فانه يفيد في ظاهره الصحية ،  
وهى وإن لم تكن موجودة في الواقع ، إلا أن إبرازها ظاهرا يكون  
من عوامل استمالتهم . وقد تمثل ذلك كله في قوله ( قال يا قوم  
أرهنى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون  
محيط ، ويا قوم اعملوا على مكانتكم لاني عامل سوف تعلمون من  
يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إلى معكم رقيب )

ومن الملاحظات الواضحة أيضا في أسلوب شعيب عليه السلام  
في المحاوراة إتصاف الخصم ، حتى إنه يتخل عن تطبيق آثار وجهة  
نظرة في المحاوراة على نفسه ، مراعاة لمشاعر الخصم في المحاوراة  
رغبة في الوصول إلى كسبه ، ووجهة شعيب في المحاوراة أنه ومن  
معه مؤمنون بالله ، وعاملون بما أمروا به ، وجزاء من يفعل ذلك  
الثواب العظيم في الدنيا والآخرة ، وجزاء المخالف العقاب الأليم

فيهما ، ومن حق شعيب في المحاوره أن يطبق هذا على نفسه ،  
كأنه يقول لخصمه ، وخاصة في ختام المحاوره .

جزاء المؤمن الصالح رضا الله وثوابه ، وجزاء الكافر المقسد  
مثلكم غضب الله وعذابه ، ولكنه زيادة في إشعار خصمه بالإنصاف ،  
كأنه يقول لهم لأقول لكم من منا سيحل به عذاب الله ، فلنفترض  
أني وأنتم في انتظار هذا العذاب المخزي ، فانتظروا معي وسترون  
عما قريب من يحل العذاب ، ومع أن مراد شعيب في غاية الوضوح ،  
إلا أنه لا يملك إنصافا لهم فوق هذا .

بل أبلغ ما في هذا الإنصاف أنه يأتي بعد انتصار شعيب ،  
ويظهر الحق على لسانه ، واعترافهم ضمنا بهزيمتهم أمامه ، وهذا  
الاعتراف الضمني يقتضي أنه على الحق ، وأنهم على الباطل ، وأن  
هذا العذاب من نصيبهم هم ، فلو قال لهم شعيب بعد هذه النتيجة  
انتظروا العذاب ، لكان تسلسلا منطقيا منتظرا ، ولاغربة فيه ،  
ولكنه يتخلى عن هذا الحق ، ليتخذ من هذا التخلي وسيلة إلى تأليف  
قلوبهم ، وحتى لا يترك خيطا واحدا من خيوط الأمل في الأخذ بيدهم  
إلى طريق الله .

#### العبرة :

والقرآن الكريم لا يسوق أخبار الماضين وقصصهم لمجرد  
التسلية أو رواية الأخبار ، وإنما ليتخذ منها السامعون في كل  
زمان ومكان عبرة وموعظة يستفيدون بها في واقعهم ، وذلك لأن  
كل ماساقه القرآن من أخبار الماضين ، لا يتسم بأي طابع شخص ،

يعنى أنه لا يورد أمورا شخصية لاتعنى غير أصحاب هذه الأمور  
التي حدثت في القديم ، وإنما يورد الأمور ذات المضمون العام الذي  
يعنى الناس ، وإن حدثت لشخص أو أشخاص معينين ، من الأمم  
السابقة .

ومن الواضح أن كل ماسأله القرآن الكريم من أختبار الماضيين ،  
يتعلق من قريب أو بعيد بلأحد أمرين ، إما العقيدة ، وإما السلوك ،  
وكلا الأمرين هدف أساسى للقرآن في دعوته ، فإنه يدعو إلى العقيدة  
الصحيحة ، وإلى السلوك القويم معا ، يدعو إليهما مباشرة أحيانا ،  
ويدعو إليهما بأسلوب غير مباشر أحيانا أخرى ، ومن هذه الأساليب  
أسلوب المحاورة كما قلنا ، ففى محاورة نوح مع قومه ، يدعو  
القرآن إلى العقيدة الصحيحة ، على لسان نوح ، متخذا من قصته  
مع قومه عبرة يدعو السامعين صراحة إلى الاعتبار بها ، وفى محاورة  
شعيب مع قومه يدعو القرآن إلى الإصلاح الدينى والعمل عامة  
على لسان شعيب ، متخذا من قصة شعيب مع قومه عبرة أيضا  
يدعو السامعين ضمنا إلى الاتعاظ بها

والمحلوظ أن المحاورات ، وأختبار الماضيين عامة يعقبها توضيح  
العبرة من ذكرها ، فنجد في المحاورة مثلا نتيجة إصرار المعادين  
للاتبياء والمصلحين على كفرهم وعصيانهم ، ليتخذ السامعون من  
ذلك عبرة في أنفسهم ، فلا يسلكوا ماسلكه هؤلاء المعادون .

وأوضح ماتكون العبرة في مقام الوعيد ، لأهميته في اتعاظ  
السامعين به ، ولذلك نجد العقاب واضح عقاب كل خير من  
أعيار المعادين السابقين

ولكن المحاورات تزيد هذا الوعيد وضوحا وإبرازا ، وبالتالي تأثيرا في السامعين ، حيث إنها في أغلب الأحيان تمسب الوعيد بمرحلة ، هي الإنذار بهذا الوعيد ، على لسان المحاور المؤمن ، وإذا هذا الإنذار يتحقق كما أنذر به المؤمن الداعية ، كما قال نوح لقومه بعد المحاورة ( فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) وإذا العذاب ينزل ، فيهلكون جميعا غرقا في الطوفان ، وكما قال شعيب مثل قول نوح ( سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارْتَقِبُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ) ولم يطل ترقيتهم ، فإذا الصيحة تدمرهم فيصبحوا في ديارهم جاثمين وأهمية هذه الصورة من العبرة باللغة الأثر ، حيث إن القرآن ينذر المعاندين بعذاب عاجل أو آجل ، وحينئذ يشير إليهم تصريحاً أو تلميحاً أنهم لن يكونوا خيراً من هؤلاء السابقين لو أصروا على العناد



### ٣ - بين الخير والشر

#### فى قتل النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ التَّقِيَّينَ ، لَنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ، فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِثُ سُوْعَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِثُ سُوْعَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ لَئِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بِغَدٍ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لِمُسْرِفُونَ » (١)

(١) الآيات ٢٧ - ٣٢ سورة المائدة .

## جوانب المحاوراة

### ١ - طرفا المحاوراة :

هما شخصان أقرب إلى الرمز منهما إلى التعريف بهما ، بمعنى أن حديثهما لم يسبق لأهمية نسبته إلى شخص أو أشخاص معينين وإنما لأهمية موضوع المحاوراة ، وموضوع المحاوراة في جملته صراع بين الخير والشر ، وأحد هذين الشخصين مجرد رمز للخير ، والآخر مجرد رمز للشر ، وسواء أكان هذان الشخصان ابني آدم من صلبه كما يروى بعض المفسرين ، وأن رمز الخير منهما يسمى هابيل ، ورمز الشر يسمى قابيل - وأن سبب ما كان بينهما أنهما حينما عزا على الزواج ، كان نصيب هابيل الفتاة الجميلة ونصيب قابيل دون ذلك ، فحسده الأخير على جمال نصيبه ، وأراد أن يحول بينه وبينها ، فاحتكما إلى أبيهما آدم ، فحكم بأن يقرب كل منهما قربانا ، فألها نزلت نار فأكلت قربانه ، فهو المقبول عند الله وهو الذي يتزوج الجميلة ، وقربا القربان فتقبل قربان هابيل صاحب النصيب الجميل ، فازداد قابيل حسدا ونقمة على أخيه ، وعزم على أن يقتله ، نقول سواء أكانا ابني آدم من صلبه ، أم كانا شخصين من بنى إسرائيل ، أم من غيرهم ، فليس المهم أن يكون كل منهما علما معروفا بشخصه كما أردنا من لفظ التعريف في بدء الحديث وإنما المهم وضع كل منهما بوصفه رمزا للعامل الذي دفعه إلى سلوك ماسلك ، وقد كان الدافع وراء قابيل هو الشر ، أيا كان نوع هذا الشر ، كما كان الدافع وراء هابيل هو الخير أيا كان نوع هذا الخير

غير أن للمحوظ أن أصحاب الرأي القائل بأنهما ابنا آدم من الواضح أنهم راعوا طاهرا لفظ القرآن (ابنى آدم) وأن أصحاب الرأي القائل بأنهما من بنى إسرائيل راعوا التعقيب الذي أورده القرآن في آخر القصة (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل) ولكن كلا الرأيين يعتمد على الفهم والاستنباط من ألفاظ القصة ، دون سند موثوق به من الأحاديث الشريفة ، والواقع أن كل ماعدا الحديث النبوى الصحيح من آراء المفسرين ولو كانتوا من الصحابة إنما يعتمد على مجرد الفهم الشخصى من القرآن ، أو النقل عن أصحاب الأديان الأخرى ، وكل ذلك ليس حجة في التفسير للقرآن بل بعض ذلك ينبغى أن تبذل جهود جادة لنيله ولقت الأنظار إليه فإن ماى بعضه من إسفاف ، لا يلىق أن يفسر به جلال القرآن الكريم .

وأما عن الأسباب غير المباشرة للقتل فنرجح أنها ليست إلا عوامل نفسية من قبيل الحسد كما في قصة إخوة يوسف ، والذي بعثنا من ذلك أن تحديد شخصى المتحاورين هنا أو نسبهما أوزمانهما ليست له أهمية خاصة ، لكون كل منهما مجرد رمز لمعى ، ولسلوك يملكه غيره من الناس .

## ٢ - موضوع المحاورة :

وموضوع المحاورة يدور حول قتل النفس ، وهو جريمة لاربيب في ذلك ، ولكننا نقول مع أن القرآن ذكر كثيرا من الجرائم ناهيا عنها ، إلا أنه لم يختص جريمة في النهى عنها بهذه الصورة من أسلوب التحاور إلا جريمة القتل ، لأنها أبشع الجرائم بعد الكفر ، وما عداها

من صور العدوان ، إنما هو عدوان جزئى ، على المال أو العرض ، ويبقى مع ذلك المعتدى عليه ، أو تبقى بقية من الشيء المعتدى عليه ، أما القتل فهو إبادة للمعتدى عليه كله ، بالإضافة إلى أن المعتدى عليه فى حالة القتل وهو الإنسان ، يتميز بقيمة خصه الله بها ، لا يحظى بها مخلوق أرضى آخر ، ولذلك نجد القرآن الكريم ينذر القاتل بأنواع متعددة متوالية من العقاب ، لانراها فى جريمة أخرى ، كقوله تعالى ( ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما <sup>(١)</sup> ) فالعقاب جهنم ، ثم الخلود فيها ، ثم غضب الله ، ثم لعنته ثم عذاب عظيم غير محدد ، للنفس أن تتصور من هؤلاء مانشاء ، وإذن فقتل النفس جريمة ليست ككل الجرائم ، ولذلك جاءت فى أسلوب التحاور .

وليس موضوع المحاور شيئا من الأسباب نشأت بين ابني آدم فادت إلى هذه الجريمة ، فهما لم يتخذا الأسباب مجالا للتحاور ، وإنما بدأ حوارهما هنا عندما بدأت مراحل جريمة القتل ، وأولاهما العزم . وإذا كنا ألفنا فى المحاورتين السابقتين أن يكون المؤمن هو الذى يشير موضوع المحاور ، بوصفه داعيا إلى هذا الموضوع فإن المثير للموضوع هنا هو المجرم الذى بدأ الجريمة من أولى مراحلها .

### ٣ - موقف الظالم :

وموقف الظالم كان نفسيا أوضح منه كلاميا ، بمعنى أنه لم يعتمد فى موقفه على الكلام ، وإنما اعتمد على نوازع نفسه ، وقد

(١) الآية ٩٣ سورة النساء .

تركزت نوازمه فى الحسد الجامح العنيف الذى اجتاحت نفسه ، وسيطر على كل مشاعره ، بل وعلى كل تفكيره وقد تمثل هذا فى هذا المعنى ( إذ قريبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ) وكان الظالم هو الذى لم يتقبل منه قربانه ، فكانت نوازع نفسه هى الصاخبة الدافقة ، وأما كلامه ، فقد حده فى قوله لأخيه المظلوم ( لأقتلك ) دون أن يعلل هذا القرار بأى تعليل ، ولو كان تضليلا أو مغالطة عقلية كما يلجأ بعض أصحاب الباطل .

وإذا كنا لمسنا فيما سبق أن اللجوء إلى العدوان إنما يكون عندما يشعر أحد الطرفين بالعجز العقلى ، أو عند الشعور بالهزيمة ، فهذا ليس استنتاجا خاصا بموقف معين ، بل يمكن أن يقال إنه حكم عام ، هو أن الذين يلجأون إلى العدوان ، إنما يدفعهم إلى ذلك شعور من نحو ماسبق ، إحساس بالهزيمة أو عجز عن التمكن من الحق ، فيلجأ إلى العدوان وبذلك ندرك أن العدوان مظهر ضعف ، أعنى نابعا من ضعف ، وليس مظهر تمكن أو قدرة ، والعدوان بطبيعة الحال مدلوله غير مدلول القوة ، فإن القوة فضيلة تنبع من نزعة خير ، أما العدوان فهو رذيلة تنبع من نزعة شر .

وينطبق هذا أيضا على الموقف هنا ، فمن الواضح أن عدوانه على أخيه دون حق جريمة ، وقد نبعت هذه الجريمة من نزعة شر ، هى حسده لأخيه على ما أنعم الله عليه به دونه ، وحرمانه من هذه النعمة يولد لديه إحساسا بالعجز ، أو الهزيمة بالقياس إلى أخيه الذى يتوهم هو أنه منافس له ، ولو كان هذا الظالم حظى بهذه النعمة لما فكر فى الجريمة ، لأنه لو حظى بها كان سيشعر بالتفوق ، أو عدم

الهزيمة ، فليس لديه حينئذ دافع إلى الجريمة أو العدوان . وإذن فالعدوان عامة ، ومنه كل صور الجرائم ، إنما ينبع من شعور بالعجز أو الهزيمة أو الفشل بصفة عامة ، وليس العدوان مظهر قوة كما يوحي بذلك ظاهر الأمر .

وكما كان يفعل محاورو نوح وشعيب فيما رأينا ، من لجوئهم إلى العدوان حينما يحسون الهزيمة في المحاوراة كذلك فعل قابيل الظالم ، حينما أحس بالهزيمة أمام أخيه مرتين ، صمم على قتله ، مرة حينما حظى بنعمة لم يحظ هو بمثلها ، ومرة عندما تقبل الله قربانه ولم يتقبل قربانه هو ، وصاغ هذا التصميم في هذا التأكيد الجازم ( لأقتلنك ) ولم يقتل غير هذه الكلمة ، لأن نفسه لانهل حينئذ إلا هذا التصميم ، ولم يعقب على هذا العزم بأى تحليل أو حجة ، لأنه لاحتاجة ولا منطق له ، ولأنه هو في مثل موقفه الذى يعاني الشعور بالحرمان من بلوغ الهدف ، وهو ما يسميه علماء النفس بالإحباط وهو أن يوجد عائق أو مانع يحول بين الإنسان وبلوغ ما يريد أن يحققه ، كأن يحول شخص بين شخص آخر وبلوغ أمنية كان في سبيله إلى تحقيقها ، وعلماء النفس يلحظون أن هذا الشخص المتنوع تسيطر عليه انفعالات شديدة التأثير ، فإذا تمثل هذا الانفعال في غضب فقد يدفع صاحبه إلى ارتكاب أى شيء ، كما يرى في تحطيم الطفل حينئذ ما يستطيع تحطيمه تحت وطأة هذا الانفعال وإذا تمثل انفعاله في شعور بالفشل ، فقد يصاب هذا الشخص أحيانا بأمراض نفسية أو عضوية لحدود لها .

وفي حالة قابيل هذه يمكن أن نقول إنها نوع مما يتحدث عنه

علماء النفس عن الإحباط ، فسيطر عليه هذا الشعور الغاضب ، فأطلق نفسه على طبيعتها الحيوانية مصمما على تحطيم العقبة التي ظننها حالت بينه وبين اتجاهه ، وكانت العقبة في نظره أخاه هابيل فصمم على تحطيمها ، ولم يكن لديه رادع لامن العقل ، ولامن الإيمان ، وهما السياج الذي يكبح جماح النفس الأمارة بالسوء ، ويحول دون انطلاق الغرائز في طابعها الحيواني ( فطلعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ) .

#### ٤ - موقف المظلوم :

ولكن المظلوم كان يمثل الخير في موقفه . وإذا كان أخوه الشرير قد أطلق حيوانيته على سجيتها دون رادع من عقل أو إيمان ، فإن الأخ الخير قد اعتصم بعقله وإيمانه كليهما في معالجة الموقف ، والموقف واضح مما سبق ، فأخوه مصمم على قتله ، وعليه هو أن أن يحدد موقفه . مع مراعاة أن الموقف انحصر في القتل بالذات ، وليس هناك موقف وسط ، فالأخ الشرير مصمم على القتل تصميا لارجعة فيه ، وأصبح الآخر بين أمرين لاثالث لهما ، إما أن يقتل هذا الشرير ليبقى على حياة نفسه ، وإما أن يستسلم له فيقتله ، وإذا ذهبنا نستوضح موقف هذا الأخ الخير نلمح فيه مايلي :

١ - كان يشعر بأنه يستطيع أن يقتل أخاه لو أراد ، ولكنه يأنى ذلك ، وليس للمهم أنه كان يستطيع فعلا أن يقتله أو لا يستطيع إنما المهم أنه كان يشعر باستطاعته ، ويجد في نفسه القدرة على ذلك ، والإنسان عادة لا يستقر في نفسه هذا الشعور إلا إذا كان نابعا من قدرة حقيقية ، وقد عبر هابيل عما في نفسه من هذا بقوله

( لكن بسطت إلى يدك لتقتلني ماأنا بباسط يدي إليك لأقتلك إلى  
أخاف الله رب العالمين ) ولو لم يكن شاعرا بقدرته ماقال له ( ماأنا  
بباسط يدي إليك لأقتلك ) .

٢ - لجأ هابيل إلى عقله ليحاور أخاه الباغى بالحجة والمنطق ،  
فراجع معه أولا السبب الذي يدعوه إلى قتله ، والسبب الظاهر  
أو المباشر هو عدم تقبل قربان قابيل مع قبول قربان الآخر ، أما  
الأسباب البعيدة فالمنطق لا يقتضى المحاوره فيها ، لأنها غير معروضة  
للمحاوره من جهة ، ولأن الخصم قد ينكرها من جهة أخرى ، فيقول  
هابيل لأخيه محاوراً : إذا كنت تتخذ من عدم قبول قربانك حجة  
لقتل ، فهي حجة باطلة لسببين أحدهما أن القبول وعدمه ليسا  
بيدي ، بل بيد الله ، والآخر أن الله لا يتقبل القربان إلا من له  
صفات معينة من التدين ، فكان أولى بك بدل نعمتك على ، أن  
تعنى بأمرك مع الله ، فتصلح ما فسد من شأنك ، وحينئذ لن تجد  
في نفسك شيئاً مما تنقم ، وقد تمثل هذا في قوله ( إنما يتقبل الله  
من المتقين ) ولو كان أخوه مستخدماً عقله لتدبر في هذا وتروى ، ولكنه  
كان قد أغلق عقله لإغلاها .

٣ - لجأ هابيل إلى إيمانه ، وكأنه يقول لأخيه ، إذا كنت  
قد أغلقت عقلك عن الحق ، وإذا كنت تدفعني إلى الجريمة ، لأحاول  
قتلك كما تفعل أنت ، فإني وإن كنت مستطيعاً ، فإن هناك ما يمنعني  
وهو الخوف من الله ربى وربك ( إلى أخاف الله رب العالمين ) وإذن  
فقد احتسب هابيل بالعصامين اللذين كان يفتقدتهما أخوه ، وهما  
العقل والإيمان ، حيث كان كل منهما كافياً للامتناع عن الجريمة ،



ولو استخدم قابيل عقله ، حتى ولو بغير إيمان أقدم على قتل أخيه  
ولو كان لديه إيمان فلن يقدم على الجريمة مهما صغر تفكيره .

#### ٥ - النتيجة :

وحيثما وجد المؤمن الخير نفسه بين أمرين لاثالث لهما ، إما أن  
يغضب الله فيرتكب أبشع جريمة ، وإما أن يموت مظلوما ، أثر  
أقربهما إلى الله ، فاستسلم للموت ، بينما مضى أخوه الشرير فأنفذ  
عزمه ، وقتل أخاه ( فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ) ولفظ  
( طوعت ) يوحي بأنه كان يشعر بعظم الجريمة ، وأن قتل أخيه  
أمر صعب ، ولكن نفسه زينته له ذلك ويسرته في خياله ، والتعبير  
بالفاء في العطف هنا ، يوحي بتلاحق المشاعر في نفس هذا الشرير  
في سرعة وعجلة ، لا يراها السرعة الزمنية ، وإنما يراها عدم وجود  
فاصل للتروي والتدبر ، نتيجة لأنه لا يستخدم تفكيره ، فكان  
المشاعر والأحداث تتتابع في عجلة وتلاحق ، لا يفصل بينها أى  
تفكير أو تدبر .

ولكننا نستطيع أن نلمح هنا تطبيق شيء مما سبقت الإشارة  
إليه. من أن أهم الدوافع إلى العدوان الشعور بالمعجز أو القشل أو نحوهما  
من نواحي الشعور بالضعف بصفة عامة ، كما رأينا في موقف قابيل  
الذى دفعته هذه المشاعر إلى عدوانه على أخيه ، بينما كان أخوه  
الواثق من قوة موقفه في الحق وفي الإيمان على هذه الدرجة من كراهية  
العدوان .

## ٦ - العقاب :

ولقد كان هابيل المظلوم بعيد النظر حينما توقع لأخيه عقابا مضاعفا إن أقدم على هذه الجريمة ، فهو يقول له عندما وجده مصمما على القتل ( إني أريد أن تبوء بيأثي وإثك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ) وتبوء معناها تحمل ، وبما يلفت النظر في تعبيره لفظان ، أحدهما « أريد » والآخر الجمع بين ( بيأثي وإثك ) فأما لفظ أريد فهو ينبئ عن أن هابيل لم يظهر لأخيه الظالم صفحا ولا عفوا عن هذه الجريمة ، وهو بطبيعة الحال معذور ، فان العفو إنما يتصور فيما هو دون الحياة ، أما حياة المرء نفسها فمعهذ عنها غير متصور ، وقد يقال لعل في إظهار عدم العفو زيادة تنفير لأخيه عسى أن يمتنع عن القتل ، وقد يقال إن هابيل كان بين أمرين اثنين ، إما أن يقتل ، وإما أن يترك أخاه يحمل وزر القتل ، فاختار أيسر الأمرين له ، فليس المعنى إني أرغب في أن تحمل ذنبا ، ولكن المعنى ، إذا لم يكن بد من أن أختار بين الأمرين ، فإني أختار أن تكون أنت الحامل لهذا الذنب لأننا ، قد يقال هذا ، وقد يقال بل هو استمرار للخصومة والمحاورة بينهما ، وكل خصم من شأنه أن يبتغي النصر والتفوق على خصمه ، فكأن هابيل حين أعجزه النصر على قاتله في الدنيا ، أراد أن يبين لأخيه أنه هو الفائز في الآخرة برضا الله وثوابه ، وأن أخاه هو الخاسر المذهب في الآخرة .

كل ذلك غير بعيد في الاحتمال ، ولكن شيئا منه لا يغير من طبيعة المحاورة وأهدافها ، فان المحاورة تتركز على تصوير موقف الخير في جانب الأخ المظلوم ، وموقف الخير يتمثل في رفضه ارتكاب

الجرمة البشعة ، ومغاضبة الله ، ولو أدى ذلك إلى الموت ، بصرف النظر عن أنه يحمل لأخيه ودا أو سخطا ، أو شيئا من الاحتمالات السابقة ، وموقف الشر في جانب الأخ الظالم ، ويتمثل في قتل نفس بغير حق ، وهو أبشع جريمة بعد الكفر . وإذن فليس هناك ما يمنع من بعض هذه الاحتمالات ، مادامت لاتعارض طبيعة المحاورة. وأهدافها

ولكن المعنى الأهم هو أن ما انصبت عليه إرادة هابيل لادخل له فيه ، فإن قوله إني أريد أن تتحمل الذنوبين أو أن تعذب لادخل لهابيل فيه ، وإنما هو عقاب متوقع لكل من يرتكب هذه الجريمة ، سواء أراد ذلك هابيل أولم يرد ، لأن هذا العقاب نتيجة طبيعية للجريمة ، وليس مرتبطا بإرادة المقتول . بمعنى أنه حتى لو لم يرد المقتول ذلك أولم يتوقعه ، فله أي العقاب واقع بالقاتل .

وهذا مما يوجبه لفظ ( أريد ) وأما ما يوجبه الجمع بين ( بإثم وإثمك ) في قوله ( إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ... ) فإن المفسرين يرون فيه معنى أنك ستحمل ذنب قتل ، وتحمل أيضا ذنبك الذي من أجله لم يتقبل قربانك .

ولكننا نستطيع أن نلمح في هذا التعبير ما هو أوسع من ذلك وأعمق ، حيث يمكن أن نفهم الجمع بين لإثم وإثمك على أنه رمز لتعدد أنواع العقوبة ، وتعدد مصادرها ، ليشمل التعبير كل أنواع العقاب ، ثم نبحث عن أنواع العقاب التي تنتظر هذا القاتل . وما يبدو واضحا من أنواع عقابه :

### ( ١ ) عقاب الدنيا :

وهو العقاب العاجل الذى يبتلى به القاتل ، وبخاصة قاتل ذى الرحم ، وأول ما ينصب على القاتل حينئذ الشعور بالندم شعوراً مسيطراً رهيباً ، يملك على القاتل كل مشاعره ، فيحيل نهاره إلى هم دائم ، وليله إلى أرق ثقيل بغيض ، ومن الحكم القديمة أنه ما غمس إنسان يده فى دم ذى رحم إلا سلب عليه الندم والأرق ، وهو شعور لا تعبر عنه الألفاظ كل التعبير ، لأنه أوسع وأكبر من معنى الندم ، بمعنى عدم الرضا عن فعل سابق ، وإنما هو شعور يصاحبه عذاب وألم نفسى شديد الوطأة على صاحبه ، حتى إنه قد يؤدى بصاحبه إلى حالات من الجنون والأمراض النفسية والعصبية المختلفة وقد لاحظ كثير من ذلك علماء النفس ، وأفاض فيه كثير من كتاب القصة العالميين ، مصورين العقاب النفسى الألم ، الذى يعانيه القاتل بعد ارتكابه الجريمة ، من الندم والخوف ، والشعور بالمطاردة ، والشعور بالذنب ، كمن قتل ذى الرحم يتميز بدرجات مهولة من هذا العذاب النفسى الرهيب الذى يشار إليه فى الآية الكريمة بهذا التعبير ( فأصبح من النادمين ) والتعبير بالنادمين بلفظ الجمع ولفظ ( من ) المفيدة للتبويض فيه إشارة إلى أن هذا الندم ليس خاصاً بقاتل معين ، وإنما هو عقاب عام لكل من يرتكب هذه الجريمة ، وليس قابيل إلا واحداً ( من النادمين ) الذين فعلوا مثل ما فعل .

ومن أنواع العقاب الدنيوى التى انصبت على قاتل أخيه الشعور بالخسران ، فلنا أن نتصور مدى حاجة الأخ إلى أخيه ، وبخاصة فى

بدء الخليقة البشرية ، حينما كان الإنسان يصارع كل شيء في سبيل الحياة ، ويتدرج في تعلم بدهيات الحياة في نظرنا نحن ، ليتعلم كيف يعيش ، وكيف يحافظ على حياته ، وعلى عيشه معاً بين مخلوقات أخرى يزاحمها وتزاحمه العيش ، وما زال في يده خبرته بالحياة ، لم يعرف بعد طبعاتها وأسلوب عيشها ، وإذا كنا نحن نعرف أن الأسد حيوان مفترس ، وأن الطيئ غير مفترس ، وأن الأفعى ذات خطر ، وهكذا ، فذلك إنما توارثناه عن خبرة أجيال كثيرة ماضية ، أما الآدميون الأولون ، فلم يكونوا بداعة قد خبروا شيئاً من طبائع هذه الحيوانات بعد ، وكذلك خبرتهم بكل وسائل المعيشة والحياة ، فحاجة الفرد منهم إلى أخيه آدمي ذات أهمية كبرى ، لأنها تتعلق بمعيشته وحياته ، ليكونا معاً عوناً على مايلقيانه ، والدليل على أن هابيل وقابيل - إن كان أسماهما كذلك - من الآدميين الأوائل ، أن القاتل منهما لم يكن يعرف كيف يدفن جثة أخيه .

وإذن فمن اليسير تصور مدى شعور القاتل بفداحة خسارته ، حين يذهب عنه انفعاله الذي أدى به إلى الجريمة ، وذلك فور رؤيته القاتل جثة هامدة ، فحينئذ يبدأ التفكير في الخسارة ، وفي مواجهة الأعباء وحده ، وما إلى ذلك مما يتطوى تحت تعبير ( فأصبح من الخاسرين ) والتعبير في ( من ) والجمع في ( الخاسرين ) يشير أيضاً إلى مثل مايشير إليه تعبير ( من النادمين ) من أنه عقوبة عامة لكل من يقتترف مثل هذه الجريمة ، وليس عقاباً خاصاً بقاتل معين .

وما يزيد في شعور قابيل بالخسران أن السبب الوحيد في قتله

أخاه - كما حدده القرآن - هو تقبل الله سبحانه لقربان أخيه ، وعدم تقبله لقربانه هو ، فامتلات نفسه حسداً ، لتنعم أخيه برضا الله ، وحرمانه هو من هذه النعمة ، وبطبيعة الأمر ، سينظر بعد قتله أخاه ، فإذا هو أشد حرماناً من رضا الله لأنه أصبح مجرمًا ، وإذا كان قد رأى نفسه خاسراً قبل القتل ، فإنه بعد القتل أشد خسرانا .

وما انصب على قابيل من الآلام النفسية أنه لم يكن قد عرف الموت ، وما يترتب عليه مما يفعل بالميت ، فسيطرت عليه الحيرة من كل وجه ، ماذا يفعل بأخيه وقد أصبح كومة لحم أمامه؟ إنه لا يحمل له اليوم ضغينة ، فقد أذهب الموت والآلم والندم كل ما في نفسه من غل وحقد ، فكيف يتركه؟ ، إنه لا يستطيع ، وكيف تسبغ نفسه أن ترى الطير تحوم حول لحمه لتأكل منه ، أو نحو ذلك؟ ، كل هذا زيادة لإيلام له ، وكل هذا يزيده تشبثاً بملازمته ، ولكن الآلم يزداد ، والحيرة تشتد ، ولا حيلة له ، ويترنم الله في هذا العذاب وهذه الحيرة ماشاء أن يتركه ، حتى يقيض له غرابين يقتتلان على مرأى منه ، حتى يقتل أحدهما الآخر ، وهو متابع لما يحدث ، وإذا القاتل يحضر في الأرض فيواري نجية القتيلى ، وإذا قابيل يزداد شعوراً بالهوان وشعوراً بالجهل ، كيف يكون هذا الحيوان الأعجم خيراً منه تفكيراً وتديباً؟ ، فتمتلىء نفسه إحساساً بالنقص والمعجز ، ويجتر بعض هذا الآلم على لسانه قائلاً ( ياويلتنا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى ) ،

ويتضح التركيز على إحساسه بالنقص ، في اتصبا ب الاستفهام  
التقريعى أو التهكمى على المعجز ( أعجزت ... ) ،  
على أننا نلمح من معانى الإيلام فى نفسه ، وضوح معنى الآخرة  
فى نفسه ، حيث يعبر بهذه الإضافة البالغة التأثير حينئذ ، بلفظ  
( أنهى ) فى قوله ( فأورى سواة أنهى ) .

#### (ب) عقاب الآخرة :

وكل هذه الأنواع السابقة من عذاب الدنيا لم تكن فى حساب  
هابيل للقتول ، فانه إنما توقع له أنواعا أو درجات من العذاب فى  
الآخرة ، حين قال له ( إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من  
أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ) وإذن فهذه الأنواع من عذاب  
الدنيا على فداحتها ليست هى العذاب الأشد ، إنما العذاب الأشد ،  
الثابت الذى لا محيص عنه ، هو عذاب الآخرة .

ولذلك نجد القرآن الكريم فى موضع آخر ، يصف عقاب  
القتل المحرم عامة بقوله ( ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم  
خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما <sup>(١)</sup> ) فلتنظر  
إلى هذه الأنواع ، وهذه الدرجات من العقاب ، فالجزاء أولا جهنم ،  
وهو جزاء كاف شديد لأى جريمة ، ولكن القتل يزيد فوق ذلك ،  
الخلود فى جهنم ، ثم غضب الله ، ثم لعنته ، ثم عذاب عظيم آخر  
لاتدرى ماهو فى الدنيا أو الآخرة ، وفى إطلاقه أو عدم تحديده معنى  
كبير من التخويف والترهيب ، نقول إن هذا كله عقاب للقتل العادى ،

(١) الآية ٩٣ سورة النساء .

ولكن قتل ذى الرحم درجة أبشع في الجريمة ، وبالتالي فان عقابها أشد لإيلاها في الدنيا وفي الآخرة .

#### العبرة :

وقد أصبحت النفوس مهيأة لتلقى العبرة التي سيقف المحاور من أجلها ، وهي بيان بشاعة جريمة القتل ، والتنفير منها ، فالمحاورة تضمنت ذلك خلال سرد أحداثها ، ووضح في نفس السامع أن القتل جريمة بالغة النكر ومع أن ذلك جاء في سياق قصة منسوبة إلى شخصين معينين ، ليكون التشويق إلى سماع القصة زيادة في ترسيخ المعنى في النفوس ، إلا أن المراد بيان حكم قتل النفس وبيان بشاعة جرمه للناس عامة .

وبعد نهي النفوس بهذا الأسلوب الشائق ، تأتي العبرة المستهدفة ( من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً .. ) فلا يباح قتل النفس إلا بسبب يستوجب قتلها ، من قصاص أو منع إفساد ، أما قتلها بغير حق فهو إهدار وعدوان على الآدمية من حيث هي ، لأن الفرد رمز للبشرية كلها ، وقتله إهدار للبشرية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان من يجرؤ على قتل فرد ، يهون عليه أن يقتل أي فرد آخر فكأنما قتل الناس جميعاً ، ويقابل هذا أن من يتسبب في حياة آدمي بإتقائه من الموت فكأنما أحيا الناس جميعاً .

وليس فيما عرفته البشرية قط تكريم للإنسان كهذا التكريم ،



الذى يجعل الفرد الواحد مهما صغر شأنه مايساوى به الناس جميعا سواء فى حياته وفى موته ، وهذا المعنى فى الواقع هو محور النتيجة والعبرة من المحاوره كلها ، فتكريم الإنسان وحرمة حياته هو صلب الهدف ، ومن آثار هذا التكريم وهذه الحرمة أن قتل الفرد كقتل الناس جميعا ، وإحياءه كإحياء الناس جميعا

وقد يقال : فيالام يشير ذكر بنى إسرائيل فى هذه النتيجة ؟ ، والجواب أنه ليس المراد تخصيص بنى إسرائيل بهذا الحكم ، بل هو حكم عام للناس جميعا ، وأما ذكر بنى إسرائيل فيمكن أن نفهم منه أحد أمرين ، إما أن الكتب السماوية كانت فى بنى إسرائيل ، لأن داود وموسى وعيسى عليهم السلام كلهم من بنى إسرائيل ، فإذا فهمنا الكتابة على بنى إسرائيل بمعنى تسجيل هذا الحكم فى الكتب السماوية المنزلة ، فهو تقرير للواقع ، بمعنى نزلنا هذا الحكم فى الكتب السماوية وهذا هو المعنى التشريعى المقصود ، ثم ذكر بنو إسرائيل لأنهم هم الذين أنزلت فيهم الكتب السماوية السابقة ، وليس المراد أنهم حصوا بهذا الحكم . وإذا فهمنا الكتابة بمعنى الحكم الدينى ، فالأمر لا يختلف ، لأن المعنى سيكون حينئذ : أنزلنا هذا الحكم ، والأحكام تنزل على الأنبياء ، والأنبياء معظمهم فى بنى إسرائيل . فهذا الحكم نزل على أنبياء فى بنى إسرائيل .

والأمر الآخر الذى يمكن أن نفهمه من ذكر بنى إسرائيل ، أنهم العنصر الذى عرف بنزوعه إلى العدوان ، والميل إلى سفك دماء الآخرين ، حتى إنهم قتلوا كثيرا من الأنبياء . وقد سجل عليهم القرآن الكريم النزوع إلى العدوان والقتل فى أكثر من موضع ،

كقوله تعالى ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ) (١) وقوله تعالى ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ) (٢) وقوله تعالى ( لِيُنْذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ) (٣) ونلاحظ أن وصفهم بالعدوان تصاحبه في كل مرة صيغة الفعل المضارع . التي تفيد تجدد العدوان واستمراره بخلاف ما لو كان التعبير مثلاً : كانوا من المعتدين .

وحيث انفرد بنو إسرائيل بوصفهم عنصريا ومجموعا بهذه الصفة ، أي صفة الميل إلى العدوان وسفك الدماء ، كان من المناسب أن ينصب هذا الحكم عليهم أساسا ، ثم يسرى تبعاً على كل من يفعل ذلك من سائر الناس ، والتقييد بوصفهم عنصريا ، لأن الميل إلى العدوان والقتل لا يخلو منه مجتمع ، ولكنه يكون عادة في أفراد وليس في جماعات أو سلالات ، كما هو الحال في بنى إسرائيل . وأما أن قتل النفس يساوى قتل كل الناس في الحكم ، فيعبر عنه بعض المفسرين بأنه لو قتل الناس جميعا فلن يزيد جزاؤه عن جزاء قتل النفس الواحدة من العذاب (٤) وكذلك في القصاص لو قتل الناس جميعا فلن يزيد حكم القصاص عن حكم قتل النفس الواحدة .

(١) من الآية ٦١ سورة البقرة .

(٢) من الآية ١١٢ سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧٨ سورة المائدة .

(٤) انظر تفسير الكشاف للزمخشري .

ومع ذلك كله ، فهذا الحكم إنما يراد به زيادة التكريم للادنى وزيادة التنفير من دمه ، وليس هذا هو المعنى الوحيد لتكريم الإنسان في القرآن الكريم ، بل هو متعدد ؛ كقوله تعالى ( وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا <sup>(١)</sup> ) .

ومما يدل على أن هذا الحكم ديني روحي ، يراد به تقوية النزعة الدينية في النفوس ، في حفزها إلى تكريم الإنسان ، وإلى النفور من دمه ، إن ألفاظ الآية كانت بالغة الدقة ، ومن هذه الدقة التعبير بلفظ كَانَ ( فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسُ جَمِيعًا ) فهذا اللفظ يمنع أن يكون الحكم للتشريع في الدنيا ، لأن الأحكام التشريعية قاطعة ، ولا تدخل فيها حروف التشبيه أو نحوها .

(١) الآية ٧٠ سورة الاسراء .

## ٤ - فى السياسة

بسم الله الرحمن الرحيم

( اذهب بكتابي هذا فآلقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ، قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتوني مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتوني فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تعلمين ، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة بهم يرجع المرسلون (١) .

جوانب المحاوره

١ - الملابس :

هذه المحاوره جزء من قصه سليمان عليه السلام مع ملكه سبأ ، وموجزها مما ذكره القرآن الكريم ، أن سليمان آتاه الله مع النبوة ملكاً لم يتح لغيره ، حتى حكم الإنس والجن والطير والحيوان ، فاقتقد الهدهد ذات يوم فلم يجده ، فتوعده ، ولكن الهدهد جاءه بخير عظيم الأهمية ، إنه فى رحلته أتى غاب فيها حتى وصل إلى

(١) الآيات ٣٨ - ٣٥ سورة النمل .

سبأ في اليمن ، وجد هناك قوما يعبدون الشمس مع ملكتهم بلقيس ذات الملك العظيم .

فأمره سليمان أن يلعب بكتابه إليهم ، فلعب وألقى الكتاب على الملكة ، فجمعت ذوى الرأى والمستشارين ، لتشاورهم في هذا الموقف الخطير ، كما سنرى في بسط المحاوراة التي انتهت بآنها قررت أن ترسل إليهم هدية عظيمة ، لتتبين هل سليمان نبي أم مجرد ملك ، ولكن سليمان رد الهدية والرسول ، مبينا لهم أنه لا يبتغى منهم عرض الدنيا فلديه منه أكثر مما لديهم ، وإنما يبتغى منهم الإيمان بالله الواحد . ثم انتهت القصة بتقديم بلقيس على سليمان ، وإسلامها معه لله رب العالمين .

## ٢ - موضوع المحاوراة :

والموضوع معالجة موقف خطير طارىء ، هو مضمون كتاب سليمان إلى بلقيس وقومها ، وسليمان كان حينئذ بالإضافة إلى النبوة أعظم ملوك الأرض ، ومن البلدى أن شهرته تطبق الآفاق ، وأن بلقيس ومستشاريها اللذين جمعتهم يسمعون به وبملكه العظيم ، ولذلك حينما تحدثت عنه إليهم ، لم تحتاج إلى تعريف به ، وإنما اكتفت بمجرد ذكر اسمه ، وقد كان مضمون كتاب سليمان على إيجازه بالغ التأثير ، بما يتضمن من إظهار لقوة سليمان وتمكنه من القدرة على من وجه إليهم الكتاب ، والكتاب كله ( بسم الله الرحمن الرحيم أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوْا مُسْلِمِينَ ) فهو يحذرهم من محاولة الاحتماء في أى قوة أو غرور ، فإن ذلك لا يحصمهم من قبضته ،

ويطلب منهم أن يأتوا إليه طائعين مستسلمين ، وهذا غاية الاحتداد بقوة النفس ، والتمكن من الخصم ، حيث لم يقل لهم استسلموا حينما آتيكم بقوة ، وإنما يلزمهم أن يسوأمهم إليه منقادين ، وللفظ مسلمين محمول على الاستسلام والخضوع وليس الايمان ، ويرجع هذا اضافة الايمان إلى سلبان لا إلى الله .

ولو كان يطلب منهم مجرد الايمان والاسلام لله ، لم يكن في حاجة إلى أن يطلب منهم الايمان إليه ، لأن الاسلام لله يتحقق في أى مكان .

وهذا هو الموضوع الذى تتحاور فيه الملكة مع مستشارها وقادة قومها وواضح أنه أمر في غاية الخطورة ، ملك عظيم القوة يهددهم ، وهو قادر على التهديد ، ويطلب منهم ما فيه إذلال للملكهم ، وهو أن يسمى إليه قادتهم وأولو الأمر فيهم بأنفسهم خاضعين مستسلمين

٣ - طرفا المحاوراة :

وأما طرفا التحاور فقد كان أحدهما الملكة ، والآخر السادة والمستشارون ، وينبغى أن نلم بشئ من التصور لكل من الطرفين ، حتى يكون متبع التحاور واضحا في الأذهان ، ومتبع التحاور هو ذات كل من الطرفين ، في شخصه ، وفيما يملك من شئون يرتكن إليها ، وبيان هذا الجانب ذو أهمية ، فأسلوب المحاوراة صورة للمحاور ، وحينئذ نتبين من خلال حديث القرآن عن الطرفين مايلي :

#### (١) فاما الملكة :

وهي الطرف الذى يتولى عرض المحاوراة ، فنجد لها وصفا دقيقا

في التقرير الذي قدمه إلى سليمان طبيعته ، وهو الهدهد . فهذا التقرير ( إِيٌّ وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . . ) على إيجازه يتضمن كل ما يقتضى الحال معرفته عن الملكة ، حيث نجد فيه ثلاثة جوانب :

١ - أولها وصف شخصيتها بالقوة والتمكن في الملك والحكم ، وهذا واضح في قوله ( وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ) فكان أول وأبرز ما وجدته ولفت نظره في هذه الملكة ، هو شخص هذه الملكة ، ولذلك اتصب عليها الفعل ( وَجَدْتُ امْرَأَةً ... ) وهذا بخلاف ما لو قال مثلاً وجدتهم تملكهم امرأة ، فإن مثل هذا التعبير يوحى بالتهوين من شأنهم ، ولا يشير إلى تعظيم الملكة ، أما التعبير الذي تضمنه تقرير الهدهد فإنه إذا تأملناه نجده يوحى بتعظيم شخصية الملكة ، ومع ذلك لا يقلل من شأن قومها .

٢ - وثانيها وصف ملكها بالقوة والرق بأقصى ما يتحبه الفهم لهذين المدلولين : فأما قوة الملك فتتمثل في أنها ( أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ) فالملكة التي تحوى كل شيء لا يد وأن تكون بالغة القوة والمجد . حتى إنها نافست في ذلك وصف سليمان للملكة في قوله ( وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ) وإن كان الأمر نسبياً ، حين تقاس ملكة صغيرة ، إلى ملك واسع ، متعدد الأنواع والأجناس ، فليس ما يمنع من أن يكون الوصف واحداً ، ولكنه يفهم فهما نسبياً .

هذا عن قوة ملك بلقيس ، وأما عن رقي هذا الملك ، وما اشتمل عليه من حضارة ، فيتمثل في قوله ( وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ) فعظمة العرش ،

من حيث إنه كرسى ، توحى برقى الصناعة ، وسمو الحضارة ، وهذا الجانب غير مرتبط بقوة الملك وعظمته ، فقد تكون هناك مملكة قوية شاسعة الأرجاء ، ولكنها ضعيفة الصناعة ، غير ذات قدم فى الحضارة ، كأن تكون دولة محدثة . ولكن مملكة سبأ جمعت بين الأمرين ، قوة الملك ، والرقى فى الصناعة والحضارة ، وهذا يقره التاريخ .

وقد يقال كما تساءل فى ذلك المفسرون : كيف يوجد لدى بلقيس وهى دون سليمان ملكا عرش لا يوجد مثله فى العظمة لدى سليمان ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك بما سبقت الاشارة إليه الآن ، من أنه لا ارتباط بين عظمة الدولة ، وعظمة الصناعة فيها ، فقد تكون هناك دولة محدثة ، أتاحت لها ظروف طارئة مكنتها من مقاليد القوة ، ولكنها لكونها محدثة أصبحت غير ذات شأن فى الصناعة وما يتعلق بها ، فإن الصناعة لا تتكون فى الشموب طفرة واحدة ، وإنما تكون نتاج أجيال ومراحل من التدرج والتجارب حتى تبلغ مرحلة النضج ، وهذا واقع مشاهد ، نلمسه فى أمم العالم اليوم ، فهناك أمم أقل من غيرها بكثير فى الكيان السياسى والعسكرى ، ولكنها أشهر من غيرها بالصناعة ، أو ببعض أنواع الصناعة . لعراقتها فى ذلك ، بينما بعض الأمم البالغة القوة ، نجدها دون غيرها فى الصناعة ، لأن القوة لا تحتاج إلى عراقة ، بل يكفى أن تتاح لها بعض الركائز ، كالتفوق العسكرى أو الاقتصادى ، لتبلغ ما يشاء الله لها أن تبلغ ، فيمكن أن نتصور ملك سليمان مهما بلغ من القوة والشمول والتفوق خاليا من عظمة الصناعة لأنه ملك



حديث مرتبط. بشخصه هو ، وليست له عراقة بعيدة تتيح للصناعات التدرج والنمو في ظلها ، أما مملكة سبأ فلم تكن وليدة حكم بلقيس ، وإنما كانت بلقيس في ملكها سليله ملك عريق ، وليس الذي يعنينا هنا أجداد بلقيس الذين يبلغون أربعين ملكاً فيما تذكره الروايات بل لاعتنينا في هذا المعنى بلقيس نفسها وإنما يعنينا أن الحضارة في أرض سبأ عريقة ، من شأنها أن تنمو وتتدرج في ظلها الصناعات التي كان عنوانها عرش بلقيس الذي شهد له أعداؤه بالعظمة في صناعته ، بينما لم يكن ملك سبأ بهذه العراقة ، وإنما كان قصير الجدور ، وكانت عظمته وليدة حكم سبأ ، فلم يتح للصناعات البشرية فيه ما يتيح للصناعة في مملكة سبأ ، وإنما قلت الصناعات البشرية ، لأنه أتيح للملك سبأ من صناعة الجن ما أهمل العقول ، كصرح القوارير ، وكذلك ما كان يصنعه الجن من مختلف الصناعات ٣ - وثالث ما تضمنه تقرير الهدد عن الملكة وصف الحالة الدينية لها ولقومها ، وهو في الواقع إشارة إلى وصف حياتهم من عدة نواح ، فإن العقيدة من شأنها أن تؤثر في أغلب نواحي الحياة ، ونجد أكثر جوانب الحياة في أي مجتمع تابعة من الدين ، إما بطريق مباشر ، وإما بطريق غير مباشر ، بل إن حضارة الشعوب كثيراً ما ترتبط بالدين وتنبع منه كحضارة الفراعنة ، ولو أرسل ملك طلائع ليأتوه بتقرير عن أي شعب لوجب أن يكون من صلب التقرير بيان الحالة الدينية لهذا الشعب ، بصرف النظر عن أن هذا الملك له دين أو ليس له ، لأن بيان دين هذا الشعب ، يكشف الكثير من جوانب حياته .

ولكن أهم ما يعني سبأ بوصفه نبياً بيان دين هذا المجتمع ،

فوضح التقرير لسليان دين هذه الملكة وقومها ، وهو أنهم يعبدون الشمس من دون الله

وكما أن بيان الدين لذاته يعنى سليان عناية أساسية ، فإن هذا الجانب يعنى الملكة وقومها في المحاوراة عناية أساسية أيضاً ، فإن سليان في كتابه إلى الملكة يجعل العقيدة محور كل شيء ، مبيناً أن كل مايقوله ويفعله ليس من عنده ، وإنما هو متحدث باسم الله ، ومتحرك بأمره ، وهذا يزيد في صعوبة الموقف عند الملكة وقومها ، فلو كان سليان ملكاً فحسب ، لكفاه الخضوع السياسي أو العسكري له ، ولكنه مادام نبياً ، فلا بد من الخضوع الديني له أيضاً .

(ب) وأما الطرف الثاني : فهم المستشارون والقادة ، وهذا مفهوم من لفظ ( الملأ ) الذي يعنى السادة وعلية القوم ، وأيضاً من استشارة الملكة لإياهم ، فإن الملكة لاتستشير بالبداهة إلا صفوة القوم وقادتهم حيناً تحتاج إلى الرأي في أمر عام ، ومفهوم أيضاً من أنهم يتحدثون باسم الأمة ، وينوبون عنها

#### ٤ - عناصر كتاب سليمان :

١ - أنه نبي يتصرف بأمر الله وباسم الله ( إنه من سليان وإنه بسم الله ... )

٢ - أنه يعلم مدى قوتهم ، ولكنه يطلب منهم ألايقتروا بهذه القوة ( ألاّ تعلوا على )

٣ - يتضمن حرباً نفسية بإذلالهم وإشعارهم بالضعف وأنهم لايملكون إلا الخضوع .

٤ - يتضمن الكتاب مطلب سليمان وهو ليس مجرد الخضوع ، وإنما يطلب أن يأتوا إليه مستسلمين .

#### ٥ - عرض الموضوع :

والذى تولى عرض الموقف الملكة ، وقد كانت شديدة الدقة فى هذا العرض ، ويمكن أن نبسط عرضها للموضوع فى النقاط الآتية :

١ - بدأت بالتمهيد للموضوع ، فبعد أن جمعت الملاء من قومها ، وأعلمتهم بأن لديها كتابا من سليمان المشهور ، وقبل أن تعرض عليهم محتوى الكتاب ، أرادت أن تمهد لذلك ، وأن تبيّن نفوسهم بأمرين ذوى أهمية فى الموقف ، أحدهما أنها تؤكد لهم أن هذا الكتاب كان مفاجئاً لها ، ولم تكن له مقدمات لديها ، حتى لا يرتاب أحد منهم فى أنه ربما تكون قد سبقته هذا الكتاب مراسلات أو صلات متبادلة ، فأشارت إلى ذلك بقولها ( إني ألقى إلى كتاب ) ولم تكن فى حاجة إلى تأكيد أكثر فى نفي هذا الاحتمال ، لأن زيادة التأكيد والالجاج تولد شكاً إن لم يكن هناك شك ، وتزيد فى الشك إن كان موجوداً ، والأمر الآخر فى التمهيد ونهى النفوس ، أنها تشير إلى أن هذا الكتاب ليس عادياً ، وإنما هو ( كتاب كريم ) وهذا يتضمن أحد أمرين ، إما أنها تنبههم إلى أنه لديه كتاب ذو أهمية ، وإما أنها تفهمهم أنها درست مضمون الكتاب ، وتكونت لديها فكرة عن هدفه . ولأمانع من اجتماع الأمرين ، ولكن كلا الأمرين يبعث فى نفوسهم اهتماماً بالكتاب ، واهتماماً بالإسهام فى رأى والمشورة ، وهذا ما تهدف إليه الملكة ( إني ألقى إلى كتاب كريم ) وهذا من الحكمة فى العرض لأى أمر ذو أهمية .

٢ - كانت أمينة في عرض الموضوع عليهم ، فأعبرتهم أولا أنه من سليمان الذي تعرفون شأنه ، والذي لابد أن الناس يتسلمون ملكه الهائل ، ثم تلت عليهم نص الكتاب ، وهو ( إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَثُوفٍ مُّسْلِمِينَ ) فهذا الإيجاز البالغ ، يتضمن فيضا واسعا ، يدور حول معنيين ، أحدهما أن سليمان يتحرك باسم الله وأمره ، والآخر أنه يطلب منهم الخضوع الكامل دون شرط : وأمانة الحاكم في عرض الأمور كما أنها تدل على خلقه ونجاحه في الحكم ، فهي أيضا من أبرز سمات الحضارة ، حيث تدل على مثانة أسلوب الحكم وأصااته ، وعلى قوة كيان المحكومين أيضا ، ولو من باب الدلالة على أن الحاكم يحسب لهم حسابا ، ويخشى أن يكتشفوا كذبه أو تضليله ، إن راودته نفسه إلى شيء من ذلك .

٣ - بيان الهدف من عرض الموضوع عليهم ، وهو أنها تطلب منهم الرأي والمشورة ، ولكننا نلاحظ أنها بوصفها ملكة ، لم تستطع أن تتخلّى عما في نفوس الحاكمين كل التخلّى ، فمع أنها تطلب منهم الفتوى ( أفْتَوْنِي ! ) إلا أنها تجعل هذا الأمر خاصا بها ، وكأنهم دخلاء فيه ( في أمري ) ثم كأنها تخشى أن يظنوا بها ضعفا في هذا الموقف ، وأن هذا الشعور بالضعف هو الذي ألجأها إلى مشورتهم فهي تذكرهم بأن هذه عادتها ، وأيضا سياستها دائما أن تستشيرهم ثم أمر آخر ينبغي عما يخالجهما من مشاعر التعالي لدى الحاكمين والملوك ، وهو أنها مع كونها تطلب منهم الفتوى ، إلا أنها تنبئهم فيها يشبه التصريح ، بأن رأيهم غير ملزم إياها ، حيث نقول

( مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي ) فلم تقل حتى ترشدوني  
أو تعينوني الرأي ، أو نحو ذلك ، وإنما هم مع الرأي مجرد حاضرين  
يشهدون ما تقول وما تفعل ، وكأنها تقول لهم . إن البت في الشئون ،  
أمرى وشأني وحدي ، كما يفعل سائر الملوك ، ولكني أؤثر أن تكونوا  
دائما على علم بالأمور ، وأن أسمع رأيكم فيها ، وإن لم يكن هذا ملزما  
إياي . وتكاد تشير إلى أنها سياسة تنفرد بها ، حيث لم تقل إن  
الملوك يفعلون ذلك ، وإنما نسبت هذه السياسة إلى نفسها ، في  
شيء من اعتزاز بالتزامها ( قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ  
قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي ) .

#### ٦ - موقف الطرف الثاني :

والطرف الثاني هم المستشارون ، وهم في موقف يطلب منهم  
فيه الرأي والمشورة ، وقد بلغوا في ردهم ، وفي مراعاتهم لظروف  
الموقف أقصى ما ينتظر من مثلهم في هذه الحال . ونستخلص من  
ردهم على الملكة ما يأتي :

١ - كأنهم غفلوا أو تجاهلوا الجانب الديني ، ولم ينظروا إلى سليمان  
إلا على أنه ملك يتهدد ملكهم ، ويطلب منهم مافيه إذلال لهم . وواضح من  
ردهم أنهم يرون في غير تردد أن الرد الوحيد على كتاب سليمان هو استعدادهم  
للحرب ، وأنهم يجب أن يقدروا مالدبهم من المقدرة على الحرب التي لا مفر  
منها ، وقد فكروا في ذلك ، وقدروا إمكانياتهم من الجانبين العسكري  
والنفسى ، فوثقوا من أنهم على قدر من القوة فيهما ( قَالُوا نَحْنُ أَوْ لَوْ قُوَّةٌ  
وَأَوْلُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ) . فالقوة إشارة إلى الجانب العسكري المادى ، والبأس  
إشارة إلى الجانب المعنوى من الشجاعة والاستعداد النفسى للحرب

وكانهم يشيرون إلى الملكة بأمرين واضحين ، أحدهما استبعاد التفكير في الخضوع لسليان استبعادا كاملا بحيث لا يكون موضع محاورة أو حديث ، والآخر لإعلام الملكة أن لديهم القوة الكافية لرفض هذا التهديد ، والاستعداد للحرب ، وفي هذا إلزام لها بالتفكير في الحرب ، حيث لا عذر لديها للتفكير في الاستسلام ، بعد هذا التقرير الذي يقدمونه إليها عن قوتهم وكفايتهم .

٢ - مع هذا التقرير الذي ضمنوه واقعهم ، والذي حاصروا الملكة من خلاله ضمنا ، حتى وضعوها أمام اتجاه واحد هو الحرب ، مع هذا كله كانوا يمثلون غاية الأدب في مخاطبة الملكة ، وإظهار الطاعة لها ، فهم يسارعون عقب التقرير إلى قولهم ( والأمرُ إليك ) بمعنى أننا أقوىاء ، وعلى أهبة الاستعداد للحرب ، ولكن ذلك كله بين يديك أنت ، فأنت صاحبة الأمر كله ومانحن إلا جنود طائعون . وهذا هو الوضع الواقعي لكل ملك مطلق السلطة

٣ - كان المستشارون في غاية البراعة والدقة في المحاورة ، حيث استطاعوا أن يوفقوا بين إظهار الطاعة للملكة ، وإبراز رأيهم الذي يحسون من تهديد الملكة أنه مخالف لرأيها ، فإن وصفها لكتاب سليان بالكرم ، بالإضافة إلى ما يبدو عادة في الانفعالات والملايسات بصفة عامة ، كل ذلك لا بد أن يشعرهم باتجاه الملكة إلى السلم ، ولكنهم مع إظهارهم الطاعة ، يشيرون في وضوح إلى مخالفتها في الرأي ، مؤثرين الاتجاه إلى الحرب .

وكانهم حينما أحسوا بوضوح ميلها إلى السلام أرادوا أن يحملوها في أدب على معاودة التفكير والتقدير للموقف ، معبرين عن ذلك

بقولهم ( فَاَنْظُرِي ) بمعنى فكرى وقدرى ، ولكنهم يقرنون هذا التعبير بالطاعة ، والاستعداد لتنفيذ كل ما تأمر به الملكة ، فيقولون ( فَاَنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ) ، لم يقولوا فَاَنْظُرِي ماذا تريد ، أو ماذا تفعلين ، أو نحو ذلك ، وإنما يقولون : نحن مستعدون لتنفيذ أى أمر تأمرين ، ولكننا نرجو أن تحسنى التفكير والتدبر ، وألا يسيطر عليك التفكير فى الخضوع ، مع ما تملك من قوة وبأس شديد .

#### ٧ - دفاع الملكة :

وقد استطاع المستشارون أن يضعوا الملكة فى موضع يوشك أن يكون حرجا ، حيث بدأ من تمهيدها ، ومن كل ملابسات موقفها أنها تجنح إلى المودعة والسلام ، والحرج فى هذا أنها بعد ما أدلوا إليها بتقرير القوة أصبحت مخالفة لاتجاه قومها جميعا ، أو للاتجاه السائد فيهم على الأقل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك عذر عند قومها فى جنوحها إلى السلم بعد أن أكدوا لها مقدرتهم على الحرب . وهو فى ظاهره موقف فى غاية الخطورة ، على أى مشول عن مصير أى أمة .

وقد كانت الملكة تستطيع حتى بعد استفتائهم أن تقول لهم : أما رأى فهو كذا فافعلوه ، ولكن الموقف الصعب الذى وضعها فيه المستشارون يضطرها إلى الدفاع لتعطيل وجهة نظرها ، حتى ينقادوا لها عن اقتناع ، وليس انقياد المكره الذى لا يحمل لقائده حبا ولا تقديرا .

وقد بلغت الملكة قمة البراعة فى معالجة الموقف ، وفى محاولة

إقناع قومها برأيها الذى اقتنعت به ، وتستطيع أن نستخلص من دفاعها مايلئى ،

١ - لكى تكسب الملكة عواطف مستشاريها ، لم تسفه رأيهم واتجاههم ، ولم تتعصب لرأيها بداهة ، بل افترضت لهم أنها ستجاريهم فيما يريدون من إعلان الحرب ، وكأنها تقول لهم : وبعد ذلك ماذا يحدث ؟ إن سليمان فى ملكه وقوته وعجائب سلطانه ماتعلمون ، ولنتجاهل مايدعيه من حديث الدين ، والحديث عن الله ، إنه ملك بالغ القوة ، وحينما نرفض كتابه ونعلنه بالحرب ، فسيقدم علينا ، وحينئذ ماذا يكون مصير هذه اللجنة التى تتمتعون بها فى ظلال سبأ ، أو هذا الخير الذى يتدفق عليكم من مأرب ؟ إن مصير ذلك كله الخراب والدمار ، فالحرب ليس فيها إلا الخراب للطرفين ، ولكن المغلوب يجتمع عليه غرابان ، غراب الحرب ، وخراب تنكيل المنتصر به ، وهذا ماأتوقعه لكم لو اتجهتم إلى الحرب : فأنتم ذوو قوة لاشك فى ذلك ، ولكن سليمان أقوى وأعظم ملكا وأشد بأسا ، فهو إذن سيكون المنتصر ، ونحن إذن الذين سيحل بنا الدمار ( إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ) ودخولهم رمز النصر ، وإفسادهم رمز خراب الحرب والتنكيل بالمغلوب .

وبهذا تكون الملكة قد كسبت من نفسياتهم الكثير ، كسبت إشعارهم بأنهم تقدر رأيهم وتفكر فيه ، وأن مخالفتها لهم ليست تعاليا ولا مجرد تسلط ، وإنما تلمسا للرأى السديد ، ثم كسبت ثقتهم فيها ، حيث يعلمون ويشعرون حينئذ أنهم أمام ملكة لاتلقى الأوامر جزافا ، وإنما تزن الأمور وتقدرها حق التقدير ، ثم كسبت



أن تضعهم أمام المشولية عما سيحل بالملكة لوجارتهم فيما يتجهون إليه . وكأنها تقول : هبوا أنى وافقتكم على الحرب ، وحل بالملكة ماحل ، فمن المستول عندئذ عما سيكون ؟

٢ - في سبيل أن تسلك الملكة كل الوسائل لتقنعهم برأيها ، وحتى تكون نفوسهم كاملة التهيؤ للاقتناع ، لمست جانب مصلحتهم الشخصية ، مذكرة إياهم بأنهم هم سيكونون أشد الناس تضرباً بهذه الهزيمة المتوقعة ، فإن من شأن الملوك والقائدين دائماً أن يحطموا كل جوانب القوة في المهزومين ، ومن أهم جوانب القوة السادة والزعماء أنفسهم ، فهم أصحاب المصلحة الأولى في رد العدوان الطارئ ، لاستعادة سيادتهم وزعامتهم ، ولذلك يتم القائمون دائماً بالقضاء على الشخصيات القوية في المغلوبين ، حتى يأمّنوا ألا يعاود أحد محاولة الدفاع والحرب مرة أخرى ( إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ... ) وأعزة سيّاهم الذين تخاطبهم الملكة ، وإذن فإمامهم أن يصبحوا أذلة ، ولو احتمالاً ، وكأنها تقول لهم : أنتم أنفسكم قد تلوقون الذل والهوان ، بعد ما أنتم فيه اليوم ، فهذا خير ، أم جنوحكم إلى السلام ، وتضمنون البقاء فيما أنتم فيه من عزة وسيادة ونعيم ؟

٣ - تلجأ الملكة إلى اقناعهم بصدق توقعها ، فتجعل من ذلك ما يشبه أن يكون قضية منطقية ، تعتمد على مقدمات مسلم بها ، وحينئذ ينبغي أن يسلم المخاطبون بالنتيجة عن طريق القياس ، وتحكم في ذلك إلى التجربة والمشاهدة التي لا يختلف عليها أحد ، وكأنها تقول لهم : أليس من عادة الغزاة المنتصرين والقائدين ،

أن يفسدوا كل ما يعترض طريقهم ، وأن يذلوا كل من يقاومهم ؟  
والجواب بلى ، فهذا حكم لا ينازع فيه التاريخ ، والواقع أن لفظ  
الملك هنا لا يلزم أن نفهمه على حرفيته ، فليس الملك وحدهم الذين  
يفعلون ذلك وإنما كل المنتصرين الفاتحين ، بل واضح أن الملك  
لفظ مجازي ، كقولهم : بنى الأمير مسجداً ، بمعنى أمر بيئاته  
ولم يبنه بنفسه وإذا تأملنا التعبير ، نجد أن الإفساد ليس مقترناً  
بالمملك ، وإنما بدخول الملك ، والدخول كناية عن النصر والفتح ،  
( إذا دخلوا قرية أفسدوها ) بمعنى عند دخولهم فاتحين منتصرين ،  
ومفهوم ذلك أنهم إذا لم يدخلوها بهذه الصورة لم يفسدوها ، حتى  
ولو كانوا قادرين على إفسادها ، كأن تعلن القرية الخضوع دون  
حرب ، أو تكون خاضعة أصلاً لهم ، أو نحو ذلك ، فإنهم في  
كل هذه الأحوال لن يفسدوها ، كما يقتضى مفهوم التعبير ، لأن  
الإفساد مقيد بحالة دخولهم ، يعنى فاتحين منتصرين ، فالإفساد  
ليس مرتبطاً بالملك لكونهم ملوكاً ، وإنما هو مرتبط بصورة الغزو  
والفتح ، وهذا حكم لا ينازع فيه التاريخ كما سبق ، لا قديمه ولا حديثه ،  
فنظرة على التاريخ كله ، في طوله وعرضه ، تؤكد أنه مامن فاتح إلا وعاء في  
الأرض المغلوبة فساداً ، وأشيع أهلها إذلالاً وهواناً ، وهذا مفهوم من تعبير  
( وكذلك يفعلون ) وإذن فكون الغزو المنتصر لابد أن يكون فساداً  
وإذلالاً غير منازع فيه وماداموا قد اتفقوا على أن سليمان أقوى منهم  
وأن انتصاره عليهم بالتالى متوقع ، فلا بد إذن أن تتحقق القاعدة  
المتبعة في انتصار الغزاة ، وهى حلول الفساد في سبأ ، والذل بسادة  
سبأ ، وهم الذين تخاطبهم الملكة الآن ، وكأنها تقول لهم أليس

كذلك بإسادة سباً ؟ ومعنى قولها ( وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ) أنه حكم عام وثابت .

ومن الواضح أن جوابهم حينئذ سيكون الموافقة ، ولكنها الآن موافقة عن اقتناع ، وليست موافقة المغلوب على أمره .

٤ - والذي يهدم شيئا ينبغي أن يبني بديلا له ، حتى لا يكون هداما بغير هدف ، والمملكة هدمت رأيهم واتجاههم إلى الحرب ، وكأنهم يقولون لها : فماذا تقدمين بدل الحرب ؟ ، ومثل هذه المملكة فيما رأينا لديها من قوة الشخصية ، وعمق الفكر ، واتساع الخبرة والتجربة ، وقوة الاتباع ، وتمكن السلطان ، لانتجاً إلى الحل المهيمن وهو إسلام القياد ، والخضوع بآدى ذى بدء ، ولكنها فى غير شك ، أعملت فكرها كأحسن ما يكون لإعمال ، وقدرت فى نفسها كأعمق ما يكون التقدير ، حتى اهتمت إلى الأمر الوسط ، الذى لا يعرضها وقومها لخطر سليان ، ومع ذلك يحفظ عليها وعلى قومها بعض العزة والإباء ، فكان جوابها الذى يتطلبه الموقف ، والذى ينتظره قومها بعد أن قالوا ( وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ) كان جواباً أنها قررت أن تراسل سليان ، بادئة بإرسال هدية إليه ، وهى تحدد أن الهدية ليست مقصودة لذاتها ، بمعنى أنها لم تكن من السداجة بحيث تحسب أن سليان سيفرح ويكتفى بالهدية ، مع قدرته عليهم ، ومع ماله من ملك واسع عريض ، ولكنها أرادت أن تهدف إلى أمرين ، أحدهما فتح باب المحاوراة مع سليان لعلها أن تنجو من خطره ، فى أى صورة أو أى فرصة تسمح خلال الحوار والتراسل ، والأمر الآخر أن تخبر شخصية سليان وأهدافه

هل هو ملك طاغية يريد مجرد التوسع في ملكه ؟ هل هو داعية إلى الله والدين كما يتحدث في كتابه ؟ هل وراه شيء آخر غير ذلك ؟ فهي لا تريد الإهداء لذاته ، وإنما تريد أن تتخذ من الإهداء وسيلة لزيادة التعرف على شخصية سليمان وأهدافه ، ولذلك تقول ( وإني مُرسلة إليهم بهدية فَنَظَرُوا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ) ، والذي ينتظر أن يرجع به المرسلون أمران ، أحدهما جواب سليمان ، وهذا يكشف الكثير عن شخصيته وعن أغراضه ، والثاني مايقدمه هؤلاء المرسلون إلى الملكة من معلومات وأخبار عن سليمان وأحوال مملكته ، وعن قوة جيشه ، وعن نظام حكمه ، وغير ذلك مما يعنى المعرضين للحروب أشد العناية . وهذا تكون الملكة قد وصلت بفكرها وسداد رأيها إلى أفضل مايمكن التوصل إليه في مثل هذا الظرف العصيب .

#### العبارة :

وقد يقال : إن اهتمام سليمان ببرد المشركين إلى الدين الصحيح أمر واضح ، وكذلك دخول الملكة ومن معها في دين الله بعد وصول الهداية إليهم أيضا لا يحتاج إلى كثير لإعمال في الفكر ، ولكن سرد القرآن لتفاصيل المحاورة التي دارت بين الملكة وقومها ماحكمته ، أو ماعلاقته بالدين ؟ .

ويجاب عن ذلك بأمرين ، أحدهما أن هذه المحاورة كانت سبيلا ووسيلة إلى الدين ، والوسيلة لا تنفصل عن الغاية ، من حيث إنها يكملان أمراً واحداً ، أو ينتهيان إلى النتيجة المستهدفة ، والأمر الثاني أن القرآن لا يفصل بين الدين والدنيا في التطبيق

العمل ، بمعنى أنه عند تكليف الإنسان ، لا يكلف أموراً دنيوية منفصلة عن الدين ، بل يكلف أن تكون كل أموره دينية ودنيوية مطابقة لشرعية الله ، وسائرة على نهجها ، وبناء على ذلك فالقرآن يبنى بكل شئون الدنيا ، مطالباً أن تكون خاضعة للتشريع والتوجيه الدينى .

وقد يقال : فما علاقة هذا التعميم ، بهذه المحاور التى نحن معها ؟

والجواب أن هذه المحاور ترسم صورة لأسلوب من أساليب الحكم ، يبدو بوضوح أن القرآن ارتضاها مثالا للحكم الصحيح وللأسلوب المرضي عنه فى السياسة والحكم ، ويفهم ذلك من أن القرآن ذكر تفاصيل المحاور ، دون تصريح أو إشارة إلى إنكار شئ من مضمونها ، ولو كان فيها موضع إنكار لذكره القرآن كمادته فى أن يقرن كل فعل منكر أو مكروه بالنهاى عنه والتنفير منه ، كما أنكر على هذه الملكة وقومها أنهم يعبدون الشمس ( وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ) ، ولكنه لم ينكر شيئاً من محاورتهم تصريحا أو تلويحا ، ومفهوم عناية القرآن بذكر شئ كهذا ، أنه موضع الرضا والإقرار .

وقد يقال بعد ذلك : فما المواضع التى نحس أن القرآن يجعل المحاور من أجلها موضع الرضا والإقرار ، أو مثالا مرضيا عنه للسياسة وأسلوب الحكم ؟

والجواب أن هذه المواضع كثيرة ، يمكن أن نقتطف منها :

١ - الشورى : فالجانب الذى يبحث على الرضا فى سياسة

الملكة ، التزامها الشورى ، وجعلها ذلك سياسة ثابتة لها ، وليس لمجرد الانفعال بأمر خطير ، أو موقف معين ، وشعار ذلك ( مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ) والقرآن لا يرى الشورى منة من الحاكم أو تفضيلاً ، وإنما هو واجب أساسى فى الحكم ، وجزء أصيل فى السياسة ، ولذلك يجعلها طلباً واضحاً لاليس ولاتأول فيه ( وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ )<sup>(١)</sup> ، ويجعل القرآن الشورى صفة من صفات المؤمنين يختل جانب من إيمانهم باختلالها ، حيث يعد من صفات المؤمنين ( وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ )<sup>(٢)</sup> بل من إظهار أهمية الشورى أن تصبح اسماً لسورة من سور القرآن الكريم .

ومن مثل هذا نفهم وجه الارتباط بين مبادئ القرآن ، وما يرتضيه من أخيار السالفين .

٢ - أمانة الملكة فى عرض الموضوع ، حيث يبدو واضحاً أن موقف سليمان وكتابه كانا ضد المصلحة الشخصية الدنيوية للملكة ؛ فهو تهديد صريح وخطير للملكة وحياتها إن أبى ، ولملكها وعزتها إن خضعت ، وتحت هذا الانفعال الذى يهز كيائها ، ويشهد حياتها كان يمكن أن تزيف كتاب سليمان ، أو شيئاً منه ، أو تخفيه عن قومها ، أو أن تصوغه لهم بما يوافق رأيها الذى رآته مهما يكن هذا الرأى .

ولكنها أبى لإعرضه عليهم كاملاً كما هو ، وهذا يمثل الأمانة التى يجب أن يلتزمها الحاكم فى كل أمره ، بأن يجعل محكوميه

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران

(٢) من الآية ٣٨ سورة الشورى .

على بيئة كاملة من كل أمورهم ، فهذا أدعى إلى أن يحبطوه بالثقة والعموم مهما قست عليهم الأمور ، أما عدم الأمانة في عرض الأمور ، فإنه بالإضافة إلى مجافاته للدين والخلق ، فإنه فساد في الحكم ، ولكنه فساد من طراز خطير ، فإن زلة واحدة من زلانه قد تدمر أمة ، وتقضى على آمال شعب .

وكون الأمانة من صلب الدين والتشريع ، أمر لا يحتاج إلى توضيح ، ومن هنا أيضاً نتبين سبباً من أسباب رضا القرآن الكريم عن هذه المحاورة .

٣ - الحزم ، وقد كانت الملكة حازمة عازمة ، بأن صممت على التنفيذ بعد أن استبان طريق الحق لها ولقومها ، ولانتهى بطريق الحق هنا طريق الدين ، وإنما نعني طريق الصواب فيما انتهت إليه المحاورة ، من ترك التفكير في الحرب ، أو تأجيله ، وسلوك طريق آخر اتفقوا على أنه أفضل الطرق في هذا الظرف ، فإن المحاورة لم تكن في الدين ، وإنما كانت في التماس وسيلة لمواجهة هذا الموقف . والملكة سلكت في حزمها وحكمتها ثلاث مراحل ، أولاً دراسة الموضوع حتى يتكون لديها فهم وحكم تقتنع به ، وثانيها عرض القضية على قومها ، ومراجعتهم ومحاورتهم ، لعلها أن تعثر فيهم على رأى خير من رأيها ، أو تقتنعهم برأيها الذى تكون لديها إن لم تجد عندهم خيراً من رأيها ، ولكنها لم تجد خيراً من رأيها ، ومع ذلك التزمت أسلوب المنطق والحجة ، ليكون اتباعهم لها عن اقتناع وليس تحت عصا السلطان ورهبته ، وثالثة المراحل ، أنها حين أقنعتهم ، وأصبح طريق الصواب واضحاً لهم جميعاً ، لم تتردد ،

بل مضت في حزم وعزم لتنفيذ ما ارتأته صوابا ، وشعار ذلك ( وَإِذْ مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةً بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ) فهي تشاورهم في التماس الطريق الأصوب ، وحينما يتفقون على وضوحه ، فقد انتهت المشورة ، وانتهى التردد ، والتشاور ليس حينئذ من المصلحة في شيء .

وهذا المعنى أيضاً مما رسمه القرآن بوصفه تشريعا سياسيا ملزما وواجبا ، حيث يقول ( وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله .. ) (١) فالمشورة واجبة في الأمر حتى يتضح وجه الصواب للقائد والمقودين معا ، فإذا اتضح فالمسئولية هنا ينفردها القائد ، حيث يجب عليه أن يمضي ، وهم معه ، وقد حققت الملكة هذا في سياستها حيث تقول ( ماكنت قاطمة أمراً حتى نشهدون ) فهي التي تقطع الأمر ، ولكن بعد استشارة قومها .

وإذا تأملنا في تردد ولي الأمر بعد وضوح الصواب ، نستطيع أن ندرك مدى الخطر ، أو الضرر الذي يلحق ليس بالولي وحده . بل بالأمة أو الجماعة كلها .

٤ - وما يبعث على الرضا في المحاورة موقف الحكوميين ، حيث كانوا يمثلون خير ما ينبغي أن يكون عليه الأتباع ، وذلك أنهم جمعوا في موقفهم هذا بين ثلاث خصال ، أولاها الإخلاص ، ممثلا في استعدادهم للتضحية بكل شيء ، وشعاره ، ( نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ) فهم إذن مستعدون لبذل كل شيء ، وثانيتهما

(١) من الآية ١٥٩ سورة آل عمران .



الطاعة وشعارها ( والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ) فهم لا يمتازونها سلطانها ، وهم مستعدون لتنفيذ أوامرها ، وثالثتها مراقبة الحاكم وشعارها ( فانظري ) بمعنى فكرى وتدبرى - ، فهم مع الإخلاص والطاعة لا يغمضون أعينهم ، ولا ينفقون عن جهل وعمى ، وإنما يطلبون منها أن تكون قيادتها لهم عن بصيرة وتعقل وتدبر .

وكل ذلك مما يجعله الإسلام تشريعا وتوجيها عاما ، فأما الطاعة لولى الأمر فهي صريحة فى أوامر القرآن الكريم دون شرط ، إلا شرطا واحداً ، هو أن يلتزم ولى الأمر شريعة الله ورسوله فى حكمه وسياسته ، فإن حاد عنها ، فللأتباع والمحكومين أن ينازعوه حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ( يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول )<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أن شريعة الله والرسول فوق طاعة الحاكم ، بحيث إذا اختلف الحاكم والشريعة ، فالطاعة والمرد إلى الشريعة ، وليس إلى الحاكم . وكذلك الإخلاص لولى الأمر وللغيره ، من صلب الدين ، ويعبر عنه بالنصيحة ، التى يعنى عن كثير ، ولا يعنى عن شىء منها كقوله تعالى ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ... )<sup>(٢)</sup> وفى الحديث الشريف ( الدين النصيحة ، قيل لمن ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لله ولرسوله وللمسلمين ) . وكذلك مراقبة الحاكم من واجبات المسلمين ، ويكفى أن تشمل هذه المراقبة فى إلزام الحاكم شريعة الله ، ثم إن الأمر بالتزام

(١) من الآية ٥٩ سورة النساء .

(٢) من الآية ٩١ سورة التوبة .

شريعة الله ، وحكم من لم يحكم بها ، كل ذلك في القرآن شديد  
الوضوح ، وليس في حاجة إلى تبيان .

• - وما يبعث على الرضا عن المحاوراة أنها كانت وسيلة أو  
بداية الطريق إلى الإيمان بالله ، ثم كانت الخطوات التالية كلها  
اتجاها إلى الله ، حتى انتهت بقرار الملكة ( قالت رب إني ظلمت  
نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ) .

## • - فى طلب العلم

### بسم الله الرحمن الرحيم

« فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ زَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمْنَاهُ مِنْ  
لَدُنَّا عِلْمًا ، قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا :  
قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ  
بِهِ خَيْرًا ، قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ،  
قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا » (١) ...

### جوانب المعاورة

#### ١ - السياق :

يتلخص سياق المعاورة فى أن موسى عليه السلام ، كان شديد  
الولع بالعلم ، وبأن يبلغ منه أقصى مايتاح لبشر أن يبلغه ، وكأنه  
أحس أنه لكونه نبي عصره لاينبغى أن يكون على وجه الأرض  
من هو أعلم منه ، فليس فوق النبوة منزلة ، ولكنه عرف أن هناك  
شخصا لديه من العلم ما لم يبلغه هو ، وهو الخضر ، فطلب من ربه  
أن يدلّه على مكانه فدله ، فاصطحب خادمه وصمم على هذا السفر  
الطويل ، وعلى ألا يرجع حتى يلقى الخضر ، ولو قضى بقية حياته  
فى هذا السفر . ونفذ عزمه هذا ، حتى وصل إلى الخضر ، ومع

(١) الآيات ٦٥ - ٧٠ سورة الكهف .

موسى خادمه فى تفاصيل لا نعتينا هنا ، وإنما يعنينا هنا أنه ليس له إلا هدف واحد ، هو أن يتلقى العلم عن هذا العالم .

## ٢ - طرفا المحاوره :

فأما الطرف الأول فهو موسى عليه السلام ، ورغم أنه من أعظم أنبياء البشرية ، وأحد أولى العزم الخمسة من الرسل ، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، فإنه مع ذلك كان فى هذا الموقف الذى تمثله المحاوره مجرد طالب علم .

وأما الطرف الثانى الذى ذكره القرآن بلفظ ( عبداً من عبادنا ) فهو المشهور باسم الخضر ، وإن لم تكن هناك رواية صحيحة بهذا الاسم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو وحده الذى يستطيع أن يبين شيئاً لم يبينه القرآن كهذا ، والاسم لذاته غير ذى أهمية وإنما تنصب الأهمية على صفته وما يصدر عنه ، فالذى يعنينا أن القرآن حدد له صفتين ، إحداهما الرحمة ، وهى صفة تنبئ عن الخلق الذى يظهر أثره فى السلوك ، والمفسرون يرجحون أن المراد بها العصمة عن السوء ، وقد أخذوا هذا المعنى من القرآن نفسه ، فى قوله ( وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي )<sup>(١)</sup> حيث كان السياق هنا يشير إلى أن المراد بالرحمة العصمة من السوء ومهما يكن من شيء ، فواضح أن الرحمة هنا وصف يتعلق بالخلق والسلوك .

والصفة الأخرى أنه عالم ، وهذه الصفة هى التى ارتبطت بها

(١) الآية ٥٣ سورة يوسف .

المحاورة ، ولكننا نلاحظ في تعبير القرآن عن الصفتين ، أنهما من طراز غير عادي ، وأنهما من نون خاص ، وليس عاما ، فالرحمة موصوفة بأنها ( رحمة من عندنا ) والعلم أيضا موصوف بأنه من قبل الله مباشرة ( وعلمناه من لدنا علما ) فإنه وإن كان كل شيء من عند الله ، إلا أن هناك فرقا كبيرا بين ماهو من عند الله مباشرة ، أو بصفة خاصة ، وبين ماهو من عند الله مشاعا للناس ، أو مافيه واسطة بينه وبين الله ، فالرحمة من عند الله مباشرة ، كالعصمة التي يهبها الله لتفر معدود أو قليل من البشر ، وهم الأنبياء ، وكذلك هذا العلم الذي منحه الخضر ، ليس علما مشاعا كالعلم بمعناه العام ، وإنما هو علم خاص ، من الله مباشرة ، كروية بعض المغيبات ، مما اختص الله به نفسه ، لا يمنحه إلا لأفراد معينين ، لا يلزم أن يكون من بينهم الأنبياء ، ولذلك لم يكن منهم موسى عليه السلام . وهنا ملحوظة استوقفت المفسرين ، وعنوا بمحاولة إذهاب ماقد يشوبها من ليس ، وهي أن المفروض أن يكون الأنبياء أعلم من غيرهم ، فكيف يكون موسى دون الخضر في العلم ؟ ، ونراهم لذلك يقولون إن الخضر نبي ، ويرتبون على ذلك أنه لا بأس بأن يأخذ النبي العلم من نبي آخر ، وإنما البأس أن يأخذ من غير النبي ، مع أن هذا التعليل لا يكفي للإجابة والإقناع ، فحتى لو افترضنا أن الخضر نبي ، فإنه غير مرسل ، والنبي المرسل كموسى أفضل من النبي غير المرسل كالخضر ، ويظل الوضع حينئذ في الفارق بينهما قائما .

والواقع أن الأمر ليس في حاجة إلى التماس الملل ، ولا إلى إثارة

المحفوظة أصلا ، فالتنبؤ لا يفترض تفوقه إلا فيما يتعلق بصفتة وهي النبوة ، فالنبوة أداة الهداية للناس ، والتنبؤ ينبئ أن يكون أعلم الناس وأصلحهم في هذا المعنى وحده ، وهو الهداية وما يتعلق بها ، كما أن العرف يحدد أن التفوق يكون في الصفة التي هي موضوع التفوق والمفاضلة دون غيرها ، فتفوق الطبيب مثلا يكون في الطب ، ولا بضميره أن يكون هناك من هو أعلم منه في الهندسة أو الأدب أو في غيرهما ، ولا يقلل من قدر المهندس ألا يكون عالما في التجارة أو الحدادة أو غيرهما ، فالشيء الوحيد الذي يمس منزلة النبي أن يكون هناك من هو أفضل منه في صفتة ذاتها ، وهي الهداية وما يتعلق بها ، ولا يقلل قط من قدره أن يكون هناك من هو أعلم منه في أي شيء آخر ، كالمهن والصناعات ، أو أي شيء لا يرتبط بالهداية التي هي مهمة المرسل من عند الله ، ومن الواضح أن علم الغيب ليس مرتبطا بالهداية ، فلو افترضنا مثلا أن الملائكة يعلمون شيئا من الغيب ، فانه لا يقلل من منزلة الأنبياء أنهم ليسوا ملائكة ، أو ليست لهم صفات الملائكة ، وإذن فلا يقلل من منزلة موسى قط أن يكون هناك من هو أعلم منه في أي شيء خارج صفة النبوة والرسالة ، بل مما يزيده فضلا وشرفا أن يلتبس العلم ويستفيدة من هو دونه ، كما حاول مع الخضر ، بل إن محمدا صلى الله عليه وسلم التمس العلم والفائدة ممن هم دون الخضر ، كالتعاسه من الحباب بن المنذر في بدر ، ومن سلمان الفارسي في الخندق .

### ٢ - موقف الطالب :

وقد كان موسى في موقفه من الأستاذ مثالا جمع أقصى ما يمكن لطالب العلم أن يجمعه ، ليتوسل به إلى تحصيل العلم ، ولسيطرة الرغبة الشديدة الملحة على موسى في أن يحصل من هذا العلم ولكونه بذل جهدا قاسيا مفسيا لا يريد ولا يرضى أن يذهب بها . ، ولكونه غير واثق من موافقة الأستاذ على قبوله طالبا ، نجده يركز كل جهده في تضمين كلماته أقصى مايتاح للألفاظ ، أن تحمل ، صاعا أن تقع من نفس هذا العالم موقع الرضا فلا يرفض تعليمه ( قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ) ؟ وإذا تأملنا هذه الكلمات التي توصل بها موسى إلى أستاذه نجد فيها تتضمنه من إشارات مايتأتى .

ولفظ ( له ) نلاحظ أنه يفيد تخصيص الخطاب من موسى إلى الخضر مباشرة ، ولو كان التعبير قال موسى دون ذكر ( له ) لكان هناك احتمال ولو ضعيف أنه أرسل إليه خادمه مثلا ، ولكن التعبير يفيد أنه ذهب بنفسه ، وأنه طلب هذا المطلب بنفسه أيضا ، وهذا مما يقتضيه خلق طلب العلم ، أن تكون الصلة بين الطالب ومعلمه مباشرة ، وأن يتواضع طالب العلم مهما تكن منزلته .

ولفظ ( هل ) استفهام في أسلوب العرض والرجاء ، وكأنه لا يطلب منه طلبا ، وإنما يسأله مجرد سؤال : هل يقبل ؟ .

ولفظ ( أتبعك ) يتضمن أقصى الخضوع النفسى ، وكأنه يهيئ نفس العالم بأسلوب يخجل معه أى كريم أن يرد طلبا ، حيث

كأنه يقول له : قبل كل شيء ، أريد أن أكون تابعاً لك ، فهل تقبل ؟ والتبعية هنا إشارة إلى ثقة الطالب في معلمه ، حيث إذا اتعمدت ثقته في علم أستاذه اتعمدت استفادته .

ولفظ ( على ) يفيد الاستعلاء . وفي ظاهره التعارض مع ألفاظ الخضوع السابقة ، ولكنها حكمة الأسلوب ، أن يجمع بين الأمرين فكأنه بعد أن قدم أقصى الخضوع لأستاذه ، أولن يريده أستاذاً أراد أن يشمره بشيء من حقيقته هو ، وكأنه يقول له : إن ما أقدمه من خضوع ليس هواناً ، وإنما هو مقابل شيء أطلبك به ، هو العلم فكما أتى أخضع في جانب ، أشترط عليك في جانب آخر .

ولفظ ( تعلمني ) يفيد أنه لا يطلب من أستاذه أكثر من بذله علمه ، سواء تعلم الطالب أولم يتعلم ، بخلاف ما لو قال له : على أن أتعلم ، فهو حينئذ يشترط عليه أن يصبح متعلماً أي أن يستفيد قدراً من العلم ، أما تعبير موسى الدقيق فهو ( على أن تعلمن ) أي أن تبذل علمك لي ، ولأعليك بعد ذلك إن استفدت من علمك أولم أستخدم ، فالعلم دائماً يملك أن يقدم علمه ، ولكنه لا يملك أن يغيرس هذا العلم في نفس تلميذه .

ولفظ ( بما ) يتكون من كلمتين ( من ) وهي حرف جر يفيد التبعية ، و ( ما ) اسم موصول بمعنى الذي ، والمعنى على أن تعلمني بعض ما لديك من العلم ، ولو قال له موسى على أن تعلمني ولم يزد ، لاحتمل أنه يريد أن يعلمه كل علمه ، أو قدراً كبيراً من علمه كما هو مألوف في رغبة طالب العلم ، ولكن موسى يتلطف ، ويهون



الأمر على الخضر ، وكأنه يقول : يكفي منكم بعضا من العلم .  
وهذا البعض تحدد قدره وكميته أنت كما تريد .  
وكلمة ( علمت ) يلفت النظر فيها البناء للمجهول - ، فلماذا  
لم يقل مما تعلمت ؟ أو مما لديك ؟ والواقع أن البناء للمجهول يشير  
إلى معنى دقيق ، وهو أن علم الغيب الذي لدى الخضر لا يكتسب  
اكتسابا كالعالم العادي ، ولذلك لا يصلح أن يقول مما تعلمت ،  
فهو هبة محضة من الله ، لا تدخل للإنسان في اكتسابه وتحصيله ،  
ويمكن أن نفهم إشارة أخرى من بناء الفعل للمجهول ، وهي كأن  
موسى يقول له : كما أن هناك من تفضل عليك بهذا العلم ، وهو  
الله سبحانه ، دون أن تبدل فيه جهدا أو أجرا ، فكذلك لا تبخل  
أنت بأن تمنح بعضا منه لغيرك .

وكلمة ( رشد ) يبين بها موسى هدفه من الحرص على العلم ،  
وهو طلب الرشاد وأن يكون هذا العلم وسيلة إلى الخير والهدى ،  
وهكذا علم الأنبياء والمؤمنين عامة ، يكون وسيلة إلى الخير وليس  
إلى الشر ، ولكن تصريح موسى بهذا الهدف يتضمن حملا لهذا  
العالم على أن يعلمه ، فما دام هذا العلم يحقق خيرا ورشدا ، فكيف  
يحببه صاحبه ويكون سببا في منع هذا الخير المرجو ؟ .

#### ٤ - موقف العالم :

وأما العالم وهو الخضر ، فقد كان رده ينشأ عن منطق العلماء  
وأصولهم ، الذي يعتمد على تحديد الأحكام ، والتعليل لما يصدر عنه  
من حكم ، أو يرويه من رأى ، مع دقة التعبير في كلا الأمرين ،  
ويستوقفنا في رد الخضر :

- أنه لم يرفض تعليم موسى ، وهكذا خلق العلماء في عدم  
الضيق بما لديهم من علم ، ولكنه يجد أن هناك سببا يجعل تعليمه غير  
مجد ، وكأنه يقول لموسى : لست آتي أن أعلمك ، ولكن هناك  
ما يمنع ، وسأخبرك به .

٢ - كان هذا المانع هو علم الخضر أن موسى لن يستطيع  
الصبر على آثار هذا العلم الغريب الذي يحمله الخضر ، ومثل الخضر  
الذي اختصه الله ببصيرة نافذة إلى الغيب ، من المتوقع أنه لا تخفى  
عليه نتيجة صلة موسى به ، ولذلك نجده يتحدث عن المستقبل  
ليس حديث الظن أو الترجيح كما ينبغي لأي إنسان ، وإنما يتحدث  
حديث التأكيد المنبثق عن العلم واليقين ، فيقول ( إنك لن تستطيع  
معي صبرا ) ، فهو يرد على موسى ، بأن علمه للنتيجة المستقبلية  
يجعله غير مستعد للتعليم .

٣ - نلاحظ تعبيره المذهب الدقيق في رده على موسى ، فحين  
نفى عنه القدرة على الصبر ، لم ينفها على الإطلاق ، وإنما نفهاها  
في حالة معينة ، هي صحة موسى له وذلك في لفظ ( معي ) الذي  
انصب النفي عليه ، في قوله ( إنك لن تستطيع معي صبرا ) بمعنى  
أنني لأنفي عنك صفة الصبر ، وإنما أنفي مقدرتك على الصبر  
في حالة معينة ، هي صحبتك لي ، أما في غير هذه الصفة فلا أنفي  
عنك فيه شيئا ، ونلاحظ أيضا التنكير في ( صبرا ) بمعنى أنك  
مهما كنت صبرا فيأتك في حالة صحتي لا تستطيع صبرا ولو  
يسيرا ، فالتنكير هنا يوحى بالإطلاق والتعميم على أن لفظ ( تستطيع )  
يحمل أيضا إشارة بالتماس العذر لموسى في عدم القدرة على الصبر .

فمعناه أن هناك مثيراً يدفعه إلى عدم الصبر ، وكأنه هو يقاوم ويحاول أن يصبر ولكنه لا يستطيع .

٤ - بأسلوب العالم في التحليل يحاول الخضر أن يقنعه ، بتوضيح العلة في الحكم السابق ، وهي ( وكيف تصبر على ما لم تحط به غيراً ) بمعنى أن الإنسان يصبر عادة وتطمئن نفسه حين يكون الأمر واضحاً مفهوماً لديه ، أما ما يجهله فإنه يثير لديه الغرابة وحسب الاستطلاع ، وهذه طبيعة في الناس عامة ، ولكن موسى يتميز عن الناس بأنه نبي ، وهذا يقتضى على وجه اليقين والوجوب ، أنه لا يعمل عملاً ، ولا يرضى عن عمل إلا إذا كان شديد الوضوح في أنه غير ، أو بعيد عن الشر كالمباح ، ولذلك كان تعبيره ( ما لم تحط به غيراً ) فالإحاطة تقتضى للتمكن ، والخبر ( بضم الخاء ) بمعنى الاختبار ، وكأنه يقول : إنك لن تصبر على شيء إلا إذا أحاط به علمك وغيرتك .

والاستفهام المستفاد من ( كيف ) يحمل معنى التعجب ، معنى كيف تستطيع الصبر ، والسكوت على أمور غير مرضية ، وهي مجهولة الأسباب والدوافع ؟ .

٥ - يحاول الخضر أن يجعل رغبته في الامتناع غير واضحة ، من جهتين ، إحداهما أنه لم يصرح بعدم رغبته في تعليمه ، والأخرى أنه ختم رده عليه بسؤال ( كيف تصبر ... ) بمعنى إذا كانت لديك وسيلة للصبر أو كنت واثقاً من مقدرتك عليه ، فأجبنى ، وعندئذ لأمانع في تعليمك إذا اقتنعت بقولك . وإذن فالنتيجة يحددها رد موسى على هذا السؤال ، وسنعرض له .

٦ - حين استمع الخضر إلى جواب موسى ، ووجده مصمما على التعلم ، ووجد جوابه في المنطق العادي مقنعا للذين لا يعلمون النتائج والمستقبل ، ولا عذر حينئذ للخضر في الرقص ، وافق على قبوله طالبا يتعلم على يديه ، ولكنه اشترط عليه شرطا ( قال فإن اتبختي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ) والتعبير بلفظ ( إن ) يوحي بالشك في استمرار تبعيته له ، وهو عود إلى مذكره أولا ، والتذكير في ( شيء ) فيه الواقع القاسي على موسى ، وهو أنه لا يستطيع الاستفسار عن شيء قط ، فالتذكير للتعميم .

ولفظ ( أحدث ) يوحي بأن أي توضيح من جانب الخضر لا بد أن يكون نابعا من رغبته ، وأن يكون هو البادئ به ، فلا يستدرجه أحد إلى الحديث ، ولا يجره أحد إلى بيان ما لا يريد بيانه .

#### جواب الطالب :

وحين وجه الخضر سؤاله إلى موسى عن كيفية صبره على ما يجهل السبب فيه أو المبيح له ، لجأ موسى إلى ما يعرف بأسلوب الحكيم ، وهو تجاهل السؤال ، والإجابة بما يتطلبه الموقف ، فلم يجب الخضر على سؤاله ، وكأنه يقول له : لا يعنيك كيف أصبر ، وإنما يعنيك ما تريد . وهو أن تجلني صابرا أثناء صحبتي لك .

وبالإضافة إلى هذه البراعة السابقة في جواب موسى ، نجد في مضمون جوابه :

١ - وعدا بتحقيق ما يطلبه أستاذه وهو الصبر ، وقد كان دقيقا في هذا الوعد ، فلم يؤكد له مقدرته على الصبر ، وإنما ساقه مساق التوقع بلفظ ( ستجلني ) .

٢ - بلغة المؤمنين يقرن موسى فعل المستقبل بمشيئة الله ،  
 فيقول ( ستجدنى إن شاء الله صابرا ) كما يقول تبارك وتعالى  
 ( ولاتقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ) فإن المستقبل  
 لا يملك مخلوق قط منه شيئا ، لأنه لا يدري ماذا سيكون فيه ،  
 بل لا يدري أيظل هو حيا لهذا المستقبل أم لا ، فالذى يملك المستقبل هو  
 الله سبحانه ، ولذلك يجب أن يقرن كل فعل للمستقبل بمشيئته سبحانه .

٣ - ونجد أيضا وعدا بتحقيق ما عرضه موسى على الخضر  
 منذ بدء لقائه وهو أن يكون تابعا له ، فالتبعية تقتضى الطاعة الكاملة ،  
 ولذلك يتفق أن يصدر منه عصيان قط للخضر ( قال ستجدنى  
 إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ) .

وحينئذ يكون قد قدم إلى الخضر ما يريده وهو الصبر وقت  
 صحبته ، ويزيد على ذلك تقديم ما ألزم نفسه إياه ، وهو التبعية  
 التى تترتب عليها الطاعة الكاملة . قارنا كل ذلك بمشيئة الله .  
 وقد سبق القول بأن هذا الجواب من موسى ، اقتضى قطع  
 حجة الخضر ، فلم يعد له عذر لرفض التعليم ، حيث إن حجة  
 أن موسى لن يستطيع الصبر ، فما دام موسى يثق فى قدرته على  
 الصبر ، بل على درجة فوق الصبر العادى ، وهى التبعية المتضمنة  
 للثقة المطلقة ، فلا حجة بعد ذلك للخضر ، وكونه يعلم النتيجة  
 المستقبلية فى الغيب ، فهذا غير مقنع لمن لا يعلم الغيب ، لأن العقل  
 لا يستطيع أن يبنى أحكاما تخرج عن حدود المدركات العامة للبشر ،  
 فضلا عن أن يجعلها موضع الإقناع <sup>(١)</sup>

(١) من أراد المزيد فى متابعة المحاور ينظر كتاب نصوص أدبية من  
 العصر الإسلامى للمؤلف .

### العبرة :

والمحاورة حافلة بالتوجيه والعبرة في جوانب عديدة ، ولكننا إذا نظرنا إليها من الجانب التعليمي وحده ، الذي هو موضوع الاستشهاد بالمحاورة ، نلمح فيها .

١ - تبرز المحاورة في سياقها مثالا لما ينبغي أن يشبه إليه الناس من اهتمام بالعلم ، والسعى إليه ، وبذل أقصى مايتاح من جهد لالتماسه وتحصيله ، فإن سياق المحاورة ، في الآيات السابقة لها ، يرفع لنا مثالا رائعا مثيرا ، فيما بذله موسى وصمم عليه حتى وصل إلى العالم الذي يريد أن يلتمس العلم عنده ، ويدل عليه ( وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقباً ) والحقب في اللغة ثمانون سنة ، يقول لخادمه : لا بد من الوصول إلى هذا العالم عند مجمع البحرين ، ولو كلفني هذا سفرى ثمانين سنة ، وقد لقي في سفره هذا من العناء المضى ما كان كفيلا أن يزهد في أى هدف آخر ، إلا العلم ، فإنه يحتمل في سبيله أقصى مايحتمل ، ومثال هذا ( قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً ) والتصبب التعب الشديد ، وطلبه الغداء يدل على أنه اجتمع عليه التعب والجوع .

وكل ذلك يحمله لاشئ ، إلا للتصميم على تحصيل العلم .

٢ - تتضمن المحاورة مثالا لخلق طالب العلم في عدة نواح ، منها تواضعه وتناسيه لكل ميزة أو صفة ترفعه أو تميزه عن غيره ، كما تناسى موسى أنه نبي ، في توسله إلى هذا العالم أن يقبله طالبا ، وكما تناسى أنه يملك بعض التميز الاجتماعي ، ودليله أن لديه غادما ،

فهو ليس من الطيقة الدنيا في المجتمع ، ومع ذلك يتناسى كل ذلك في حضرة معلمه ، فلا يستخدم خادمه في المراسلة مع معلمه ، ولا يخاطبه من موضع التعالي أو التوسط ، بل من الموضع الأدنى حيث يطلب منه قبوله تابعا مطيعا لا يعصى له أى أمر ، ومن نواحي هذا الخلق اختيار الطالب لأحسن الأساليب والألفاظ في مخاطبة معلمه ، دون أن يرى غضاظة في الخضوع له .

وكل هذه المعاني إن دلت في المجتمع على تفرقة بين الناس ، حين تجعل من بعضهم أحيانا سادة أعزة ، ومن بعضهم أتباعا مهينين ، فإنها في دور العلم لاعلاقة لها بشيء من ذلك ، وإنما تدل على شيء واحد ، وتحققه أيضا ، وهو الثقة الكاملة للطلاب في معلمه هذه الثقة التي إن فقدت قلن يستفيد الطالب من معلمه ، وبمقدار نقصان الثقة ، تنقص الفائدة . فإذا اكتملت الثقة تحولت إلى تبعية روحية من الطالب لمعلمه ، كهذه التي تعرضها المحاوراة .

٣ - تتضمن المحاوراة بيان أهم مايلزم طالب العلم في تحصيله للعلم نفسه ، وهو الصبر على ما يقتضيه تحصيل العلم من جهد نفسي وعقلي وبدني ، ولذلك نجد الخضر لا يريد من طالب علمه إلا شيئا واحداً ، هو الصبر ، وقد يقال إن الموقف هنا منصب على نوع معين من العلم الغيبي لا يستطيع السكوت والصبر على آثاره ، والجواب أن هذا حق ، ولكنه لا ينفي أن هذا العلم الغيبي أيضاً نوع من العلم ، ولئن كان العلم العادي يحتاج إلى الصبر في التحصيل ، فإن العلم الغيبي أحوج إليه في التطبيق ، فالعلم عامة يحتاج أول ما يحتاج إلى الصبر والتحمل في تحصيله . وكل شيء يمكن تصور

الحصول عليه دون جهد وعناء إلا العلم . فيمكن تصور الحصول على المال أو المنصب أو نحوهما دون عناء . ولكن الشيء الوحيد الذي لا يتصور اكتساب شيء منه دون جهد هو العلم . وبما يلفت النظر في المحاور . أن الخلاف كله بين الخضر وموسى كان يدور حول الصبر على تحصيل العلم .

٤ - أن يكون للطالب ، وللتعليم نفسه هدف محدد ، وينبغي أن يكون هذا الهدف واضحاً في خيبريته ونفعه ، كما حدده موسى في الرشد ، بمعنى الاسترشاد به إلى الخير ( على أن تعلّق بما علمت رشداً ) ومن أشد العقبات التي تعترض العلم في كل العصور فتحوّل دون تقدمه أو عزم نفعه ، انحصاره في أغلب الأحيان في إحدى رغبتين ، رغبة الطالب في مجرد أن يتخذ سلماً يرتقى به إلى تحقيق هدف شخصي ، فإذا حققه فلا بأس بأن يلقى بهذا العلم فيما يلقى من المهمات ، ورغبة المجتمع في أن يتخذ من العلم مجرد أداة للهدم والتخريب ، فإذا حقق ذلك ، أفرغ من شأنه ، لم تعد للعلم عنده أهمية ، كما نرى في تسخير الأمم علومها لصناعة السلاح ، وفي أغلب أحوالها ليس للدفاع ، وإنما للبغى والعدوان أحياناً ، وللتجارة أحياناً أخرى ، بينما لا يحظى بذلك الطب الذي تتلف البشرية على كل خطوة يخطوها ، ولكنه لا يكاد يخطو ، لأنه لا يحظى إلا بأيسر الاهتمام ، وحتى الخطوات المشلولة التي يخطوها إنما تتم بجهود فردية تابعة من نفوس خيرة ، وليس من جهود أمة .

٥ - تبين المحاوره مثالا لما ينبغي أن يكون عليه العالم من خلق ، ومن جوانب هذا الخلق :



١ - ألا يبخل العالم بعلمه ، فلا ينبغي قط أن يضمن بعلمه على طالب ، مادام هذا الطالب صالحا لتلقى العلم بمعنى أن يكون هناك أى أمل فى استفادته ، ولذلك نجد الخضر لا يبدى أى ممانعة فى بذل علمه ، وإنما المحاوراة مبنية على أنه يعلم أو يرجح أن هذا الطالب لن يستفيد من علمه .

٢ - أن يكون المعلم رفيقا بطالب علمه ، رجيا به ، مستعدا للتجاوز عما قد يصدر منه من حقوات مادام حسن النية ، وفى المحاوراة وخاصة فى الآيات التالية ، عدة أمثلة لهذا ، ومن ذلك أنه بعد أن اتهم موسى أستاذه بالإجرام حين قتل الغلام قاتلا ( لقد جئت شيئا نكرا ) كان كل رد معلمه عليه ( ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ) .

٣ - أن يعتمد المعلم على الإقناع ، فانه إذا فقد الإقناع خسر أهم ما يميز المعلم ، وكيف يستفيد الطالب من شيء لا يقتنع به ، ولذلك نجد الخضر يعتمد على أسلوب الإقناع ، كقوله معللا لحكمه على موسى بعدم الصبر ( وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ) ؟ ثم كانت محاورته بعد ذلك كلها تتضمن نوعا من التعليل .

## ٦ - في صراع النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

« رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، قَبَشَرْنَاهُ بِغَلَامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنِّي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ » (١)

### عناصر المحاوراة

#### ١ - الموضوع :

ومن الواضح أن موضوع المحاوراة هو رغبة إبراهيم عليه السلام في أن يذبح ابنه ، بناء على رؤيا في المنام ، ورؤيا الانبياء نوع من الوحي إليهم ، بمعنى أن النبي حين يرى في المنام رؤيا ، فكأنما أوحى إليه في اليقظة ، فإذا تضمنت الرؤيا تكليفا أو توجيها فهو إلزام للنبي كالأوحى في اليقظة ، وقد هب إبراهيم نفسه ليذبح ابنه منقادا لما رآه في منامه ، ولم يطل الحوار بينهما ، فقد استسلم الابن راضيا مطعش النفس إلى أمر الله

(١) الآيات ١٠٠ - ١٠٧ سورة الصافات .

## ٢ - السياق :

كان ابن إبراهيم ، وهو - على أرجح الأقوال - إسماعيل ، وحيد أبيه ، وقد جاء إلى الدنيا ، ثم وصل إلى قصة الذبح تحيط به الملاحظات الآتية :

(أ) قضى إبراهيم وزوجه ماشاء الله أن يقضيا دون ولد ، وألحت على إبراهيم أمنية أن يكون له ولد صالح ، فدعا ربه ( رب هب لي من الصالحين ) فاستجاب له ربه ، ومعنى ذلك أن إسماعيل كان وحيد والده ، وأنه جاء بعد شوق وتمن وضراعة إلى الله ، وهذا كله مما يزيد في حب والديه ، وتشبههما به ، وحرصهما على إبعاد كل أذى عنه .

(ب) كان إسماعيل يادى النجاسة والنبوغ ، حتى ظهرت عليه بوضوح وهو مازال في صباه ، صفات لا تتوافر عادة إلا للكبار ، بل للافتداز من الكبار ( فبشروناه بغلام حلیم ) ومع أن الحلم يطلق غالبا على كظم الغيظ وقوة التحمل ، إلا أنه يطلق كثيرا على رجاحة العقل ، وبخاصة حينما يجمع ، فيقال هؤلاء ذوو أحلام أى عقول راجحة ، ومن ثم فإن وصفه بأنه حلیم يحتمل أن يكون بمعنى هدوء الطبع في الشدائد ، وكظم الغيظ عند الغضب ، وهو مايجتنب إليه المفسرون ، ولكن هذا لا يمنع احتمال إرادة رجحان العقل كما يدل عليه الاستعمال اللغوي الشائع ؛ بل ليس هناك ما يمنع من دلالة اللفظ على اجتاع الوصفين فيه ، وهناك أوصاف أخرى له ، منها في القرآن ( إنه كان صادق الوعد ) ومنها ( وإسماعيل واليسع ) وذا الكفل كل من الصابرين ) ومهما يكن من شيء ، فإن ذلك يدل

على أن اسماعيل رغم صباه كان يادى النجاة والتفوق . وهذا مما يزيد والديه حياء له ، وسعادة به .

(ج) كان إسماعيل حينئذ قد بلغ حد التكليف ، الذى يدخل معه في عداد الشباب والرجولة ، ونستطيع من هذا أمرين ، أحدهما أنه لم يعد طفلاً ، وهذا مما يزيد والديه تعلقاً به ، وحاجة إليه ، ويجعل فقداه أفسى عليهما ، وأشد ضرراً ، والامر الآخر أنه ببلوغه التكليف المشار إليه في الآية ( فلما بلغ معه السعى ) يكون قد خرج من وصاية أبيه عليه ، ويكون عرض أبيه عليه قبول الذبيح تخييراً وليس إلزاماً كما سيأتى .

### ٣ - موقف الأب الذابح :

« فلما بلغ معه السعى قال يابنى إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى » .

وقد كان من المواقف النادرة الرهيبة في التاريخ ، ومجمل هذا الموقف أنه أب يطلب إليه أن يذبح ابنه الوحيد الذاب بيده ، دون ذنب أو انفعال صدر من الابن ، وما كان لأب أن يفعل ذلك بابنه مهما كان الأمر ، لولا أن الأمر هو الله سبحانه ، ولذلك استجاب إبراهيم ، وأعد أداة الذبيح ، وانتحى بابنه مكاناً قصياً منعزلاً ، هو على أرجح الأقوال مكان التحريم مناسك الحج الآن ، وعرض على ابنه الموقف منتظراً جوابه .

ولكن اليسير من التأمل يوحى بالمعالي الآتية :

١ - تكرار القصة ، وذهاب معنى المفاجأة في استماعها ومتابعة

أحداً ، لا ينبغي أن ينسينا تامل نفسية إبراهيم بوصفه أباً كريماً  
رحيماً ، ومشاعره حين يتصور أنه سيلتحق ابنه الوحيد بيده ،  
وما يشيره مرأى ابنه الوداع المستسلم ، ومشاعر أخرى كثيرة  
يفيض بها هذا الموقف الرهيب ، ولا ينبغي أن ينسينا ما يحتاجه هذا  
الموقف من قوة هائلة لمغالبة النفس ، وما يصطرع فيها من غريزة  
الأبوة ، وعاطفة الرحمة بالولد ، وسائر ما تزخر به النفس البشرية  
الرحيمة في مثل هذا الموقف .

٢ - تعبير ( فلما بلغ معه السعى ) يحتمل معنيين ، أحدهما  
ليبان عمر إسماعيل حينئذ ، وأنه لم يكن في سن الطفولة ، ولأن  
سن الرجولة الكاملة ، وإنما كان في سن البلوغ ، والآخر احتمال  
افتراضى ، لادليل عليه إلا ما يحتمله لفظ ( فلما ) وهو احتمال أن  
تكون هذه الرؤيا قديمة ، بمعنى أن يكون إبراهيم قد رأى في المنام  
أن هذا الطفل حيناً يبلغ سن السعى يريد الله منه أن يذبحه ، وانتظر  
إبراهيم حتى بلغ ابنه معه السعى ، فعرض عليه الأمر ، وفي كلا  
الحالين هناك دلالة على أن الذبح كان توقيته في السن التي يكون  
فيها الولد في قمة الحب عند والديه ، ولفظ ( معه ) يضيف إلى  
الحب والعطف شيئاً آخر ، وهو انتفاع أبيه به في المعيشة والسعى ،  
وإذن فقد جمع على أبيه أمرين بالغى الإيلاء ، هما فجيعة فقدته ،  
ثم انقطاع نفعه وعونه .

٣ - تعبير ( يابى ) جامعا بين البتة وتصغيرها وندائها ،  
يجعل لهذه المعاني وبخاصة في هذا الموقف وقعا بالغ التأثير . وكأن  
إبراهيم أراد قبل أن يعرض عليه هذا الأمر القاطع أن ينبهه إلى أنه

ليس قاسيا ولا مجردا من الرحمة ، وإنما ملء ثيابه الرحمة والعطف والحب ، ولكن شيئا أقوى من هذا كله هو الذى جعله يعزم على مايعزم عليه الآن ، هذا الشئ هو استجابته لإرادة ربه .

٤ - التعبير بلفظ ( أرى ) دون رأيت ، يوحى بتمثل إبراهيم لأمر الله إياه ، وكأنه يراه حينئذ ، ومن المعروف أن الفعل المضارع يدل على الحال المستمر ، فكأن إبراهيم يقول لابنه إنه يابنى أمر لازم واضح ، مائل فى نفسى كأنى أراه الآن ، وفى هذا شئ كأنه الاعتذار من إبراهيم لابنه ، بأنه إنما يقدم على مايقدم عليه ، لأنه أمام أمر قوى غالب مسيطر .

٥ - تعبير ( فانتظر ماذا ترى ) ، يدعو إلى التفكير والوقوف عنده بشئ من التأمل ، فإن سياق القصة يوحى بأن الله أمره بفتح ابنه ، وهذا التعبير صريح فى أنه يخبر ابنه ، حيث يدعو إلى التفكير فى الأمر بقوله ( انتظر ) ثم ينتظر رأيه ( ماذا ترى ) ، فكيف يتفق الأمر من الله ، وهو لازم لايقبل الخيار عند المؤمنين ، مع هذا التخيير الصريح الذى يعرضه إبراهيم على ابنه . وبمعنى أوضح فإن هذه النقطة تتضمن سؤالين ، أحدهما : هل يملك إبراهيم ذبح ابنه دون رضاه ، بناء على رؤيا المنام ؟ والآخر : هل يملك إسماعيل أن يرفض هذا الأمر ؟ .

ومع حساسية الكلام عن الأنبياء ، وحاجته إلى الدقة الشديدة يمكن أن نقول : إن تعبير القرآن نفسه يتضمن الإجابة ، وبخاصة فى قوله تعالى ( فلما بلغ معه السعى ) فمهما استنبطنا من هذا التعبير من معان ، ففيه معنى واضح لايمكن إغفاله ، وهو أن إسماعيل قد

بلغ سن الرشد والتكليف ، ومعنى ذلك أنه خرج من وصاية أبيه عليه ، وأنه أصبح من الناحية الشرعية هو المسئول عن أعماله ، ولذلك لم يقل له أبوه إلى مأمور بذبحك فتعال أذبحك ، وإنما يستشير ، ويخيره تخييراً صريحاً ، بل يدعو إلى التروي والتفكير لتكون استجابته عن إيمان واقتناع ، وليست مجرد طاعة عمياء فيقول له ( فانتظر ) ، ومما يدل على هذا التخيير ، التصريح بأن هذا الموقف كان اختباراً وابتلاء من الله ( إن هذا لهو البلاء المبين ) وهو وإن كان في السياق ابتلاء لإبراهيم ، إلا أنه في المضمون ابتلاء عظيم أيضاً لابنه إسماعيل ، ولا يتحقق الابتلاء والاختبار إلا إذا كان المبتلى مخيراً .

وإذن فالإجابة المحددة عن السؤال الأول من السؤالين الأخيرين ، أن إبراهيم لا يملك ذبح ابنه دون رضاه ، لأن ابنه مكلف مسئول عما يفعل ، كما لم يملك نوح لابنه شيثاً ، سواء في هدايته للإيمان أو في حمايته من عقاب الله ، ولذلك خير إبراهيم ابنه ، والإجابة عن الثاني أن إسماعيل إنما استجاب بدافع الطاعة لله ، والبر بوالده ، ولو تجرد منهما لكان يملك رفض هذا الأمر ، والامتناع على الذبح .

#### ٤ - موقف الابن الذبيح :

« قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » بهذه الإجابة الحازمة الرائعة ، يرد إسماعيل على سؤال أبيه ( ماذا ترى ؟ ) ، وإذا لجأنا إلى شيء من تأمل ، نجد فيها يتضمنه هذا الجواب ما يأتي

١ - تعبير ( ياأبت ) يوحى بأن المعنى المسيطر على إسماعيل هو طاعة أبيه ، مهما كان الفعل ، ومهما كان مصدر الأمر بالفعل ، وكأنه يشير إلى مبادئته العاطفة السامية النبيلة ، بين رحمة الآباء وطاعة الأبناء ، فكما قال إبراهيم بكل عطفه ورحمته ( ياأبي ) يرد إسماعيل بكل بره وطاعته ( ياأبت )

٢ - تعبير ( افعل ماتؤمر ) يتضمن جانبين واضحين ، أحدهما الحزم في الاستجابة ، بمعنى أن إسماعيل يستجيب لرغبة أبيه على بشاعة مظهرها ، دون تردد أو إبطاء أو مراوغة ، وإنما بكل الحزم ووضوح الطاعة والاستجابة يقول له ( افعل ) ، ولو كان في نفسه شيء من تردد ، أو خوف لا يمكن أن يبطل في الإجابة حتى بالمحورة ، أو لقاء بعض الأسئلة والاستفسارات ، ولو فعل لم يكن عليه بأس ، مادام سيستجيب ولكنه لم يلجأ إلى شيء من ذلك ، والجانب الثاني ، أنه كما سبق بين لأبيه أن المعنى المسيطر عليه هو طاعة أبيه في كل ما يطلب أو يرغب فيه ، فهو منفذ لإرادته ، مع صرف النظر عن أن الله سبحانه هو الأمر أو غيره ، وتلمح هذا المعنى في بناء الفعل للمجهول ( ماتؤمر ) فقد كان يمكن أن يقول له افعل ما أمرك الله به ، ولكنه يتجاوز هذا . وكأنه يقول له : أنا مطيع لك ولو لم أعرف من الذي أمرك بهذا ، وليس في هذا تهوينا من طاعة إسماعيل لله ، بل بالعكس ، نجد رده هذا يتضمن طاعته لله من باب أولى ، فالمؤمن الذي يبلغ أن يقدم حياته طاعة لوالده ، أولى أن يقدمها طاعة لربه .

كما أن إطلاقه لنوع الفعل ، يتضمن زيادة في الطاعة والاستجابة ، فقد كان يمكن أن يقول افعل الذبح ، أو نحو ذلك ، ولكنه يقول :



افعل أى شىء دون تحديد أو تقييد ، وكأنه يقول : لو كان هناك  
ما هو أشد من الذبح وأمرت به ، فافعله ( افعل ما تؤمر ) فلم يخصص  
الذبح ، وإنما أطلق الأمر مهما كان نوعه .

٣ - يوضح إسماعيل لأبيه موقفه عند التنفيذ ، وهو الصبر  
ولاستسلام ، وهناك فارق ذو أهمية كبيرة ، بين من يستجيب  
وهو جزع ، ومن يستجيب صابراً مطمئناً ، فكلاهما استجابة ،  
وفى كليهما غير ، ولكن شتان بين الغير في هذه وتلك . وإسماعيل  
يأتى إلا أن يبلغ قمة الفضل في الأمرين ، الاستجابة المطلقة لأبيه  
مهما كان نوع الفعل ومصدره ، وفى الصبر والاطمئنان عند تنفيذ  
هذا الفعل .

وكأسلوب المؤمنين دائماً في الحديث عن الفعل المستقبل ،  
يقرنه إسماعيل بمشيئة الله . فلا يتنبأ للمؤمن أن يتحدث عن عمل  
قط في المستقبل إلا إذا قرنه بمشيئة ربه ، فيقول لأبيه ( ستجئني  
إن شاء الله من الصابرين ) .

#### ٥ - النتيجة :

« قلنا أسلما وتله للجبين ، وناديتاه أن يا إبراهيم ، قد صدقت  
الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهم البلاء المبين ،  
وقد بيناه بذبح عظيم » .

وأسلما معنى استسلم كلاهما لإبراهيم وابنه لأمر الله وإرادته ،  
وتله للجبين بمعنى جذب لإبراهيم ابنه ، وألقاه إلى الأرض ، بحيث  
يكون جبينه إلى الأرض ثم نادى الله لإبراهيم أنه قد حقق الرؤيا

ونقلها ، وجواب لما مخلوف تقديره ( فلما أسلما وتله للجبين  
ونادينه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ) حدث التوقع حينئذ من  
السرور العظيم الذي يغمر الوالد والولد بما من الله به عليهما من نجاة  
إسماعيل ، ثم يأتي تمبير ( إنا كذلك نجزي المحسنين ) ومعناه  
أن إكرام الله للطائع المستجيب في مثل هذه الحال ليس قصراً على  
إبراهيم وابنه ، وإنما هي سنة الله في المؤمنين المستعدين للتضحية  
في سبيل الله والاستجابة لأمره . والبلاء الاختيار والامتحان ، والذبح  
يكسر الدال المشددة هو ما يلزم ، فداء الله بليحيه ، اختلقت فيها  
الأقوال ، ومن هذه الأقوال أنها وحل من وعول الصحراء ، ساقه  
الله حينئذ إلى إبراهيم ليبيحه مكان إسماعيل فداء له .

وقد يقال : كيف قيل لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا مع أن  
الرؤيا تتضمن الأمر بذبح ابنه ، وهو حين قيل له : قد صدقت  
الرؤيا ، لم يكن ذبح ابنه ؟ والواقع أن تعبير القرآن يتضمن  
الإجابة ، فالرؤيا في حقيقتها لم تكن إرادة الذبح . وإن كان ظاهرهما  
ذلك ، وإنما كانت امتحاناً واختباراً لدى استعدادهما للتضحية في  
تنفيذ أمر الله ، فحين نجحا في تقبل أمر الله على إيلاهم الشديد ،  
واستعدا بل بدآ في التنفيذ ، كانا قد حققا كل المراد من الرؤيا  
وهو الاختيار ( إن هذا لهو البلاء للمبين ) ومن المعروف أن النية هي  
مدار الثواب والمقاب كالحديث الشريف ، ( إنما الأعمال بالنيات )  
فتحقق النية والعزم من إبراهيم وابنه كأنه تحقيق للفعل نفسه وهو  
الذبح ، وكون القرآن يصرح أن هذا ابتلاء ، إشارة إلى أن الذبح لم

يكن مقصوداً ، وإنما القصد هو الاختبار ، ولذلك قيل له : قد صدقت الرؤيا .

ولكن رؤيا الأنبياء حق ووحى ، سواء في هدفها ، أو في ظاهرها فإذا كان إبراهيم قد حقق الهدف ، وهو الابتلاء ، فقد بقى عليه أن يحقق ظاهر الرؤيا وهو الذبح الحقيقي ، ولذلك ساق الله إليه الكيش أو الوعل ، ليذبحه بيده ، فداء لابنه ، وتحقيقاً لظاهر الرؤيا .

#### ٦ - العبرة :

وكشأن القرآن الكريم في سوقه كل مايسوق من أخبار الماضين للعبرة ، نجده يشير إلى مواضع العبرة في هذه المحاورة ، ومن أوضح هذه المواضع :

١ - أن أوامر الله لا تراجع ، فضلاً عن أن ترفض أو تعارض وقد رأينا موقف إبراهيم وابنه كليهما من أمر الله ، فأما إبراهيم فمع أن الأمر صدر إليه عن طريق الرؤيا ، وهى أقل درجة من الوحي المباشر للأنبياء ، إلا أنه لم يتردد ، ولم يراجع ربه مستفسراً أو متضرعاً أو غير ذلك ، مع أنه أمر يتضمن أفدح مايبتل به إنسان ، حين يطلب منه أن يذبح ابنه الوحيد ، وأن يكون الذبح بيده هو ، وإنما مضى مصمماً على التنفيذ ، مالم يعصه ابنه ، وأما إسماعيل فمع أن الأمر عنده يتضمن أقسى وأعظم تضحية يقدمها الإنسان ، وهى حياته نفسها ، ومن أقسى ما فى هذه التضحية الاستسلام للموت ، فإنه أشد على النفس من مقاومته ، كما يحدث في الحرب مثلاً ، فحينئذ يكون الموت أخف قسوة ، لأنه

جاء عن مقاومة ، لاعتن استسلام .

وإذا كانت أوامر البشر مهما كان مصدرها تراجع وتجاوز ، فإن أوامر الله لا ينبغي فيها ذلك مهما خفيت الحكمة فيها ، وإنما يجب تنفيذها كما هي .

٢ - إن طاعة الوالدين لحدود لها ، وهي من أبرز علامات الإيمان ، ولذلك يجعل القرآن في كثير من الآيات الإحسان بالوالدين تالياً لعبادة الله ، وقد رأينا كيف أن إسماعيل يسلم قياده لأبيه في أعلى ممالك الحي ، وهو الحياة ، فإن إسماعيل لم يصدر إليه أمر من الله مباشرة لأنه لم يكن بعد نبياً ، ومع أن الدافع الحقيقي لاستجابته وخضوعه هو الإيمان ، إلا أنه يضع هذه الاستجابة في يد والده ، وكأنه يجعل أبوة أبيه ، وثقته في الأبوة ، وطاعته إياه ، كافية لخضوعه وطاعته ( ياأبى افعل ) فكأنه لا يحتاج إلى صفة النبوة حيثشد في أبيه ليستجيب له ، وإنما يكفي لطاعته أنه أبوه .

٣ - أن الابتلاء والاختبار سنة الله في المؤمنين ، حتى الأنبياء لا يخرجون ولا يستثنون من هذه السنة ، وإنما يبلوهم الله ويختبرهم كسائر المؤمنين ، بل نصيبهم من البلاء أشد ، كما في الحديث الشريف ( أشد الناس ابتلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل ) وهكذا رأينا كيف يعرض الله نبيه إبراهيم مع أنه خليفه ، ومن أعظم عباده منزلة عنده ، وكذلك إسماعيل الذي سيصبح نبياً ، يعرضهما لأقصى ما يتعرض له بشر من البلاء . فالابتلاء والاختبار سنة ثابتة عامة إذن في المؤمنين ، ولذلك نجده سبحانه يتحدث في أسلوب التعجب والإنكار على الذين يظنون

أن الإيمان يغني صاحبه عن الابتلاء ، ويحصنه من اختبار الله ( أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكافرين ) (١) فالآيتان تتضمنان ثلاثة معان أساسية أولها الإنكار على الذين يظنون أن الإيمان لا يحتاج إلى اختبار ، وثانيها أن الاختبار ملازم للمؤمنين في كل العصور ، وثالثها بيان الحكمة من الفتنة والاختبار ، وهو تمييز الصادقين عن الكافرين في إيمانهم .

فما تضمنته المحاوراة من اختبار ، ليس خاصاً بإبراهيم وابنه ، وإنما هو سنة الله مع كل المؤمنين على درجاتهم ، في كل العصور .

٤ - أن الله لا يتخلى في الشدائد عن عباده المؤمنين ، وقد رأينا كيف أن إبراهيم وابنه حين ضاقت عليهما الأمور ، واستحكمت الموقف ، حتى بلغ أقصى شدته ، بأن أسسك إبراهيم بالمدينة ، بعد أن أضجع ابنه وهياه للذبح ، ثم أجرى المدينة فعلا على عنق ابنه ، وكلامهما لا يشك قط في حلول الموت المحموم ، وإذا هما فجأة أمام فيض غير متوقع من رحمة الله ، وإذا إبراهيم يناديه المنادي ، بأن يكف عن الذبح ، لأنه بهذا القدر صدق الرؤيا في حقيقتها وهدفها ، وهو الابتلاء ، وأما عن الشكل الظاهري للرؤيا وهو الذبح المأدى ، فسيؤولاه الله عنهما ، بغلبة عظيمة ، يوقن إبراهيم أنها من عند الله ، فيلجأها ، ليزداد يقينا بأنه صدق الرؤيا كل التصديق . وآيات المحاوراة تصرح بأن هذا الإكرام الكبير من الله ليس خاصاً بإبراهيم وابنه ، وإنما هو جزاء كل من بلغ في إيمانه درجة

(١) الآيتان ٢ ، ٣ سورة المتكويث .

الإحسان ، وتكرر هذا التصريح ، فلولا نجد ( إنا كذلك نجزي المحسنين ) وقد كان هذا الجزاء هو نداء إبراهيم أن يكف عن الذبح لانه حقق الرؤيا ، ثم ( كذلك نجزي المحسنين ) وكان هذا الجزاء الثاني هو فداء إسماعيل بذبح عظيم ، ولكن الذى يلفت النظر هو التعليق فى الآية التالية ، وهو ( إنه من عبادنا المؤمنين ) فإن هذا التعليق يجرى بعد سوق الإكرام كله بنوعيه ، بل بأنواعه ، لأن هناك ما أكرم به إبراهيم غير ذلك فى التعقيب على هذا البلاء ومنه ( وتركنا عليه فى الآخرين ) فمما أكرمه الله به أن جعل له ذكراً طيباً باقياً خالداً على الزمان ، ثم يعطى هذا كله بالإيمان ، وكان سائلاً يسأل : ولم استحق إبراهيم هذه الانواع كلها من الإكرام ، فكان الجواب ( إنه من عبادنا المؤمنين ) فالإيمان إذن يحوطه الله بوعده منه ، أن يتدارك صاحبه بالفضل والإكرام حينما تتأزم به الأمور ، كما تدارك إبراهيم ، حيث إن قوله ( إنه من عبادنا المؤمنين ) يتضمن أن كل عباده المؤمنين يستحقون ما استحقه إبراهيم .

وهذا المعنى ليس فريداً فى هذه الآيات ، ولا هو قليل فى القرآن الكريم ، بل هو كثير شائع فى مواضع عديدة ، يكفى أن يكون منها هذا المعنى الرائع المؤثر ( إن الله يدافع عن الذين آمنوا <sup>(١)</sup> ) ، وكان الله سبحانه ، ينصب نفسه مدافعاً ومحامياً عن المؤمنين به ، دفاعاً مطلقاً ضد كل مايكرهون ، وليس المهم فى نتيجة الدفاع ، وإنما المهم هو المعنى البالغ التأثير ، وهو شعور المؤمن بأن الله يدافع عنه .

(١) من الآية ٣٨ سورة الحج .

## ٧ - فى مقاومة الطغيان

### بسم الله الرحمن الرحيم

« قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنْتَ تُنْفِقُ وَإِنَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ، وَالْقَوْمَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يَفْلَحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى ، فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ، قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَا فُطْرَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَصْلَبُكُمْ فِي جُنُودِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ، قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى » (١)

### عناصر المحاوره

#### ١ - الملائسات :

هذه المحاوره بين السحرة وفرعون ، جزء من قصة موسى وفرعون ، وحيث إن موضوع الكتاب لا تندرج فيه القصة ، وإنما

(١) الآيات ٦٥ - ٧٣ سورة طه واقرأ الآيات ١٠٣-١٢٦ سورة الأعراف

يقتصر على المحاوره ، لذلك تجزى محاوره السحرة مع فرعون لتكون موضوع الحديث .

وأما ملخص ملايسات المحاوره ، فهو أن الله سبحانه أعطى موسى معجزتين ، تشبهان ما برع فيه قوم فرعون ، وهو السحر ، ليكون هذا إلزاما لهم ، وحجة عليهم ، وهما العصا التي يلقبها موسى فتتحول إلى حية ، ثم يمسكها فتعود عصا ، والأخرى يده ، التي يدخلها في جيب صدره تحت إبطه ، ثم يخرجها فإذا هي بيضاء ساطعة ، ليس في بياضها ما يشبه المرض أو السوء ، ثم كلف الله موسى أن يذهب إلى فرعون وقومه باتين المعجزتين ، فطلب موسى من ربه أن يعينه بصحبة أخيه هارون الذي كان أفصح منه لسانا ، فاستجاب له ، وذهب إلى فرعون ، فدعاه إلى الله مستعينا بالمعجزتين ، ولكن فرعون المغلق القلب من جهة الله ، لم يستطع أن يتصور أنها معجزات الله ، وإنما تصور أنه سحر كالشائع المألوف في ملكه ، وقد كان فرعون يستطيع أن يرفض دعوة موسى إلى الدين ، بمجرد قوته ، أو بمجرد عناده كما يفعل الرافضون للدين ، ولكنه أراد أن تكون هزيمة موسى مخزية مهينة في تصوره ، حين يهزم ويخزي أمام السحرة الذين جمعهم فرعون من سائر أنحاء البلاد وأمام هذه الجموع ، فلا يفكر أحد في الاستماع إليه بعد ذلك .

ويبدو أن فرعون كان يعتقد حينئذ أن موسى ساحر حقيقة ، وإلا لما عرض نفسه وأتباعه لهذا الامتحان العلني الذي تسامعت به كل البلاد ، والذي دعا فرعون إلى أن يحتشد له أكبر عدد ممكن من شعبه ، ليشهدوا هزيمة موسى ، فلا ينقاد لدعوته أحد .



واجتمع السحرة بعد احتشاد الناس في يوم عيدهم الأكبر ، وكان السحرة والفقير من نصرهم على موسى ، بدليل أنهم تمتموا على فرعون الأمانى بلهجة الواثق من نصره وأنهم غيروا موسى بين أن يبدأ هو أو يبدأوا هم .

ولكن موسى الواثق من معجزته ، يطلب إليهم أن يبدأوا هم ، وأن يفعلوا ما يشاهدون من سحر ، فألقوا حبالهم وعصيهم تشبهاً ببعض موسى ، فإذا هي حيات تسعى .

ويفاجأ موسى بما لم يكن في حسبانته من بلوغ هؤلاء السحرة هذا المبلغ من السحر ، فماذا يصنع بهذه الحيات الكثيرة أمامه وأمام الجمع الحاشد المهول ، وماذا تصنع عصاه بين هذه الحيات الكثيرة العديدة ، وهل يحقق له النصر أن يزيد بعصاه عدد الحيات الكثيرة أمامه حية ؟ ، أو أن يزيد بشخصه عدد السحرة الكثيرين ساحرا ، حين يظنونهم مجرد ساحر استطاع أن يحول عصاه ثعبانا كما فعل غيره من السحرة ؟ ، وامتلاّت نفس موسى بالوساوس والمخاوف ( فأوجس في نفسه خيفة موسى ) ولم يكن خوفه من جهة عصاه ، فقد كان واثقا أنها ستتحوّل إلى ثعبان . ، ولكن خوفه كان من النتيجة في الموازنة بينه وبين السحرة ، أي أنه كان يخاف أن يوازنه الناس بالسحرة ، بينما هو يريد أن يثبت لهم أنه مرسل لهم من الله بدعوة ، فكيف يتحقق هذا ، بينما هم على أحسن الفروض سيظنونهم ساحرا ناجحا ؟ ولكن الوحي ينزل عليه بأن يطمئن ، فإن الله لا يخلد عبده حينما يحتاج إلى عونه ونصره . وألقى موسى العصا فإذا هي تلقف ما يأفكون .

وهنا تبدو المعجزة واضحة ، وبخاصة للسحرة الذين هم أخير  
الناس بالسحر فإن الأشياء المسحورة لاهياة قطع فيها ، وبالتالي  
يستحيل أن تتحرك أو تسعى ، لأن السحر في حقيقته ليس في  
الأشياء المسحورة ، وإنما في نفس الرائي لها وبصره ، وهو معنى في  
غاية الأهمية ، حيث يشير إليه القرآن في وضوح ( فإذا حبالهم  
وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ) فهي لاتسعى ولاتتحرك ،  
وإنما هو تخيل يلقي في نفوس الرائيين ومنهم موسى ، وهكذا السحر ،  
لا يملك أن يغير في خلق الله شيئا ، وماهو إلا قوى شريرة تتسلط  
على نفوس بعض الناس وخيالهم ، فتخيل إليهم أنهم يرون أو يحسون  
أشياء أو مظاهر في غير حقيقتها . والسحرة هم أعلم الناس بهذه  
الحقيقة ، ولذلك حينما رأوا عصا موسى تتحرك حقيقة وليس تخيلا  
ثم تبلغ من وضوح الحركة والحياة فيها أن تلتهم الحبال والعصى  
التي ألقوها ، حينئذ سطع الحق أمامهم ، وهو أن موسى صادق في  
رسالته من عند الله ، وفي أنها معجزة له من عند ربه وليست سحرا ،  
فلم يترددوا لحظة ، وإنما خرّوا ساجدين لله إكبارا وإيمانا

## ٢ - طرفا المحاورة :

وطرفا المحاورة التي نحن بصدددها ، هما السحرة وفرعون .  
فأما السحرة فهم جماعة من قوم فرعون ، لم تجمعهم صلة  
نسب أو صداقة أو حتى معرفة ، وإنما جمعتهم المهنة ، وهي السحر ،  
فقد طلب فرعون جمع كل السحرة الماهرين في طول البلاد وعرضها  
دون سابق صلة أو تعارف بينهم ، وقد كانوا واثقين من سحرهم .

ومن نصرهم على موسى كما يدل عليه كلامهم مع فرعون ، ومع موسى .

وهؤلاء السحرة أيضا لم يجمعوا بأسمائهم وأشخاصهم ، وإنما بالصفة والمهنة التي يحملونها وهي السحر ، وفرعون عاملهم على هذا الأساس ، والقرآن يتحدث عنهم أيضا كذلك .

وأما فرعون فهو لقب لكل ملك في مصر ، ولكنه في القرآن الكريم يراد به ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام .

ويبدو من حديث القرآن عنه ، أنه قد نبأ له من أسباب الملك والقوة والمدنية بكل ما تستتبعه أقصى ما يتاح للملك ، فقد بلغ من التفرد بالملك والسلطان ما يدل عليه قوله : ( أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ) ؟ وبلغ من القوة والنفوذ ما يدل عليه مثل قوله لشعبه في غير إنكار منهم ( أنا ربكم الأعلى ) وبلغ من أسباب المدنية وما يترتب عليها من الصناعة ووسائل الحضارة ما يدل عليه مثل قوله ( ... ياها مان ابن لي صرحا لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات ... ) فكونه يطلب هذا معناه أنه ممكن لديه . وأنه يستطيع أن يبني صرحا إذا لم يبلغ السموات ، فعلى الأقل يناطحها ، أو يظنه من يراه أنه يبلغ السموات ، والذي يستطيع أن يبني صرحا كهذا لا بد أن يكون لديه بناءون وصناع ليفعلوا هذا ، وهؤلاء بالضرورة تعلم كل منهم مهنته ، ثم تدرب عليها في أعمال كثيرة أداها ، وسيقه أيضا بناءون وصناع تعلم هو على أيديهم . وكل هذا يدل على وجود المباني الكثيرة ، والمصانع العديدة لدى

هذا الملك ، وهذا الذي حددته القرآن يؤكد التاريخ ، وتنطق به  
آثار القراعة .

وقد كان نتيجة تجمع هذه الأسباب كلها لدى فرعون أن  
تحول إلى طاغية وكان من أهداف رسالة موسى ومعه أخوه هارون  
إرجاع فرعون عن طغيانه ( اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ) وهما يعرفانه ،  
ويعلمان طغيانه ( قلنا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ) .  
خاصة وأن موسى تربى في كتفه ، بل في بيته .

### ٣ - موضوع المحاوره :

والموضوع الأساسى الذى دارت حوله المحاوره هو طغيان فرعون ،  
الذى يريد أن يمنع السحرة من اعتقاد ماظهر لهم من الحق . ولو لم  
يحاول منهم لما كانت المحاوره .

ومع ذلك فالسبب المباشر الذى بدأت به المحاوره كان إيمان  
السحرة بالله ، وبرسوله موسى . فحين أعلنوا إيمانهم أمام هذا الجمع  
الحاشد من كل أرجاء البلاد ، ثارت ثائرة فرعون ، وأراد أن  
يمنعهم من الإيمان ، ولكنهم تشبثوا بإيمانهم مستهينين بكل شيء ،  
فبدأ الحوار الرهيب معهم .

وكون إيمان السحرة سبباً مباشراً لاينفى أن السبب الأساسى  
هو طغيان فرعون ولايتعارض معه ، فإن الإيمان كان هو الوضع  
الأصلى المنتظر عقلاً ، نتيجة لظهور الحق ، والحق وما يترتب عليه  
كإيمان السحرة لاينفى أن يراجع أو يكون موضع محاوره ، ولكن

طغيان فرعون ، كان هو الأمر الذى لا يتلاءم مع المنطق وتسلسل الأمور ، فترتب عليه هذا الحوار .

#### ٤ - موقف السحرة :

فأما السحرة فقد كانوا لعلمهم بالسحر أسرع الناس استجابة وإيمانا ، كقوله تعالى ( وإنما يخشى الله من عباده العلماء ) ، وليس المراد وصفهم بالعلم لذاته ، وإنما المراد أن كونهم عالمين بالسحر جعلهم أعرف الناس بأن ما فعله موسى يستحيل أن يكون سحرا ، ولا يستطيع بشر قط أن يفعله ، وإنما يفعله واحد فقط هو الله سبحانه ، فلا أحد يستطيع إطلاقا أن يخلق حياة إلا هو ، ولذلك انقلبوا فجأة إلى ما وصفهم به القرآن ( فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا يرب هارون وموسى ) وهناك ملحوظات في تعبير هذه الآية ، تنبئ الإشارة إليها :

منها الفاء في ( فألقى ) حيث تشير إلى القورية وعدم التردد ، فما إن سطع الحق لهم حتى استجابوا له ، معلنين إيمانهم في هذا المظهر الرائع المثير .

ومنها البناء للمجهول في لفظ ( ألقى ) ، حيث نلاحظ أن القرآن يبرز هذا البناء للمجهول في هذه القصة ، وفي قصص أخرى ، وكان وراءه سرا ، فالآية هنا ( فألقى السحرة سجداً ) وفي سورة الاعراف ( وألقى السحرة ساجدين ) وفي سورة الشعراء ( فألقى السحرة ساجدين ) والفعل في كل ذلك مبنى للمجهول ، وفي محاولة الإجابة عن هذه الملحوظة يمكن أن يقال إن البناء للمجهول غير غريب

لأن الفاعل في الحقيقة هو الله ، فهو الذي شرح صدورهم للإيمان ،  
والقرآن يوضح كثيراً أن الإيمان إنما يأتي بتوفيق من الله ، حين  
يشرح قلب صاحبه للهداية ، وإذن فالسحرة لم يبتدوا من محض  
أنفسهم ، وإنما حين فتح الله قلوبهم للإيمان كما يفتح قلب كل  
مهدت ، ومع ذلك فقد يقال ولكن تكرار الصيغة بالبناء للمجهول  
يوحي بأن في موقف السحرة شيئاً خاصاً ، ثم قد يقال : والأوضح  
من ذلك فيما يشير البناء للمجهول من تأمل ، أن البناء للمجهول لم يتجه  
إلى الإيمان نفسه بمعنى الهداية ، ولإلى السجود ، وإنما اتجه إلى  
إلحاقهم إلى الأرض ساجدين ، وكان هناك من ألقاهم إلقاء ليسجدوا ،  
وحيث يمكن أن يجاب بأنه لامانع من أن نفهم أن موقف السحرة  
كان فيه جانبان كما ينبغي في تفسير القرآن نفسه ، جانب الإيمان ،  
وقد نبع من اقتناعهم بالحق حين ظهر لهم ، وكانوا فيه متصرفين  
من تلقاء أنفسهم ، دالا على اقتناعهم ، وجانب دفعهم الله إليه  
دفعاً ، وكانهم لاحيلة لهم فيه ، وهو مظهر لإيمانهم ، أعني الصورة  
الشكلية التي عبروا بها عن الإيمان ، فقد كان يكفيهم للإيمان عند  
الله أن يعتقدوا أن هذا حق ، وأن يطبقوه في أنفسهم ، ويكفيهم  
للإيمان عند الناس أن يعلنوا عن إيمانهم بأي تعبير يدل على الإيمان ،  
ولكن هذا الموقف الخطير ، يضم موسى الموعود بنصير الله ، وهو في  
حاجة الآن إلى ظهور هذا النصر لأن هذه الجموع الحاشدة تنتظر  
النتيجة ، وكذلك يضم فرعون الذي يمتلئ ثقة بنفسه وقوته ،  
ويفيض طغياناً وتجراً ، وينتظر أن يتشفى في هزيمة موسى ،  
وأن يزداد تيهها وعتوا أمام شعبه ، كل ذلك يحتاج إلى ظهور نصر

الله بصورة بيّنة مؤثرة ، ولو آمن السحرة في أنفسهم ، أو معبرين بكلام على ، أو نحو ذلك ، لما تحقق نصر الله بالصورة الملائمة للموقف ، ولذلك دفع الله السحرة حين آمنوا إلى السجود بهذه الصورة المفاجئة دفعا ، لتكون هذه الصورة أمام هذه الجموع المحتشدة هي النصر الميّن لموسى ، والخزى المهين لفرعون .

فالإيمان إذن كان نابعاً من داخل نفوس السحرة حين بهرهم الحق ، أما دفعهم إلى السجود بهذا المظهر المفاجيء ، فقد كان من قبل الله ، ليكون إكراما لموسى وإهانة لفرعون .

ومن الملاحظات في تعبير الآية ، تقديم هارون على موسى ( آمنّا برب هارون وموسى ) ومع أن الواو لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا كما يقول النحاة إلا أنه يمكن القول بأن هذا الترتيب يحتمل أحد أمرين ، أو يحتملها معا ، وهما :

(أ) مع أن موسى هو المرسل أساساً ، وهارون مرسل تبعاً وعاوناً ، إلا أن هارون كان هو المتحدث أمام فرعون والجماهير ، يحكم فصاحة لسانه التي اختارها موسى من أجلها ، فالسامعون قد يعتقدون أن هارون هو الرسول الأصلي ، ولذلك قدمه السحرة في تعبيرهم .

(ب) أن السحرة حين امتلأت نفوسهم بالإيمان ، كان مهمهم الاتجاه إلى الله ، وجلال الله وعظمته حينئذ يعطى على كل منزلة ، فلا يهمهم حينها منزلة هذا أو ذاك بجوار الله سبحانه ، فحتى مع علمهم بأن موسى هو الرسول الأصلي ، لا يعتنون بتحديد درجة هذه المنزلة في الترتيب حين تكون نفوسهم مغمورة بجلال الله

وعظمته ، فلاخير أن يعبروا عن بعض المرسلين بما لايسىء إليهم  
من مثل ما عبروا به من الترتيب بين موسى وهارون .  
ومن الملاحظات أن السحرة صاغوا كل ماسيطر عليهم حينئذ  
في قولهم ( آمنا برب هارون وموسى ) فالإيمان بالله هو كل ما في  
نفوسهم ، وهو المحرك لهم في كل ما يقولون الآن وما يفعلون .

#### ٥ - موقف فرعون :

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم  
السحر فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبتكم في جلوع  
النخل وتعلمن أينما أشد عذاباً وأبقى » .

وفي هذا الرد من فرعون نتيجه النقاط الآتية :

١ - أهم ما عني فرعون هو الدفاع عن سلطانه ، فليس همه  
الإيمان أو عدمه في مثل هذا الموقف الذي يمس سلطانه ونفوذه ، ولذلك  
لم يقل لهم : كيف تؤمنون ، أو كيف تتركون ديني ، أو نحو ذلك ،  
ولما ينكر عليهم قبل كل شيء خروجهم عن سلطانه . فيقول هنا  
( آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ ) ، وكذلك في سورة الشعراء وأيضا  
هذا المعنى في سورة الأعراف ( قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ؟ )  
ومعنى ذلك أن عدم طلبهم الإذن منه هو الجريمة التي يوجهها إليهم  
فرعون وليس الإيمان ذاته ، ولا يفهم من ذلك استعدادة للإيمان ،  
أو عدم اهتمامه بمحاربة المؤمنين ، وإنما يفهم منه أن الدفاع عن السلطان  
مقدم على الدفاع عن كل شيء ، وذلك بطبيعة الحال عند من يقوم  
سلطانه على السلطان وحده ، دون سند من المبادئ والعقيدة .



٢ - من حيث الدين نلاحظ أن فرعون تهرب من الحديث عن الله من حيث الإيمان به أو عدمه : مع أن الموقف في الحقيقة كله يدور حول هذا الموضوع ، لأن موسى يدعى أنه مرسل من عند الله . وفرعون يتهمه بأن مجرد ساحر . وقد جمع السحرة ليثبت له أنه مجرد ساحر ، فكان الوضع يقتضى ، أن يبين فرعون موقفه من موضوع الخصومة الذى يدور حوله الموقف كله . ولكنه تجاهل الموضوع ، وعمد إلى شيء ثانوى ، أو مترتب على الموضوع . وهو إيمان السحرة . وهذا الهروب من فرعون يدل على أجد أمرين : إما أنه حين ظهر الحق عرفه واقتنع به ، أو على الأقل رجح في نفسه ولكنه تجاهله عنادا كبيرا حتى لا يهوى سلطانه في تصوره ، وهذا المعنى يشير إليه التعبير بوضوح ، وبعضه كلامه المنبث في مواضع أخرى من القرآن الكريم . ومن ذلك طلبه من وزيره هامان ( يا هامان ابن لى صرحا لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا .. ) فطلبه بناء الصرح يؤكد أن فرعون يشعر في أعماقه بوجود الله وإلا فليس من المعقول أن يبني صرحا لشيء يوقن بعدم وجوده . وحتى في نفيه الظاهري لم يجزم بعدم وجود الإله . وإنما جعله شكاً وظناً ( وإني لأظنه كاذبا ) والاحتمال الثانى الذى يشير إليه هروب فرعون من حديث الإيمان ، أن يكون فرعون كشأن الملوك وأصحاب السطان : حينما وجد أن سلطانه ونفوذه يوشك أن يهتز أمام الجموع الغفيرة من شعبه ، نسي الله والإيمان وكل شيء إلا الدفاع عن سلطانه ونفوذه ، ولذلك لم يحاسب السحرة حينئذ على أنهم آمنوا . وإنما على أنهم خرجوا عن طاعته

وسلطانه عليهم ، فآمنوا دون إذن منه . فالتعبير إذن لا يحمل دلالة على شعور فرعون بالله ، بمعنى أن التعبير لم يقصد منه ذلك ، وإنما قصد به الدلالة على حرصه على سلطانه .

٣ - العقاب الذى حددته فرعون للسحرة ( فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ) يتضمن أمرين :

(أ) أحدهما الرغبة في أقصى التعذيب للسحرة ، ويتمثل هذا في ثلاثة ، أحدها إيلاهمم بالتعذيب الجسدى ، وهو قطع الأيدي والأرجل ، وثانيها التشويه للسحرة ، فليس القلع للأطراف عاديا أو مستويا ، وإنما في صورة التشويه والتمثيل بأن يتقطع من كل منهم يده اليمنى ورجله اليسرى أو يده اليسرى ورجله اليمنى ( من خلاف ) ، ولو كان فرعون يريد لهم الحياة بعد ذلك لكان لهذا العمل شيء من حكمة أو هدف ، ولكنهم سيحوتون في كل الأحوال ، فليس له من هدف إذن إلا زيادة تعذيبهم بالتشويه ثم اتخاذهم عبرة . وثالثها الحكم عليهم بالموت البطيء ، حين يصلون في جذوع النخل ، ويتركون هكذا حتى الموت .

(ب) الأمر الثانى رغبة فرعون في أن يجعل السحرة عبرة وتخويفا للناس ، حتى لا يفكر أحد في أن يصنع ما صنعوا من الإساءة بالله والخروج من سلطان فرعون ، ويدل على هذا أمران ، أحدهما تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، أعنى التشويه ، فإن التشويه إنما يعنى من سيعيش بين الناس ، فلا يجب أن تنقر منه العيون ، والسحرة يعلمون أنهم ميتون ، والأمر الآخر صلبهم في جذوع

التخل ، فمن الواضح أن المقصود به لإرهاب غيرهم وصدده عن أن يقتدى بهم .

وإذا كان كل عمل يقدم عليه الإنسان إنما ينبع من شعور معين في نفسه ، فيمكن أن نتساءل عن المشاعر أو الدوافع النفسية ، وراء هذا الصنيع من فرعون ؟ ، وحينئذ نستطيع أن نقول : أما شدة الرغبة في تعذيب السحرة ، فإنه يدل على شدة الغيظ منهم ، وهذا بالتالي يدل على شدة شعوره بالهزيمة في هذا الموقف الشديد الأهمية ، فلولا شعوره بالهزيمة شعوراً هز كيانه وأفقده الثبات والثقة في النفس ، لكان يكفيه أن يأمر بعقاب عادى كالسجن أو القتل العاды ، وأما شدة رغبته في جعل السحرة عبرة لغيرهم ، فإنه يدل بوضوح على شدة خوفه من زعزعة سلطانه وملكه ، فلو كان حينئذ واثقاً من نفوذه وسلطانه لكان يكفي أن يأمر بالأيتبع السحرة أو موسى أحد ، وهو واثق من تنفيذ أمره ، ولكن ما فعله فرعون يدل نفسياً على عدم ثقته بثبات سلطانه في نفوس شعبه ، وليس المهم واقع الشعب ، هل هو طائع أو مزعزع الطاعة ؟ وإنما المهم شعور فرعون في أعماق نفسه ، فقد يسيطر على الإنسان وهم : لاجود له في الواقع ، ولكن صاحبه يتوهم وجوده ، فيتصرف بناء على هذا الوهم ، وأغلب الظن أن سلطان فرعون كان ثابتاً متيناً في نفوس شعبه ، ولكن خروج السحرة عن طاعته بهذه الصورة أمام هذه الجموع الغفيرة ، بالإضافة إلى شعوره بظهور الحق - وشعوره بضعف مركزه بانتصار موسى في هذا الموقف ، كل ذلك جعل فرعون يتوهم أن سلطانه قد يكون في خطر ، وأن هناك من المشاهدين

أوغريهم من يمكن أن يفعلوا ما فعله السحرة ، فصب نقيته وما أمثله عليه هذه المشاعر على السحرة ، متخذاً من تعليلهم وتشويهم دعامة تعيد إلى سلطانه الاعتدال ، وإلى كيانه ونفسيته اللبثات .

٤ - ثم لجأ فرعون إلى السخرية ( ولتعلن أيما أشد عذاباً وأبقى ) موازناتى زعمه بينه وبين الذى آمن به السحرة ، سواء أكان موسى كما يفهم من ظاهر كلامه ، أم الله سبحانه ، قائلاً للسحرة : سأفعل بكم هذا العذاب لتعلموا من منا أقوى وأقدر على التعليل من جهة ، وأبقى وأدوم نفعا من جهة أخرى ، أى أنه أقوى فى حالى الضر والنفع من موسى الذى خرجوا من طاعة فرعون ليؤمنوا له . ومن الواضح أن فرعون أقوى سلطاناً من موسى ، وأنه يعلم ذلك ، ولكنه يسخر من موسى ليصرف الناس عن التفكير فى اتباعه ، ويسخر من السحرة اللذين تركوا مصدر الضر والنفع ليؤمنوا بمن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً فى زعم فرعون .

وكان فرعون حين أصدر قراره بتعليل السحرة ثم قتلهم بهذه الصورة ، شعر براحة نفسية لإحساسه بأنه فعل شيئاً يعيد إلى نفسه الاطمئنان على ملكه ونفوذه وهيئته ، فبدأ يسخر ، وهذا لأن أسلوب السخرية إنما ينبع غالباً من شعور بالقوة ، ولو من الناحية النفسية .

#### ٦ - جواب السحرة :

ولكن السحرة أو المتحدثين بلسان السحرة ، ويروى أنهم كانوا اثنين وسبعين ، بالإضافة إلى رسالة موقفهم البطولى أمام

جبروت فرعون ، كانوا من الذكاء فى درجة عالية ، حيث لم تغب عنهم كل أهداف فرعون من كلامه وسلوكه ، فردوا عليه وكأَنهم يخاطبون أعماق نفسه ، ليردوا عليه كيدا بكيدا ، وعمق تفكير بعنق إجابة .

ويمكن تلخيص النقاط التى بدت مقصودة خلال إجابة السحرة فيما يأتى :

١ - أدرك السحرة أن فرعون لم يكن يعنيه فى هذا الموقف بالذات إلا سلطانه والحفاظ على هيئته أمام شعبه ، فكانت إجابتهم أولا من هذه الزاوية ، حيث تركوا حديث الدين والإيمان حينئذ ولجأوا إلى إيلاام فرعون وتحديه فى الجانب الذى صب حرصه عليه وهو السلطان والهيبة ( قالوا لن نؤثر لك على ماجئنا ... ) وكأَنهم يقولون له : بعد ظهور الحق لنا لم تعد لك هيبة فى نفوسنا ، ولم يعد لك سلطان على عقولنا ، وكما أن فرعون بدأ حديثه بتجريم خروجهم عن طاعته ، فكذلك هم بدءوا حديثهم بالإصرار على الاستهانة بطاعته وسلطانه ، وكونهم يصرحون لفرعون ، مدعى الألوهية ، بأنهم يؤثرون عليه أحدا - أيا كان هذا الأحد - هى استهانة بالغة به ، بل هدم لألوهيته التى يعاملهم على أسسها ، فإن الإله بدهاة يجب أن يكون فوق الجميع .

٢ - يلتزم السحرة المنهج العقلى القويم فى قولهم ( لن نؤثر لك على ماجئنا من البيئات والذى قطننا ) وتركيز الطريق العقلى فى جعلهم ظهور الحق ( البيئات ) فوق كل شئ ، ومحورا لكل شئ . ولذلك يقولون لفرعون: لن نؤثر لك على الحق ، لان الحق يجب أن يكون

مقدماً على كل شئ ، وعلى كل أحد ، ولذلك نجد هنا دقة شديدة فيما يوحيه التعبير من تقديمهم ظهور الحق على ذات الله سبحانه ( والذي فطرنا ) ، حيث يقولون لفرعون : لن نؤثرك على الحق وعلى الله الذى خلقنا ، فقد يقال بمنطق التدين : كيف يقدم السحرة ظهور الحق أو أى شئ على الله ، ويجاب عن ذلك بأن المفسرين يرون أن التعبير يحتمل اليمين ، أى أنهم يحلفون بالله الذى خلقهم ولكن الواقع أن هذا المحمل يجعله أسلوباً ضعيفاً ، أو لايناسب سمو أسلوب القرآن ، وكذلك كل احتمال ينزل بأسلوب القرآن عن قمته التى لاينازع فيها يجب أن يستبعد ، مهما كان صحيحاً فى المنطق العرن ، فإن المحافظة على ملامة المعانى لنظم القرآن وإعجازه أهم مايجب التزامه نحو القرآن ، كما يقول الزمخشري ( النظم هو أم الإعجاز ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم مايجب على المفسر <sup>(١)</sup> ) وإذن فاحتمال الحلف بتعبير ( والذي فطرنا ) من حيث وضعه فى نسق النظم مستبعد ، لأنه لا يلائم جلال أسلوب القرآن ، أما ما يناسب أسلوب القرآن ، فهو أنهم قدموا ظهور الحق على ذات الله سبحانه قصداً ، لأن المحاورة كما سبق تقتضى منهجاً عقلياً من أهم مايلزمه التجرد أثناء التمازج من التعصب للمقيدة ، أو الانتباه إلى أى شئ سوى تحكيم العقل الذى يسلم به الطرفان <sup>(٢)</sup> ، فكأن السحرة يقولون لفرعون : إن ظهور الحق هو الذى جعلنا نرفض طاعتك ، فالحق أولى بالاتباع منك ، ولولاه

(١) أنظر الكشف تفسير الآية ٣٩ سورة طه .

(٢) أنظر نقد النشر للقدامة بن جعفر فى أدب المجادلة .

ما عرفنا طريقنا إلى الله ، فظهور الحق سابق في الترتيب الزمني والعقل على معرفة الله والإيمان به ، فتقديم السحرة لظهور الحق على ذات الله يتلأم إذن مع الترتيب الزمني والعقل لمعرفة الله والإيمان به ، لأن المؤمن إذا لم يميزه عقله الحق من الباطل أولاً ، فإن يتبدى إلى طريق الله ، وهذا المعنى هو الذي يبدو بوضوح أن السحرة يريدون إبرازه ، في صورة أن التماس الحق عن طريق البيّنات وفي مقدمتها العقل أول ما يجب على العاقل التزامه وتقديمه على كل شيء

٣ - بعد إظهار الحق ، يعلن السحرة وقفة التحدي لفرعون ، وتجاهل كل ما يصبه من وعيد ، فلم يخافوا ، ولم يطلبوا منع العذاب عنهم ، بل طلبوا تنفيذ ما قضى به فرعون ( فاقض ماأنت قاض ) وهذا الموقف يمثل عزة الإيمان ، وصلابة التحدي ، وعمق المتفصحية وليس من المتصور أنهم يريدون الموت فيطلبوه من فرعون ولكنه أسلوب السخرية والتحدى .

٤ - كما لجأ فرعون إلى السخرية بادل السحرة السخرية أيضا ، ولكن الفارق الواضح بين السخريتين كبير وعميق ، فإن سخرية فرعون تعتمد على التجاهل والتضليل ، حيث يتجاهل ذات الله سبحانه ، موازنا بين نفسه وموسى ، ولم يجعل الموازنة موضوعية شاملة ، وإنما قصرها على المقدرة على التعليب وتقديم النفع . أما سخرية السحرة ، فإنها تعتمد على العقل ، وعلى الأحكام المنطقية التي لا يختلف عليها العقلاء ( فاقض ماأنت قاض وإنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنة برينا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا

عليه من السحر والله خير وأبقى ) وحين نتأمل سخرية السحرة  
نلاحظ أن أبرز نقاطها :

١ - السخرية من قوة فرعون وجبروته المتمثل في قضائه عليهم  
بما قضى ، وهم في الواقع لا يطلبون منه هذا القضاء ولا يرضونه ،  
ولكنهم من باب السخرية والاستخفاف كأنهم يطالبونه بأن يقضى  
وينفذ ما يريد ( فاقض ) .

وتكتمل سخريتهم من فرعون وقضائه حينما يسوقون إليه  
تعليل استخفافهم بقضائه فيهم ، وهو أنه يحكمه عليهم بالموت  
لم يفعل سوى أن عجل شيئا مقضيا ، فلموت قادم عليهم مهما  
طال بهم الأجل ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه يحقق لهم  
أمنية ، هي لقاء ربهم ، وينقلهم من حياة دنيا إلى حياة عليا ( إنما  
تقضى هذه الحياة الدنيا ) وفي سورة الأعراف ( إنا إلى ربنا منقلبون )  
فهم إذا ميتون ، سواء بقضائه أم بدون قضائه ، وفي كل حال  
يكفيهم أن الموت سيدنيهم من ربهم ، ويرجعهم إليه ، وينقلهم  
من هذه الحياة التافهة الدنيا إلى حياة أسمى .

وكل هذا التهوين من قرار فرعون ، والاستخفاف بجبروته .  
سخرية بالغة موجعة لفرعون ، فإنه إنما يريد بتعذيبهم وقتلهم أن  
يخلصهم ألما وأسفا ، فإذا هم عكس مايتوقع ، وإذا هو المتألم لنفسه  
في أن يبلغ من نفوسهم ما يريد .

٢ - من أعمق ماتنضمه سخريتهم الموجعة من فرعون ، أن  
يقولوا له : إن السبب في إيماننا بالله أننا نريد أن نغسل عن أنفسنا  
جريماتك التي أجرمتها فينا : وهي إكراهك إيانا على السحر . وكأنهم



بهذا يزيدون فرعون غيظاً وإيلاماً ، فقد غاظوه بخروجهم عن طاعته ، وزادوه غيظاً بسخريتهم وقولهم إنهم يؤمنون ليمسحوا عن أنفسهم جرائمهم بعد التماسهم عفو الله عن خطاياهم ( إنا آتينا بريناً ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ) فالحقيقة أن المؤمن إنما يؤمن حين يظهر له الحق فيعرف الله ، ولكن السحرة يلتبسون هذا السبب إهانة لفرعون وسخرية منه .

٣ - قولهم ( والله خير وأبقى ) تعبير حقيقي لاسخرية فيه ، فالله خير حقيقة وأبقى من كل أحد وكل شيء ، ولكن جانب السخرية أن التعبير يتضمن رد السحرة على قول فرعون لهم ( ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ) وكأنهم يقولون له : بل الله أبقى منك ، وهو سبحانه خير منك ، لأنك تباهى بشدة عذابك للأبرياء والله سبحانه منزّه عن ذلك ، وهذه المفاضلة وإن كانت عند المؤمنين بسيطة عادية ، إلا أنها عند فرعون سخرية بالغة بملكه وجبروته .

#### ٧ - العبرة :

هذه المحادثة تبرز لنا موضوعاً يحرس القرآن الكريم على إظهار أهميته ، وهو التشبث بالحق ، وعدم التخلّي عنه لإرضاء لأي قوة ، أو هروباً من أي ضغط ويشتمل هذا في الصراع من أجل الحق بصفه عامة ، فمن أسس الإيمان الواضحة في القرآن الحض على التشبث بالحق ، مهما كلف صاحبه ذلك من مصارعة الباطل ومقاومته ، ولا يعفى الإسلام مسلماً من مقاومة الباطل ومصارعته إلا إذا نفذت كل وسائل مقاومته وتحقق فيه العجز الواضح

وهذا المعنى شديد الوضوح في القرآن ، وتعرض له آيات ومواضع عديدة بآساليب مختلفة ، ومن أوضح هذه الأساليب وأعماقها وأشدها تأثيراً في النفوس ، هذا المعنى الذي سبق في أسلوب محلوقة بين الملائكة والذين أدركهم الموت وهم مقيمون على الباطل خوفاً من جيروث الأقوياء والطفلة ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفوراً<sup>(١)</sup> ) فظلم الناس نوع من الباطل مهما كان نوعه ، وإن كان السياق هنا يرجع لإرادة الكفر ، والعنبر الذي اعتلر به ظلمو أنفسهم من أنهم كانوا يخشون ظلم الأقوياء وطفياهم ، هذا العنبر يسلم الملائكة بوجوده ، ولكنهم يرفضون رفضاً شديداً الاستسلام له ، مقررين وجوب مقاومة الطفلة والظالمين ، وأدى صور المقاومة الرحيل إلى مكان آخر من أرض الله الواسعة ، فالمقاومة للظلم في الإسلام ليست مجرد فضيلة أوحسنة ، وإنما هي واجب أساسي يقوم عليه الدين ، ولا يعفى منه إلا العاجزون ، بل نلاحظ في دقة تعبير القرآن ، أنه حتى مع عجزهم ، لم يقل إنهم غير مكلفين أو مطالبين بالمقاومة ، بل هم مطالبون أساساً ولكن عذرهم الواضح ينتظر معه عفو الله ومغفرته ، ليس بالحق ، ولكن مجرد رجاء للعفو ( فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ) . فمثال هؤلاء . حينئذ يكونون في حائرة

(١) من الآيات ٩٧ - ٩٩ سورة النساء .

الإكراه المشار إليها بقوله تعالى ( إلا من أكره وقلبه معطش بالإيمان ) ولكنها في كل حال استثناء وليست قاعدة ، فالقاعدة وجوب المقاومة في كل الأحوال ، والاستثناء هو بعض الأحوال القاهرة التي يفقد فيها المرء كل وسائل المقاومة ، وتستغل عليه كل المسالك والطرق ، كما وصف الله ( لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ) .

وإذن فهذه المحاورات تتضمن في عبرتها موضوعاً من أسس الإسلام الواضحة في التشريع ، وإن تجاهل المسلمون وضوحه في التطبيق .

ومعنى ذلك أن موقف السحرة في مقاومتهم لطفيان فرعون لا ينبغي أن ينظر إليه على أنه بطولية فردية ، أو أنه مثال يرتفع عن مقدرة عامة الناس ، بل يجب أن ينظر إليه على أنه أداء لواجب ، غاية الأمر أن السحرة أدوه في أكمل صور الأداء ، والقرآن من منهجه أن يعرض المثل في صورتها الكاملة ، لتكون قدوة للمؤمنين وللمتجهين إلى الإيمان .

وإذا أردنا إيجاز نقاط نخرج بها من هذه العبرة نقول :

١ - موقف السحرة من طغيان فرعون ليس فضلاً زائداً عن الواجب ، وإنما هو واجب ، وفضل السحرة فيه أنهم أدوه في أكمل صور الأداء .

٢ - مافعله السحرة من مقاومة الطغيان ليس مثلاً نادراً في القرآن ، وإنما هو تطبيق عملي لدعوة القرآن إلى مقاومة كل طغيان ، وكل ظلم ، وكل باطل ، ويكفي وضوحاً في ذلك أن النهي عن المنكر واجب أساسي على كل مسلم ، كما هو معروف .

٣ - قد يقال : فما جدوى مقاومة الضعيف مادامت لا تحقق  
لصاحبها نصرا ، وللمقاومة نفسها كيانا ؟ ، وقد يقال أيضا :  
فماذا فعل السحرة بمقاومتهم غير أن عرضوا أنفسهم للموت ؟

والجواب أن أصحاب العقيدة الدينية في أي دين ، بل وأصحاب  
دعوات الإصلاح عامة ولو كانوا من غير المؤمنين ، لا ينظرون إلى  
الحياة هذه النظرة السطحية القصيرة ، فحب الحياة ، وولع النفوس  
بحب النفع العاجل يجعلها ترى كثيرا من أمور الحياة أكبر من  
حقيقتها ، لشدة رغبتها في هذه الأمور وحرصها عليها ، أما  
المؤمنون وأصحاب الدعوات فهمم الأول ، بل همم كله في المبادئ  
وهم يرون النصر كله في انتصار المبادئ ، وليس في النصر المادي  
أو العسكري ، وانتصار المبادئ ، ليس في أن تكون لها السيادة ،  
فهذا كمال النصر وغايته ، أما بداية الانتصار فهو الإصرار على  
المبادئ ، والا استعداد للتضحية في سبيلها كما فعل السحرة ، فإن  
صمودهم وإصرارهم كان نصرا أدبيا عاليا لهم ، كما كان هزيمة  
نفسية وأدبية بالغة لفرعون ، بدليل أنهم أفقدوه ثباته واتزانته ،  
فمرة يأمر بتقطيع أطرافهم من خلاف ، ثم صلبهم في جلوع النخل ،  
ومرة يأمر وزيره بأن يوقد على الطين فيبنى له صرحا يبلغ به أسباب  
السعوات ، ومرة يصرخ من موسى متهما إياه بالتجبر حينما :  
ويتهم أخرى أحيانا .

٤ - صدق الإيمان يتمثل في النظرة الصحيحة إلى الحياة  
الدنيا وما فيها ، وهي أنها مجرد معبر إلى حياة الخير والبقاء في

الآخرة ، كما نظر السحرة هذه النظرة الصحيحة إلى الحياتين .

٥ - لا يتخلى الله قط عن عباده المؤمنين ، بل يجعل لهم آيات تدل على إكرامه ، وعلى أن تضحياتهم لا تذهب هباء ، كما أكرم السحرة بأن جعل لهم ذكرا خالدا في الدنيا قبل جزاء الآخرة وكما أكرم موسى بتحقيق هبطه وهو النجاة بقومه من استعباد فرعون كما في القصة ، ثم بإهلاك فرعون ومن معه غارقين في المم .

٦ - التمسك بالحق وإعلانه في مواجهة الطغيان يكفى من مزاياه المحافظة على كيان الحق وإبرازه لينضم إليه الراغبون فيه ويهتدوا به ، بخلاف ما لو سكت أصحاب الحق حينئذ ، فإن الحق سيختفى ولا يبقى إلا كيان الباطل متمثلا في الطغيان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِن قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُضْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْرَجْنَا كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَنْتَعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ يَتَنَبَّهَةً قُوَّتُهُ وَكَثَرَتْ جَمْعُهُ وَلَا يُنْسَأُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُحَرَّمُونَ ، فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْأَيْمَانِ لَمَّا يَأْتِيهِمْ قَارُونَ إِنَّهُ لَكُلُّو حَظَّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ، فَحَسَبْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ، وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّا اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّا لَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ، تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١)

(١) الآيات ٧٦ - ٨٣ سورة القصص .

## عناصر المناورة

### - الموضوع :

وموضوع المناورة يتعلق بشخصية قارون فيما اعتراه من غرور بالمال والجاه اللذين أنعم الله عليهما ، والقرآن الكريم في دقته البالغة يعرض علينا - رغم الإيجاز - شخصية قارون بتاريخها كله منذ البداية ، وذلك في نقاط :

(1) « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم » فهو أصلاً من قوم موسى ، قيل كان ابن عم موسى ، وقيل بل كان عمًا لموسى ، وكان حسن الصورة ، كما كان من أعلم بني إسرائيل ، وتعبير القرآن بأنه من قوم موسى يحتمل مجرد القرابة ، أى أنه كان قريبه نسباً ولم يكن مؤمناً ، ويحتمل أنه كان من أتباع موسى المؤمنين ، ثم أفسدته النعمة فخرج من رحاب الإيمان ، مؤثراً الدنيا على الآخرة ، ويرجع هذا الرأي أن الآية نفسها تتحدث عن القوم بالإيمان ضمناً ، حيث ينصحونه بخلق المؤمنين ، فإذا كان القوم مؤمنين ، ثم وصف بأنه منهم ، كان معناه أنه مؤمن مثلهم ويرجعهم أيضاً تعبیر ( فبغى عليهم ) حيث إن هذا التعبير يفهم منه أنه تحول بعد النعمة إلى حال مخالفة لحاله الأولى ، وحيث كانت حاله الثانية بعيدة عن الإيمان ، كان معناه أن حاله الأولى كانت في الإيمان .

ولكن المؤكد أنه انتهى به الحال إلى الغرور والبغى ، وتناسى فضل الله عليه ، بل تناسى الدين نفسه .

## ٢ - أطراف المحاورة ومواقفهم :

وقد اشترك في هذه المحاورة أكثر من طرفين ، ورغم أن مواقف بعض الأطراف متقاربة ، كموقف المؤمنين ثم موقف العلماء من قوم موسى ، إلا أن هذا التقارب لا يُلغى بعض السوايق الهامة بين الموقفين ، ولذلك نعرض كلا منهما منفصلا ، وأما الأطراف بصفة عامة فنعرضها بالترتيب الذي ساقته الآيات ، مع اقتران كل طرف بموقفه ، كما يلي :

### ( أ ) موقف قارون :

ويبدأ موقف قارون فيما يتعلق بالمحاورة من بداية إفساد النعمة إياه ، فلو ظل قارون كما هو ، على حاله الأولى لم يتغير ، سواء أكانت حال إيمان أم حال كفر ، لم يكن يعنى القرآن بشأنه فيتخذ مثلا ، فما أكثر الكافرين من الناس ، وما أكثر المؤمنين منهم ، ولكن القرآن لا يعنى بحديث الأفراد منهم ، لأن كلا الحالين غير غريب ، أما الغريب الذى يستحق أن يتخذ عبرة ومثلا ، فهو تحول الإنسان من حالة إلى حالة ، مستغلا نعمة الله فيها هو شر . - وكان الآيات تسوق تغير حالة قارون في الاسئلة المقترضة ، والإجابة المصرح بها كما يلي :

- السؤال المقترض : ماذا حدث في حالة قارون؟ ، والجواب : أفسدته النعمة ، فبقي على قومه . ثم سؤال آخر هو : وما النعمة التى أفسدته؟ والجواب ( وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ) أى أن الله أعطاه كنوزا تبلغ من كثرتها وضخامتها حدا



لاتصل المقول عادة إلى تصوره ، ولذلك لا ينبغي الحديث عن الكتوز نفسها ، وإنما عن مفاتيحها التي بلغت حد أن الجماعة القوية من الناس تعي بحملها . ثم سؤال آخر هو : وما مظهر إفساد النعمة لإياد ، والجواب أن هناك عدة مظاهر يدت منه ، وهي التي كانت السبب المباشر للمحاورة .

وأولها البنى ( فبنى عليهم ) وثانيها ضعفه أمام المال والجاه حتى سيطر عليه الغرور متمثلاً في الخيلاء والتباهى الذى عبر عنه قوله فى قولهم له ناصحين ( لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ) وثالثها استغلاله ما أنعم الله به عليه من المال والجاه فى الإفساد فى الأرض ( ولا تبغ الفساد فى الأرض ) .

#### (ب) موقف المؤمنين :

والذى بدا من قارون كان منكراً واضحاً يجب على المؤمنين أن ينهوا عنه ، وقد نهوا قارون عن المنكر ، ولكنهم حتى لا يشعروا أنهم يلتمسون أخطاهه وحدها ، أرادوا أن يكونوا ناصحين له ، فنصحوه فى صورة الأمر بالمعروف ، وقد جمعوا حينئذ بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى النقاط الآتية :

١ - ينهون قارون عن الخيلاء النابعة من ضعف النفس أمام النعمة ، فمن صفات التضج والاكتمال فى المرء أن يستطيع الثبات أمام المثيرات ، فلا تضعف نفسه فى أى من الحالين . ، حال الخير وحال الضر ، وضعف النفس فى حال الخير والنعمة يتمثل فى شدة الفرح الذى يسيطر على النفس فيخرجها عن اتزانها واعتدالها ،

وضمها في حال الضر يتمثل في شدة الحزن الذي يخرجها أيضا عن حالة الاعتدال والوقار ، ويوجه القرآن الكريم إلى هذا الاعتدال في قوله تعالى ( لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ) فالمراد بالأسى هنا ، سيطرة الشعور بالخيبة أو الحسرة حتى تصل النفس إلى حد فقدان الثبات ، وكذلك الفرح ، المراد به ما يصل إلى حد الزهو وفقدان الاعتدال ، وهو ما يريده قوم قارون ، الذين يلفظون القول له ، بأن هذا تشريع الله ، وكأنهم يقولون له . لسنا نحن الذين نصيب بزهورك ونحيا لثلك ، بل الله سبحانه يكره هذا الخلق .

٢ - يحاولون الرفق بنفسية قارون ، من باب الدعوة إلى الله بالحكمة ، فيطلبون منه أن يؤدي حق الله في ماله ، ولكنهم يصوغون هذا الطلب في ثلاثة معان أساسية ، أحدها تذكيره بأن كل ماملك إنما هو من عند الله ( آتاك الله ) وثانيها أن يراقب الله في ماله مراقبة عامة ، سواء في مباشرته إياه ، أو في أداء حقه ، ولكنهم يذكرونه بأن ما يؤديه في كل الأحوال مدخر له ، وسيجده في ( الدار الآخرة ) وثالثها ألا يظن أنهم يريدون له الانصراف عن الدنيا ، بل يطلبون منه في صورة الأمر ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، لأن ترك الدنيا كلية ليس من متطلبات الإيمان .

٣ - يتدرجون بقارون في رفق إلى درجة أسمى مطالبين إياه أن يراعيها حتى يبلغها ، وهي تذكيره بأن الله جعله في وضع أحسن من غيره ، وهذا إحسان من الله إليه ، حيث إن الإحسان معناه الأمر الأحسن والأفضل ، والخلق يقتضى من الإنسان أن يجزى

الخير بمثله ، فكما جعلك الله في المكانة الفضلى والحسنى . كذلك ينبغي أن تتخلق أنت بالخلق الأحسن والأفضل من خلق غيرك ، سواء في نفسك أو ممالك أو في تعاملك مع الناس ، أو غير ذلك مما يفهم من إطلاق الإحسان ( وأحسن )

٤ - يعودون إلى أسلوب النهي ، فيطلبون منه ألا يطلب الفساد في الأرض ، في أى صورة من صور الفساد ( ولا تبغ الفساد في الأرض ) وكأنهم يقولون له : لسنا نحن الذين نضيق بفسادك أونتهالك عنه من تلقاء أنفسنا ، وإنما هو شئ ٤ يجب أن تخشى الله فيه قبل غيره ( إن الله لا يحب المفسدين ) .

#### (ج) جواب قارون النقري :

وتتركز المحاور في هذه الإجابة التي رد بها قارون على المؤمنين لقد حاول أن يلقى كل ما طلبوه منه ، بمحاولة هدم الأساس الذي بنى عليه المؤمنون كلامهم ومطالبهم ، فالمؤمنون يبنون كلامهم على أن هذا المال من عند الله ( آتاك الله ) وبناء عليه تجب مراقبة الله فيه وأداء حقه ، والإحسان كما أحسن الله ، فهو يقول لهم : هذا المال ليس من عند الله ، وإنما من علمى وجهدى وكفائتى ( قال إنما أوتيتنا على علم عندى ) ومادام المال من عنده ومن علمه ، فلا يترتب عليه شئ مما طلبه منه المؤمنون ، وفي هذا مغالطة وتعميه من قارون ، فإن العلم أو الجهد أو الكفاية أو غيرهن ، لا يحققن لصاحبهن شيئا قط لم يردده الله ، فكم من عالم أو مخير ذكى ماهر ، ولا يكاد يجد قوت يومه ، وكم من جاهل غبي تنهال عليه الأموال من كل وجه ، كما يقول الشاعر .

لو كانت الأرزاق تجري على الحجا (١)

هلكن إذن من جهلن البهائم

وحتى لو افترضنا أن المال كان نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للعلم ، فإن العلم نفسه ، والصفات التي تؤهل الإنسان لتحصيل العلم أو التفوق فيه ، كل ذلك هبة من الله ، ولكن قارون يريد أن يهدم الأساس الذي بنى عليه المؤمنون كلامهم ، بهذه المغالطة أو التجاهل أوبتر أهم أجزاء التسلسل المنطقي في الكلام ، ولذلك نجد القرآن الكريم يرد عليه بالتجاهل أيضا ، مما يسميه علماء البلاغة أسلوب الحكيم ، فيتجاهل ادعاءه أن المال من علمه هو وليس من عند الله لأن هذا التهميه قد يخدع به بعض بسطاء العقول ، وكأن القرآن يدل أن يحاوره في مصدر المال يريد أن يحاوره في مصير هذا المال ، كأنه يسأله : إذا كان علمك هو الذى أكسبك هذا المال ، فهل يستطيع هذا العلم أن يمنعك أو يمنع مالك من إهلاك الله ؟ وكأن القرآن أيضا يقول له : إذا خفيت عليك الإجابة ، فإن أخبار السابقين الذين أهلكهم الله ، مع كونهم أقوى منك فيما تدعيه ، وأكثر جمعا من مالك الذى غرك وأفسدك ، هذه الأخبار فيها الجواب

وليس الأمر في حاجة إلى عرض ماأفاض فيه المفسرون دون دليل من تفسير نوع العلم الذى كان لدى قارون ، فليس المهم نوع العلم ، ولكن المهم هو ادعاؤه أن هذا المال جاء نتيجة لمواهبه وليس من عند الله .

(١) الحجا العقل .

ووصف هذا الجواب من قارون بأنه جواب نظري ، لأنه يتمثل في الكلام الذي رد به على المؤمنين وهذا بخلاف جوابه العملي .

#### ( هـ ) الجواب العملي :

كان قارون لم يكشف بالجواب الكلامي السابق ، وإنما أراد أن يبين لهؤلاء المؤمنين أنه يتكلم عن واقع ، وأن هذا الواقع في رأيه أبلغ من الكلام ، فأراد أن يبين لهم مدى تمكنه من ماله وجاهه ، وكيف أنه لاسلطان لأحد عليه فيما يملك ، بالإضافة إلى إظهار مايتحدى به المؤمنين من مظاهر الغنى والجاه والنفوذ ، وكأنه بهذا المظهر العملي يسخر من كل كلامهم السابق ، فحشد كل مآلديه من أسباب الثراء والجاه والنفوذ في موكب مهيب حافل لم يشهده الناس من قبل ( فخرج على قومه في زينته )

#### ( هـ ) موقف العامة :

وعامة الناس هم الذين يمثلون سطحية التفكير ، وتناول الأمور من جانبها الأقرب والأيسر ، ويحكمون على الأشياء من سطحتها الظاهر ، ولست لديهم المقدرة على الغوص فيما وراء هذا الظاهر ، وهم عادة يمثلون الغالبية العظمى في كل مجتمع ، وقد أشارت إليهم الآية بتعبير ( الذين يريدون الحياة الدنيا ) لأن تفكيرهم حيناً رآوا قارون في زينته وثروته انصب على حب الدنيا ومتاعها ، حيث سيطرت على كل منهم أمنية تمثل خيالا متسلطا ، هو أن يصبح مثل قارون ، فقد بهرهم حظ قارون من الدنيا ، فتمنوا أن يكونوا مثله ( قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ماأوتي قارون

إنه لئو حظ عظيم) ولم يكن لديهم من إيمان المؤمنين ، ولا من تفكير العلماء ما يجعلهم ينظرون قليلا وراء هذه السطحية التي سيطرت على نفوسهم وأمانيتهم

#### (و) موقف العلماء :

وأهم ما يميز العالم أن يكون لديه فكر مستقل ولو نسبيا ، يستطيع أن يزن به الأمور ، وأن يتعمق به فيها وراء السطح الظاهر للآشياء ، فهو يملك القدرة على بحث الأمور في ذاتها ، ثم يستطيع أن يوازن بينها ، ثم يستطيع أن يستخلص منها الحقيقة ، أو نتيجة يمكن أن توصل إلى الحقيقة ، وعلماء قوم قارون كانت الحقيقة واضحة في عقولهم ، ولذلك فزعوا فزعا واضحا حينما رأوا عامة المجتمع متهافتين على مظهر قارون ، معجبين به ، بل جعلوه أمانة وغاية يتمنون بلوغها ، وقد عبر العلماء عن فزعهم وإنكارهم بقولهم للعلماء ( ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ) وكلمة ( ويلكم ) أصلها الدعاء بالهلاك لأن الويل هو الهلاك ، ثم غلب استعمالها في الزجر والإنكار ، وهي هنا تفيد هذا المعنى بالإضافة إلى أنها توحى بفزع العلماء وقلقهم مما يرون ، وكلمة ( ولا يلقاها ) أى لا يعقلها أو يحملها إلا الصابرون ، والضمير في ( يلقاها ) لم يذكر مرجعه في الكلام ، لتكون هناك سعة في فهمه على أى معنى يلائم السياق ، أى لا يتلقى هذه الموعظة من العلماء إلا الصابرون الأقوياء على كبج شهواتهم وأمان نفوسهم ، أو لا يتلقى هذه المنزلة التي تنتظر المؤمنين مما تحدث به العلماء إلا الصابرون ، أو نحو ذلك

ولم يكن فزع العلماء لمجرد تمنى العامة أن يكون لهم مثل ما  
لقارون فيما يوحى المعنى القريب لهذا التعبير ، فالمنوع هو تمنى  
ذات ما يملكه الغير ، لأن هذا التمنى إذا كان في النفس يكون حسداً ،  
فيذا نقله صاحبه أصبح عدواناً على ملك الغير ، وكلا الأمرين  
الحسد والعدوان إثم ومنكر ، ولكن تمنى مثل ما للغير كما تمنى قوم  
قارون ليس من الإثم والمنكر في شيء ، وقد يقال حينئذ : فكيف  
ينكر العلماء شيئاً غير منكر ؟

والجواب أن العلماء كانوا في غاية الدقة ، فهم وإن أظهروا فزعاً  
واضحاً في قولهم ( ويلكم ) إلا أنهم لم يصفوا قوم قارون بالمنكر  
أو الجرم في تمنىهم ما تمتوا ، وإنما جعلوها مفاضلة بين أمانى القوم  
وثواب الله ، قائلين ( ثواب الله خير ) وهذا حكم مسلم به ، وقد  
يقال عندئذ : فقيم كان فزع العلماء إذن ؟ .

والجواب أن فزعهم كان لشيء أعمق من ذلك وأخطر ، فهو لاء  
العامة هم الغالبية العظمى في القوم ، وهذا التمنى بهذه الصورة يدل  
على سيطرة المظاهر على نفوسهم ، والمجتمع الذى تتحكم فيه المظاهر ،  
مجتمع أجوف لا خير فيه ولا مستقبل له ، بل هناك جانب أخطر  
من ذلك آثار فزع العلماء ، وهو أن قارون لم يكن صالحاً ، وإنما  
استغل ما أوتيه في الشر والفساد ، وتمنى غالبية المجتمع أن يكونوا  
مثله معناه أنه مجتمع متجه إلى الشر ، ومشرف على الهلوية ، فأدى  
صور التأمل تنبئ عن أن هذا المجتمع سيكون كله فاسداً لو أصبح  
مثل قارون ، وهذه الصورة لابد أن تفزع كل مصلح ، وكل حريص  
على مصلحة مجتمعه ، ولو لم يكن مؤمناً ، فكيف إذا كان مؤمناً ؟

وقد يقال : فلم لم يصدر هذا الفزع من المؤمنين الذين أنكروا على قارون بقولهم ( لا تفرح ) وقولهم ( ولا تبغ الفساد ) ؟ والجواب من ناحيتين ، إحداهما أن نقي القوم مثل ما لقارون ليس منكراً يتعارض مع الإيمان حتى يجابهه المؤمنون ، وإنما هي نزعة تنبؤ عن اتجاه إلى المظاهر وإلى الفساد ، تحتاج إلى أولى الفكر والدعوة إلى التقويم والإصلاح لعلاجها ، والعلماء هم عنوان هذه الطائفة ، والناحية الأخرى أن العلماء كانوا من المؤمنين ، ولكنهم يزدون عن سائر المؤمنين عمق الفكر ، وبعد النظر ، بوصفهم علماء ، ولذلك استطاعوا أن يدركوا خطورة الأمانى المسيطرة على القوم ، وأن يدركوا سوء المستقبل لدى قوم تتملكهم هذه النزعة .

### ٣ - النتيجة والأثر :

فلما النتيجة ( فحسبنا به وبيداره الأرض ، فما كان له من من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ) وفي هذه النتيجة نقاط محددة :

١ - حلول الهلاك الذي حذر الله منه في قوله تعالى ( أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه ... ) فحسب الله الأرض بقارون وبيداره التي كانت مظهر جاحه ومخزن ثروته ، ليكون عقاباً له وعبرة لغيره .

٢ - في هذه النتيجة إظهار لانفراد قوة الله ، وأنه ليس هناك قط من مجير حين يحل غضب الله ( فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله )



٣ - في هذه النتيجة إظهار لضعف كل قوة أمام قوة الله ، فلم  
يقن عن قارون شيء مما يملك في ذاته أوفى ماله حين نزل به قضاء الله  
( وما كان من المنتصرين )

وأما الأثر الذي ترتب على هذه النتيجة ، من حيث الموقف  
الذي تمثله المحاور ، فقد كان أوضح ما يكون في نفوس الذين  
خدعوا بمظاهر الحياة وسيطرت على مشاعرهم زينة قارون وأملآكه ،  
فهؤلاء كانوا أسرع الناس تأثراً بما حل بقارون ، ليس لأنهم كانوا  
أعمق إيماناً من غيرهم ، ولا أشد إدراكاً للمضمون والعبرة ، بل  
لأنهم أحسوا بشيء من الذنب أو تائب النفس على ما خاير نفوسهم  
مما سبق الحديث عنه ، ومن ثم فإن هذا الإحساس بعث في نفوسهم  
الخوف من أن يحل بهم ما حل بقارون ، لأنهم وإن لم يشاركوه  
واقعا ، فإنهم شاركوه نفسيا ، برضاهم عما يفعل ، وإعجابهم مع  
ذلك بما يملك ( وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله  
يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا  
ويكأنه لا يفلح الكافرون ) وكلمة ويكأن تتكون من لفظين منفصلين  
أحدهما ( وى ) وهي تنبيء في أغلب استعمالها عن الحسرة والألم ،  
وهم هنا نادمون فلما يبلغ درجة الألم ، ولفظ ( كأن ) وهو المألوف  
في الاستعمال بمعنى التشبيه ، ومن كلامهم تبدو المعاني الآتية  
١ - الندم على انخداعهم بالمظاهر ، وعلى تمنيتهم مثل ما لقارون  
( وى )

٢ - بدأوا يفهمون حكمة الله في توزيع الرزق بين عباده  
بدرجات متفاوتة ( الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر )

٣ - أثر في نفوسهم الخوف ، فدفعهم إلى الإيمان ، وقربهم من معرفة الله والإحساس بفضله في عدم مؤاخذتهم حينئذ على خطيئتين ، أحدهما انصراف نفوسهم عن الإيمان إلى التهاافت على المظاهر مع ماصاحب ذلك مما سبق حديثه ، والثاني عدم استجابتهم لنصح العلماء وتبصيرهم بالعاقبة .

٤ - من الواضح أنهم كانوا من النوع الذي لا يستجيب للحسنى ، وإنما يخضع للخوف والرهبة ، فقد أجهل العلماء أنفسهم لتبصيرهم بالتفكير الصحيح دون جدوى ، ولكنهم ما إن أحسوا بالخوف حتى أتوا إلى العقل والإيمان مسرعين .

#### ٤ - العبرة :

والمحاورة بملايساتها حافلة بمواضع العبرة والموعظة ، ومن أبرز هذه المواضع :

١ - أن النفس الكريمة الخيرة لا تفسدها النعمة ، ولا تضعف أمام المفريات والمثيرات ، ولذلك يدعو الإسلام إلى ثبات النفس فلا تنساق في غرور النعمة ، ولا تنهار تحت وطأة البلاء من مثل قوله تعالى ( لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ) ولكن نفس قارون كانت أضعف من أن تحمل نعم الله .

٢ - الغرور أسرع السبل إلى فقدان النعمة ، كما أودى بقارون غروره .

٣ - لا ينبغي الاغترار بالمظاهر والأعراض الزائلة ، بل يجب التماس ما هو أبقي وهو طريق الله والعمل الصالح ، وقد رأينا كيف سيطر الندم على المغترين بالمظاهر

٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون بارزا في مواجهة كل منكر أو جور عن الصواب ، كما فعل المؤمنون ثم العلماء ، ومن المعروف أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسس الإسلام ، حيث إنه واجب على كل مسلم

٥ - يجمل القرآن الكريم كل هذه العبر في قوله تعالى تعقبا على أحداث هذه المحاورة ( تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ) وليس التنفير منصبا على العلو في الأرض لذاته ، وإنما على إرادته بمعنى التهاافت عليه ، والانشغال به عن الآخرة ، لأن التعبير جعل لإرادة العلو في الأرض مقابلة للدار الآخرة ، وكأن الانشغال بإحدهما لا يتلأم تلاؤما كاملا مع الأخرى ، أما إذا أقي العلو في الأرض دون تهاافت عليه ، أو انشغال به عن الآخرة ، فليس في الآية ما يفيد لتنفير منه

## ٩ - في حرية الرأي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ <sup>(١)</sup> »

### جوانب المناورة

#### ١ - الطرفان :

وطرفا المناورة هما :

(أ) الله جلّت ذاته وحكمته .

(ب) الملائكة

(١) الآيات ٣٠ - ٣٤ سورة البقرة .

## ٢ - طابع المحاوره :

وهذه المحاوره من طراز يختلف عن سائر المحاورات ، فهي نموذج أعلى للإرشاد والقدوة والتوجيه ، حيث يجعل الله سبحانه من ذاته فيها معلما ومثلا أعلى يقتدى به في مثل موضوع المحاوره . وهي بهذا المقياس أسلوب من أساليب التعليم المتعددة التي يسوقها القرآن الكريم التماسا لكل السبل في إرشاد البشر وتوجيههم . وبيان ذلك أن موضوع المحاوره كما سنرى مراجعة بين الملائكة وربه في بعض مآخلاق ، أو مآقضى بخلقهم ، ولا يصلح قط أن نفهم هذا الأمر على ظاهره البسيط القريب ، فالله سبحانه يستشير الملائكة في خلق آدم ، والملائكة يظهرون في وضوح عدم موافقتهم على خلق آدم أو جعله خليفة في الأرض ، وينكرون على الله سبحانه أن يفعل ذلك ، بل يسوقون إنكارهم على الله في أسلوب يشبه التقرير أو وصف الله سبحانه بعدم الحكمة ، متسائلين : كيف يترك الله سبحانه الجنس المتسم بالخير وهم الملائكة ، ثم يستخلف الجنس المتسم بالشر وهم بنو آدم ؟ ( قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) ؟

ومن البدهي أن شيئا من هذا كله غير مقصود في ظاهره ، فإلا الله سبحانه في حاجة إلى المشورة ، لأن المستشير إنما يلتزم خيرا الآراء ، وليس هناك رأى يعلو حكمة الله حتى يلتزمه الله سبحانه . ولا الملائكة بطبيعة تكوينهم يستطيعون مراجعة الله في أمر قط ، لأن الذي يراجع غيره ، إنما يكون غير مطمئن في الأمر الذي يراجع فيه ، وهذا يجوز في البشر إذا راجعوا الله لتقصير عقولهم

حين لا يفهمون حكمة الله ، أو المخالفة بعضهم لله حين يفهمون  
أما الملائكة فهم جنس خالص لله : ليس في طبيعته ما يدعو إلى المراجعة  
أو إلى المخالفة ، وإذن فهناك هدف تحمله المحاوره أبعد من ظاهرها .  
والذي لاشك فيه أن هذه المحاوره حقيقة ، ولكن موضع التأمل  
هو : لماذا أوجد الله سبحانه هذه المحاوره ، ولماذا ساقها ؟ ويمكن  
الإجابة عن ذلك بأن من أبرز الاهداف الواضحة التعليم ، أى أنها  
سيقى لتكون وسيلة من وسائل التعليم ، وأن الله سبحانه ييسر للناس  
أساليب التعلم والتوجيه ، حتى إنه يجعل من ذاته سبحانه قدوة  
يتعلم منه الناس ، فمع أنه في غير حاجة إلى المشورة والرأى ، إلا  
أنه يلتبس المشورة والرأى من الملائكة ، ويجعلهم مستشارين له ،  
ليعلم أصحاب الأمر والسلطان ألا يتخلوا عن الشورى مهما تكن  
الأحوال كما فعل الله سبحانه ، وليعلم المحكومين أن يبدو رأيهم  
صريحا واضحا مهما كان مخالفا للسلطان ، ومهما كانت سلطة  
هذا السلطان ، كما فعل الملائكة ، ولكنه يعلمهم أن يرجعوا إلى  
الحق إذا استطاع السلطان أن يقتنعهم بالمحاوره والمنطق ، كما رجع  
الملائكة ، وألا يتمادوا حينئذ في الخلاف ، لان خلافهم إذن سيكون  
باطلا ، وليعلمهم سبحانه أشياء أخرى مما تضمنته المحاوره .

### ٣ - النتيجة والاثـر :

والواقع أن الموضوع الاساسى للمحاوره هو تكريم آدم بوصفه  
جنسا وليس شخصا ، أعنى تكريم جنس . بنى آدم الذين يعمرون  
الأرض ، ويصبحون خلفاء لله فيها ولكن تكرار هذا المعنى في القرآن  
الكريم باكثر من أسلوب يجعله وإن كان واضحا بارزا إلا أن في  
المحاوره ما هو أبرز منه لغرابته أو طرافته ، ومن ذلك حرية الرأى التى

أيدها الملائكة فيما يشبه الإنكار على الله سبحانه في خلقه آدم واستخلافه  
إياه في الأرض ثم قبول الله ذلك منهم دون غضب ، بل فيما يشبه  
التشجيع لهم على إبداء الرأي الصحيح الواضح ، ليكون سبيلا  
إلى الحوار ثم الوصول إلى الحق المقنع الذي يبعث في النفس اليقين  
والاطمئنان ، وهو غاية الإيمان وهدفه .

#### ٤ - مراحل المحاورة :

من حيث إن أظهر أغراض المحاورة الإرشاد والتعليم ، نلاحظ  
أنها صيغت في قالب العادي المألوف للبشر ، وكأنها محاورة بين  
طرفين من الناس ، حيث تعرض علينا المحاورة ما يأتي :-

١ - الله سبحانه يعرض على الملائكة الموضوع فيما يوحى بأنه  
يطلب رأيهم ، وقد عرض سبحانه الموضوع على الملائكة بصيغة تحمل  
فيها تحمل معنيين

(أ) أحدهما أنه قضى بجعل آدم خليفة في الأرض ، أي  
مالكها ، ومسيطرًا عليها نيابة عن الله المالك الحقيقي ، وأن هذا  
القضاء لارجوع فيه ، وكل قضاء الله لارجعة فيه ، ولذلك كان  
التعبير ( إني جاعل في الأرض خليفة ) .

(ب) والمعنى الآخر أنه سبحانه لا يطلب رأيهم في خلق آدم ،  
وإنما في جعله خليفة ، كما هو واضح من التعبير السابق .

ومفهوم الآية يتضمن أن الملائكة لديهم علم بطبيعة بنى آدم  
الذين سيجعلهم الله خلفاء في الأرض ، وليس يعنينا كيف كان  
لديهم هذا العلم ، فهذا أمر قد يطول حديثه أو الاختلاف فيه ، وإنما  
يعنينا أن الوضع الطبيعي أن من يرشح شخصا لمنصب ، أو لتولي

أمر ذى أهمية ، يعرض عادة تعريفا بهذا المرشح ، وإذن فمن المتوقع أن الله حينما أخبرهم باستخلاف بنى آدم أخبرهم بطبيعة هؤلاء الآدميين ، أو أن الملائكة توقعوا ذلك من فهمهم لطبيعة آدم فى تكوينه ، ويكنى أن يكون من هذه الطبيعة أنه يأكل ويشرب ، فإن كل ما فى حياة الناس من صراع : ومن مشاكل ، ومن فساد إنما يرجع فى أصله إلى الحاجة إلى الطعام . فليس غريبا أن يكون من فى مثل درجة الملائكة من الإدراك متوقعا لما سيصدر من بنى آدم ، ويحتمل أيضا أن تكون لهم تجارب مع مخلوقات أخرى سابقة لآدم ، ففاسوا طبيعة آدم عليها ولهم أن الله أطلعهم بوسيلة ما على ماسيكون عليه بنو آدم

وأما عن كيفية استخلاف الله لآدم ، فمع مراعاة اختلاف المفسرين فيها ، يمكن القول بأن أقرب ما يناسب العقول من هذا المعنى أن الله جعل بنى آدم هم المالكين للأرض ، والمسيطرين عليها دون أن ينافسهم فى ذلك جنس آخر ، وكانهم بذلك نائبون عن الله فى هذه الملكية والسيطرة ، وذلك أن الأرض تحوى ما لا يعد ولا يحصى من أنواع المخلوقات الحية وغير الحية ، وهذه المخلوقات على كثرتها واختلافها ليس من بينها قط جنس له سيادة أو سيطرة إلا بنو آدم ويمكن أن نتصور كيف يكون حال الأرض لو خلقت من بنى آدم ، والتملك فى حقيقته الله وحده ، ولكنه سبحانه كأنه أناب بنى آدم واستخلفهم عنه فى تملك الأرض وما فيها ، والتعبير يشير بوضوح إلى أن الأرض وما فيها سابقة لآدم وهذا مطابق للبحث العلمى

٢ - الملائكة يظهرون فزعهم من أن يكون بنو آدم خلقاء الله



في هذا الكوكب ذي الأهمية ، أو في أى مكان ، وذلك بعد أن علموا أن من طبيعة بنى آدم الإفساد وسفك الدماء ، والملائكة جنس لا يحمل في طبيعته وتكوينه إلا الخير ، فهم يستغربون الشر وينفرون منه ، ولا يتصورون كيف يرضى الله بأن يستخلف مخلوقاً يحمل شيئاً من الشر ، مهما كان فيه من الخير ، وكأنهم يقترحون على الله أن يجعلهم هم خلفاء له في الأرض ، ليس حياً في الخلافة ، وإنما محافظة على طهر الأرض ، وجعلها كغيرها مكاناً خالصاً لتسبيح الله وتقديسه ، وليس مكاناً للإفساد وسفك الدماء ، وتوجهوا بكل ما في نفوسهم إلى الله ، لأنهم لا يخضون عنه شيئاً ، وما نفع الإخفاء عن من يعلم كل شيء ؟ ، ( قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ )

٣ - يرد الله سبحانه على الملائكة بما من أجله اختار آدم خليفة ولم يكن الله في حاجة إلى تعليل شيء مما يفعل ، وما كان لأحد أن أن يكون له في خلق الله رأى ( لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ) ولكنه سبحانه يريد أن يعلم الناس ، وما يعلمهم إياه ألا يستبد صاحب الأمر برأيه يفرضه فرضاً على الأتباع ، بل ينبغي أن يكون سبيله دائماً الحوار والإقناع بالمنطق والحجة ، كما فعل الله سبحانه في إقناعه الملائكة .

ونلاحظ أن جواب الله سبحانه في بيان استخلافه آدم ، يتضمن جانبين :  
(١) أحدهما أن آدم استحق هذه المنزلة لأسباب خاصة يعلمها الله ، ولا يريد أن يسطها للملائكة أو أن يسطها للملائكة غير ذى نفع لأنهم لن يفهموها ، حيث إن طبيعة آدم في تكوينه تختلف عن طبيعتهم

فلن يفهموا الحديث عن طبيعة لا يعرفونها ، وإذا أراد امرؤ أن يتخيل شيئاً من هذه الأسباب التي حجب الله حديثها عن الملائكة ، فقد يلتبس أسباباً من أبرزها في فضل آدم على الملائكة ، أن عمل الخير لدى الملائكة يسير هين ، لأن طبيعتهم مهيأة للخير ، ولا تحمل إلا الخير أو الدافع إلى الخير ، أما الآدمي فإن عمل الخير لديه شاق عسير ، حيث إن نفسه تحمل الشر والدوافع إلى الشر ، وحين يريد عمل الخير . تثور في نفسه نوازع شر لتثب عن هذا الخير ، فلا يستطيع عمل الخير إلا بعد اجتياز صراع مع نفسه ، وحينئذ يكون الآدمي صاحب الخير أفضل من الملك ، لأن الملك يفعل الخير بسجيته دون عناء ، أما الآدمي فيفعله ضد سجيته وفي صراع وجهد ، كما أن الآدمي الشرير أخف شراً من الملك الشرير وهو إبليس - باعتباره أصلاً من الملائكة <sup>(١)</sup> وبهذا المقياس يكون الآدميون في كل أحوالهم خيراً من الملائكة ، فهم في الخير أعظم منهم خيراً ، وفي الشر أيسر منهم شراً ، ولئن صلح هذا سبباً من الأسباب التي لم يبسطها الله للملائكة في تفصيل آدم عليهم ، فهناك سبب أو أسباب من أجلها استخلف الله آدم ، ومن أجلها فضله على الملائكة حتى أمرهم بالسجود له ، ليس سجود العبادة ، وإنما سجود التكريم والاعتراف بالأفضلية

(ب) والجانب الآخر في فضل آدم على الملائكة ظاهر واضح ، وهو العلم المكتسب ، فالملك يعلم ما يعلمه منذ خلقه الله ، وبطبيعة تكوينه ،

(١) بدليل قوله تعالى ( واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ) فدخوله مع الملائكة في الأمر بالسجود ثم الاستثناء ، دليل على أنه منهم .

فهو لا يبذل جهدا في العلم ، ولا تزيد معلوماته بمرور الزمن ، وأما  
الآدمي فمعكس ذلك ، لانه يخرج من بطن أمه جاهلا كل الجهل ،  
ثم يتدرج في المعرفة والعلم في بطنه وعناء شديدين ، وكل ما يحصله  
من المعرفة والعلم إنما يأتي بالجهد ، قل هذا الجهد أعظم ، ولا يتصور  
أن يعرف الإنسان شيئا دون أن يبذل فيه جهدا .

ويريد الله سبحانه أن يبرز هذا المعنى للملائكة بصورة واضحة  
لهم ، فيعقد امتحانا علميا ، يعرض عليه الملائكة أولا ، فإذا هم  
يفشلون فيه كل الفشل ، حيث لا يجيبون عن شيء منه قط ، ثم يعرض  
عليه آدم بما علمه الله من علم مكتسب ، فإذا هو ناجح كل النجاح  
حيث يجيب عن كل ما طلب منه .

هنالك أيقن الملائكة بفضل آدم عليهم ، واستحقاقه الخلافة  
وقد عسروا عن ذلك بالسجود لآدم حين طلب الله منهم ذلك .

وفيما يتعلق بنوع العلم الذي اختص به آدم ، يمكن أن نقول  
إن التعبير في الآيات يوحى بأنه ليس المراد تحديد نوع معين من  
العلم ، وإنما الواضح لإبراز نقاط معينة تبدو عن خلال الالتفات ،  
وأوضح هذه النقاط .

(أ) أن علم آدم مكتسب وليس نابعا من طبيعة تكوينه  
أونحو ذلك ، ويشير إلى هذا ( وعلم آدم... ) فهو صريح في أن  
آدم تعلم أشياء لم تكن معلومة له .

(ب) أن علم آدم واسع ، يتسم بالشمول . ويدل على هذا  
التأكيد بلفظ ( كل ) في قوله ( وعلم آدم الاسماء كلها )

(ح) أن آدم اختص بهذا العلم دون الملائكة ، كما هو واضح في الآيات .

أما ذكر الاسماء فأغلب الظن أنها مجرد رمز لهذه النقاط التي سبقت ، حيث إن السياق لا يركز على بيان نوع العلم ، وإنما على تميز آدم وانفراده بعلم لا يعرفه الملائكة .

٤ - رجع الملائكة إلى الحق ، فاعترفوا بفضل آدم عليهم ، وهذا يمثل النتيجة للمحاورة ، فالموضوع الأساسي للمحاورة كما سبق ، هو تكريم آدم وبيان فضله ، وقد أثر الله سبحانه ألا يفرض هذا على الملائكة فرضاً ، وإنما أراد أن يقنعهم به إقناعاً بأسلوب المحاورة ، وقد أيدى الملائكة اعترافهم بفضل آدم من جانيبين على سبيل التضمين .

(أ) أحدهما اعترافهم ضمناً بفضل آدم في العلم ، حين أعلنوا عجزهم عن الإجابة ، بينما أجاب آدم ، ونتيجة الموقف حينئذ واضحة ، وهي تفوق آدم على الملائكة .

(ب) مسجودهم لآدم حين أمرهم الله بذلك ، فإن السجود لا يكون إلا للأفضل والأعظم ، ولذلك امتنع إبليس عن السجود لآدم حين لم يعترف بفضلي آدم عليه .

#### العبرة :

ومن الواضح كما سبق أن المحاورة مسبقة للتعليم ، ومواطن العبرة التي ينبغي أن يتعلمها الناس في هذه المحاورة كثيرة ، وأبرزها ١ - يجعل الله سبحانه من ذاته ، ومن الملائكة ، قدوة يتعلم

منها البشر ، وفي هذا أقصى ما يمكن من حشد إلى التعليم والافتداء .

٢ - الشورى يجعلها الله منهاجاً أساسياً في كل أمور الناس وشئون حياتهم ، وخصوصاً ولاية الأمر ، فلا يتبغى لولى الأمر مهما بلغ من سداد الرأى أو النفوذ والسلطان أن يستبد برأيه وحكمه وحسبه أن يجد الله سبحانه يشاور بعض خلقه في شئون ملكه ، بل نلمس من خلال التعبير كأن الله شاور الملائكة جميعاً ( وإذا قال ربك للملائكة ... ) .

٢ - حرية الرأى يجب أن تكون مكفولة للجميع ، ولا يشترط في صاحب الرأى أن تكون له صفات معينة أو منزلة خاصة ، فإن الملائكة ليسوا جميعاً في منزلة واحدة ، بل فيهم أعلام متميزون ، ذكر القرآن بعضاً منهم بأسمائهم كجبريل وميكائيل ، أو بصفاتهم كحاملة العرش ، ولكن الله لم يخصصهم وحدهم بالمشورة ، كما أنه لم يجعل لهم وحدهم حق التعبير عن رأيهم ، وإنما منح هذا للملائكة في جملة أمورهم ، ولذلك صدر الرأى عن الملائكة جميعاً ( قالوا أئجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ... ) فقد استطاع الملائكة أن يعبروا عن رأى يمد في ظاهره غاية في الجرأة على الله ، لأن الله يريد أن يعلم الناس أن يجهروا برأيهم مهما كان مخالفاً لصاحب الأمر والسلطان .

وليس ذلك للشقاق أو الخلاف ، وإنما هو تنمة لمبدأ الشورى الحقيقية ، فالمستشار الصادق المخلص لابد أن يعبر عن رأيه كما يراه هو ، وليس كما يرضى ولى الأمر ، .

ولكن هذه الحرية التي يمنحها القرآن للتعبير عن الرأي مقيدة بقيدين :

(أ) أحدهما صدق التعبير عما في النفس ، بمعنى أن يكون الرأي نابعا عن صدق وإخلاص . ولو كان في حقيقته خطأ ، كما فعل الملائكة ، فإنهم بداهة لم يظهروا رأيهم هذا للمخالفة ، وإنما خوفا من الشر الذي سيفرسه آدم في الأرض ، ورغبة في الخير الذي تعودوه هم .

(ب) والآخر الرجوع إلى الحق فور ظهوره ، فلا ضير في خلاف الرأي مهما يبلغ ، إنما الشر في التماذي في الباطل ، أو عدم الرجوع إلى الحق حين يتضح ، وقد أسرع الملائكة إلى الحق حين ظهر .  
٤ - العلم أعظم ما يحمله الإنسان ، بل أعظم ما في الكون على الإطلاق ، وذلك شديد الوضوح في آيات هذه المحاورة ، فأدم إنما علا على الملائكة بشيء معين حددته الآيات هو العلم ، وشعاره ( وَعَلَّمَ آدَمَ .. ) وحين أراد الله سبحانه أن يفتح الملائكة بفضله آدم عليهم أجرى لهم وله امتحانا في العلم ، وحين تفوق عليهم بالعلم اعترفوا بعلو قدره عليهم ، ونلاحظ أيضا أن الله سبحانه حينما وصف نفسه بأنه فوق الجميع ، جعل صفته في هذا المقام العلم ( أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ) مبينا أن العلم هو الذي يحدد المنازل ، فالله سبحانه فوق الجميع لأنه يعلم ما لا يعلمه أحد ، وآدم فوق الملائكة ، لأنه يعلم ما لا يعلمونه ، والملائكة دون آدم لأنهم لا يعلمون ما يعلمه آدم ، ويكفي تعظيما للعلم أن صفة العلم في آدم كانت أهم دواعي سجود الملائكة له .

٥ - الأحكام يجب أن تكون مبنية على الإقناع مهما يكن مصدرها ، حيث نجد في المحاوراة أن الله سبحانه قضى بفضل آدم فجعله خليفة عنه في الأرض ، وبتفضيله على مخلوقات أخرى منها الملائكة ، حتى أمره بالسجود له ، وقد كان الله سبحانه يملك أن يقتضى بما يشاء ، وأن يأمر بما يريد ، ويملك أن يفرض طاعته على كل مخلوق ، ولكنه جلت حكمته يريد أن يعلم الناس أن تكون أحكامهم مبنية على الإقناع ، فبين للملائكة مايقنعهم بفضل آدم . بل جعل هذا الإقناع عملياً في صورة امتحان وصل فيه الملائكة في اقتناعهم إلى حد إعلانهم العجز عن مجازاة آدم في العلم ، وهذا يقتضى تسليمهم الكامل بتفوقه وفضله عليهم .

٦ - من أبرز مانتضمنته المحاوراة إظهار تكريم الجنس الآدمي ، ليتعلم الناس أن كل آدمي يكتسب كرامته من مجرد كونه آدمياً وأن الآدميين جميعاً في هذا سواء ، حيث إنهم لايتفاوتون في صفة الآدمية ، وقد سبق القول بأن هذا هو الموضوع الأساسي للمحاوراة ويؤكد ذلك أن هذا المعنى تردد كثيراً في القرآن الكريم . سواء في صورة محاوراة كهذه المحاوراة ، أو في أسلوب آخر كقوله تعالى ( ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ) ويعطى الإنسان هذا المعنى في كل تشريعه من جانبين ، أحدهما المحافظة على كرامة الآدمي وحقوقه لمجرد كونه آدمياً ، مهما صغرت منزلته في أعين المجتمع ، والآخر المساواة بين الآدميين جميعاً في كل الحقوق والواجبات .

## ١٠ - بين السادة والاتباع

### في الآخرة

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ »

ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بئس كنتم مجرمين ، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بئس مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يُجزون إلا ما كانوا يمتثلون » (١)

### جوانب المعاورة

#### ١ - طبيعة المعاورة :

هذه المعاورة تمثل نوعا معينا من محاورات القرآن ، هو المحاورات في الدار الآخرة سواء أكانت بين طبقات من الكافرين كهذه المعاورة أم بين عذرة الجنة ومن فيها وعذرة النار ومن فيها ، أم بين الشيطان وبعض أنبيائه أم نحو ذلك .

(١) الآيات ٣١ - ٣٣ سورة سبا .



ومن الواضح في هذا النوع من المحاورات الرمز ، أعنى أن المحاوره بكل ما تشتمل عليه من أطراف وموضوع إنما يرمز بها إلى هدف يريد القرآن أن يبرزه ويوضحه في النفوس عن طريق الرمز يمثل هذه المحاورات ، ويدل على ذلك أمران ، أحدهما أن هذه المحاورات لم تحدث حقيقة ، لأنها لم توجد بعد ، وإنما هي تصوير لما سيحدث في الآخرة ، والأمر الآخر أنها غالبا لا تنتسب إلى أطراف محددة أى أنها لا تساق على ألسنة أشخاص أو جماعات محددة معروفة ، كالمحاورات التي ساقها القرآن عن أشخاص معينين في الدنيا ، وإنما ترد هذه المحاورات غالبا رامية إلى أنواع وليس إلى أشخاص ، كالكافرين ، أو السادة ، أو الأتباع ، أو الأصدقاء ، أو نحو ذلك ، دون القصد إلى أشخاص محددين من هذه الأنواع .

## ٢ - طرقا المحاوره :

(أ) فلما الطرف الأول فهم الذين استضعفوا وهم رمز لعامة الناس الذين يسهل التأثير عليهم ، ويمكن أن ينتقادوا بسهولة لمن يؤثر فيهم

(ب) وأما الطرف الثاني فهم الذين استكبروا ، وهم رمز للسادة والزعماء الذين يستطيعون التأثير في عامة الناس بأي نوع من المؤثرات ، كالقوة أو المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك

## ٣ - الموضوع :

وموضوع المحاوره الأساسى هو ندم الأتباع على انقيادهم الأعمى للسادة حتى انساقوا وراهم في الكفر والفسلال ، وهذا الندم جعلهم

يصيرون نعمتهم على سادتهم في محاوراة كانت خطواتها الأساسية  
كما يل :

(أ) الأتباع يشبهون سادتهم بأنهم السبب في ضلالهم ، ولولاهم  
لم يضلوا ( لولا أنتم لكنا مؤمنين )

(ب) السادة يسهون الأتباع ساخرين منهم ، منكرين أن  
يكونوا هم السبب في ضلالهم ، متهمين إياهم بالإجرام ( أنحن  
صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين )

(ج) الأتباع يذكرون السادة بما كانوا يدبرونه ويقدرونه  
من الكيد للدين والصد عنه ، وأنهم كانوا يأمرون الأتباع بالكفر  
والشرك بالله

#### ٤ - العبرة :

هذا النوع من المحاورات يمس جانباً كبيراً الأهمية في حياة  
المجتمعات وهو القيادات وما ينبغى أن تكون عليه ، فأما أهمية  
القيادات ، فلأنها في حقيقتها أمر طبيعي في حياة الناس ، أعنى أن  
وجود القيادة والزعامة أمر موجود بطبيعته في كل مجتمع ، حيث  
يلحظ علماء الاجتماع أن كل مجتمع ، بل حتى جماعات اللعب  
لدى الأطفال تبرز فيها زعامة وقيادة بصورة تلقائية ، وإذن فالقيادة  
موجودة في كل المجتمعات على اختلاف أنواعها ، ولذلك يوليها  
القرآن الكريم اهتماماً واضحاً ، ومن ذلك المحاورات العديدة التي  
تنصب على هذا الموضوع

وأهمية القيادات في نظر الدين ، أن السادة والقادة هم في

كل العصور العقبة الأساسية في وجه الأنبياء ، وفي طريق انتشار الدين ، وذلك لأنهم يرون في الدين هدما لسيادتهم ، وانتقاسا من نفوذهم وقيادتهم ، حيث إن من أبرز مائدعو إليه الأديان المساواة بين الناس ، وهذه المساواة أبغض الأشياء إلى السادة ، لأنها تهدم سيادتهم وتهدم تسلطهم على الأتباع ، بالإضافة إلى اعتبارات أخرى من وجهة نظرهم يرون الدين فيها ماسا بسيادتهم وبإطلاق يدهم في جمع الأموال واكتنازها ونحو ذلك ، ولهذا ينبغي هؤلاء السادة دائما للوقوف في وجه الدين في كل العصور ويؤكد القرآن هذا المعنى بقوله عقب هذه المحاوره ( وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ) ٣٤ سبأ .

ولذلك يهتم القرآن في مواضع عديدة ، منها مجاورات متكررة ، تلقت نظر الأتباع إلى خطورة انقيادهم الأعمى وراء السادة ، موضحة أن هؤلاء السادة لن يغتوا عنهم عند الله شيئا . (١) . ومن أوضح الأدلة على ذلك في هذه المحاوره ، أننا نجد الآيات تركز المعاني على إبراز موقف الأتباع في النديم والعذاب في الآخرة ، دون إبراز موقف السادة ، مع أنهم جميعا مشتركون في ذلك ، ولكن الهدف هو مخاطبة الأتباع وتبصيرهم بمسوء اتباعهم لهؤلاء السادة الذين يصدونهم عن سبيل الله . والمحاوره حافلة بمواضع التأمل ، ومن أبرز هذه المواضع :

(١) من أراد البسطة في موضوع هذه المحاوره فليرجع الى كتاب أسلوب السخرية في القرآن الكريم للمؤلف ، وبخاصة في فصل السخرية والقيادات .

(١) أن المحاوره كلها في سياق الكفر ( وقال الذين كفروا  
لن نؤمن بهذا القرآن ... ) ومعنى ذلك لفت نظر هؤلاء الكافرين  
وبخاصة الأتباع - وهم أكثرية الناس - إلى خطورة ما هم فيه ، وتبصيرهم ،  
بعاقبة اتباعهم الأعمى لسادتهم .

(ب) تعبير (ولو ترى) مع حذف الجواب ، يوحي بمعنى لاحدود  
لعمقه وتأثيره ، حيث إن التقدير ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون  
عند ربهم لرأيت عجايب ، ومع ذلك فهذا العجب غير محدد ، بل  
متروك لتذهب النفوس في تصوره وتخيله حسب السياق كيف  
تشاء ، ومن الملاحظ أن تعبير (ولو ترى ..) بهذه الصورة يأتي به  
القرآن في المواضع التي تحتاج إلى التضخيم وزيادة التأثير في النفوس .

(ج) لفظ ( وأسروا ) يتجه للمفسرون إلى ترجيح حمله على  
أنه من استعمال الأعداد ، بمعنى أظهروا الندامة ، ولكن الواقع أن  
التعبير بإسرار الندامة يمثل غاية الدقة ، لأن الشيء للكيوت في  
النفوس أشد إيلاها وتأثيرا فيها ، وهكذا كل انفعالات الإنسان  
ومشاعره ، يخففها التنفيس عنها بإظهارها ، ويزيدها عمقا وتأثيرا  
كتمها وإخفاؤها ، كالغضب يخففه إظهاره ومزاولة التعبير عنه ،  
ويزيده عمقا وحدة إخفاؤه دون محاولة التخلص منه ، وكذلك الحزن ،  
يخففه إظهاره والتعبير عنه ، بالحديث أو بالبكاء ، ويزيد من ألمه  
كتمه وإخفاؤه ، كما تعبر عنه الآية ، فالندامة هي ألم الندم على  
التقصير في شيء فائت ، وإسرارها إخفاؤها .

ولكن العبرة العامة في المحاوره لفت الأنظار إلى خطورة الانقياد  
الأعمى للزعامات وذوى السيادة ، وتبصير الأتباع بسوء المصير

الذى ينتظرهم حين يسلمون قيادهم بدون بصير ، وبأن هؤلاء السادة الذين ينقادون لهم لن يفتوا عنهم عند الله شيئاً .  
والواقع أن هذا المعنى جزء من قضية أساسية في الإسلام ، وهى حرية الفرد ، ووجوب استقلال فكره وسلوكه ، بحيث لا يسلم قياده إلا للحق ، فالحق وحده يجب أن يكون هو الوجهة وهو القائد معاً ، وهذه القيادة هى التى يجب أن تنطوى تحتها كل ألوية المؤمنين ، والإسلام لا يحارب القيادة لذاتها ، بل يجعلها عنصراً أصلياً في تنظيمه الاجتماعى كما في الحديث الشريف ( إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم واحداً منكم ) ، وإنما يحارب انحرافها وضلالها ووقوفها عقبة في سبيل الله ، ومن روائع النبى صلى الله عليه وسلم في هذه القضية ، قضية كيان الفرد واستقلال فكره ، قوله ( لا يكن أحدكم إمعة ) ، يقول أنا مع الناس ، إذا أحسن الناس أحسنت ، وإذا أساءوا أسأت ، بل وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإذا أساءوا أن تشجنوا إساءتهم .

تم بحمد الله

## المفردات

٣	تقديم
١١	المحاورة والمجادلة
١٦	الدعاة واللسان
٢٤	القرآن الكريم واللسان
٢٩	طبيعة الحوار في القرآن الكريم
	التنوع — الاعتماد على العقل — إنصاف الخصم — تحديد
	الغاية وتوضيحها — الرغف بالمهزوم — تحديد المجموع .
٤٣	تأثير المحاورة ..
٦٥	أمثلة متنوعة
٦٧	في الإيمان
٦٨	مراحل المحاورة وملابساتها
	القضية — معارضة الخصم — دفاع الرسول — نتيجة
	المحاورة
٨٥	في الإصلاح
	عناصر المحاورة — طرقا المحاورة — موضوع المحاورة —
	موقف الخصم — موقف الرسول — نتيجة المحاورة — العبرة

١٠٤ ... بين الخير والشر. ...

جوانب المحاوره — طرفا المحاوره — موضوع المحاوره —  
موقف الظالم — موقف المظلوم — النتيجة — العقاب —  
عقاب الدنيا — عقاب الآخرة — العبرة .

١٢٣ ... في السياسة ...

جوانب المحاوره — الملابسات — موضوع المحاوره —  
طرفا المحاوره — عناصر كتاب سليمان — عرض الموضوع —  
موقف الطرف الثاني — دفاع الملكة — العبرة .

١٤٦ ... في طلب العلم ...

جوانب المحاوره — السياق — طرفا المحاوره — موقف  
الطالب — موقف العالم — جواب الطالب — العبرة .

١٦١ ... في صراع النفس ...

عناصر المحاوره — الموضوع — السياق — موقف الأب  
الذائب — موقف الابن الذبيح — النتيجة — العبرة .

١٧٤ ... في مقاسمة الطفيلان ..

عناصر المحاوره — الملابسات — طرفا المحاوره —  
موضوع المحاوره — موقف السحرة — موقف فرعون —  
جواب السحرة — العبرة .

١٩٧ ... في جنابة الضرور . ...

عناصر المحاوره — الموضوع — أطراف المحاوره ومواقفهم  
— موقف قارون — موقف المؤمنين — جواب قارون النظري  
— الجواب العملي — موقف العامة — موقف العلماء  
— النتيجة والأثر — العبرة .

في حرية الرأي .. ... ٢١١ ...

جوانب المخاورة — الطرفان — طابع المخاورة — النتيجة  
والأثر — مراحل المخاورة — العبرة .

بين السادة والاتباع ... ٢٢٣ ...

جوانب المخاورة — طبيعة المخاورة — طرفا المخاورة  
— الموضوع — العبرة .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٥/١٨٨٢  
I.S.B.N. 977-01-4254-9